في سيكولوجية الامثال العربية
٣

جورج صدقني

بعد انقطاع طال اكثر مما قدرت ، ولم يكن لي حيلة فيه ، أصل ما انقطع ، وأتابع الكلام في سيكولوجية الأمثال العربية (١)

٥ /٨/ – من سمات الأمثال العربية القديمة أن صيغة (أفعل التفضيل) ترد فيها بكثرة ، أي أن نسبة كبيرة من الأمثال العربية القديمة، تعد بالمئات ، تقوم على هذه الصيغة – أفعل التفضيل – فهي من المثل بمثابة العمود الفقري من الجسم ، كقول العرب : أجود من حاتم ، أروغ من ثعلب ، احرّ من الجمر .

وفي رأينا أن هذه السمة بالغة الدلالة من وجهة النظر السيكولوجية ، ولكي نستكشف هذه الدلالة ، نأخذ احد هذه الأمثال مثالاً على ذلك ؛ وليكن المثل القائل (أجود من حاتم) ونتناولـه بالتحليل ، حتى نجلو المنطق الباطن في هذا النمط من التعبير .

١ – انظر المقالات السابقة في الاعداد / ١٩٩ – ٢٠٠ – ٢٠٢ – ٢٠٤ / من مجلة المعرفة

١/٨/٥ ـ حاتم الذي ورد ذكره في المثل شخص حقيقي واقعي ، وهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي . كان جواداً شجاعاً فارساً مظفراً ، إذا قاتل غلب ، وإذا سئل وهب ، وإذا أسر اطلق ، وإذا أثرى أنفق . كانت له حكايات في الجود والكرم تناقلتها الألسن وتحدثت بها الركبان ، حتى « ضرب به المثل » في الجود ، ولو استخدمنا لغة العصر لقلنا إنه « ضرب الرقم القياسي » في الجود . إنه إنسان من صميم الواقع ، ارتفع بسلوكه الى مرتبة المثل الأعلى .

ولكن المثل الأعلى ليس مفارقاً للواقع (انظر المقالات السابقة) فإذا كان حاتم قد بلغ غاية الجود ، واصبح مضرب المثل فيه ، فإنه يظل من الواقع ، وماثلاً للأعين في الواقع ، وقدوة لمن يشخصون نحوه بأنظارهم . ولو استخدمنا لغة العصر لقلنا : إذا كان حاتم قد سجل الرقم القياسي في الجود ، فإن هذا الرقم القياسي ليس وهماً او خيالاً ، بل هو واقع ، ويبقى المجال مفتوحاً أمام كل إنسان لكي « يحطم الرقم القياسي » ، ويتجاوزه .

بعبارة اخرى المثل الأعلى نموذج واقعي . صحيح انه بعيد المنال ، ولكنه ممكن التحقيق ، اي ان بوسع الإنسان ان يبلغه ، بدليل ان فلاناً من الناس صار مضرب المثل (صار مثلاً أعلى) في كذا أو كيت . اكثر من ذلك : إن الإنسان لا يستطيع أن يبلغ المثل الأعلى وحسب ، بل إنه يستطيع ان يرقى الى ما هو أسمى منه ، يستطيع ان يحطم الرقم القياسي ويتجاوزه . بوسع الإنسان ان يبلغ مرتبة (حاتم) في الجود ، وبوسعه ان يتجاوزها ، فإذا تجاوزها قيل عنه إنه (اجود من حاتم) .

هو ذا منطق المثــل العربي القائم على (أفعل التفضيل) : نموذج مثالي من الواقع يتم الارتقاء الى ما فوقه ، فيقال عمن، أو عما ، ارتقى فوق النموذج المثالي إنه (أفضل) مــن هذا النموذج المثالي نفسه .

٢/٨/٥ ـ قد يخطر ببال القارىء أننا حملنا مثل (أجود من حاتم) أكثر مما يطيق ، أو أكثر مما يطيق منطق العلم في الاستقراء والتعميم . وقد يجد بعض القراء شيئاً من المبالغة في ماذهبنا إليه من رأي استناداً الى مثل عربي واحد .

وقد كان يصح هذا الاعتراض لو كانت العربية لا تحوي غير هذا المثل بصيغة (أفعل التفضيل) ؛ أو لو كانت لا تحوي إلا بضع عشرات من الأمثال بهذه الصيغة .

ولكن في العربية مئات من الأمثال بهذه الصيغة ، حتى إنــه يصعب حصرها ، وحتى يكاد المرء يذهب الى القول إن صيغة (أفعل التفضيل) هي أكثر الصيغ تكراراً في الأمثال العربية . وسنحاول في الفقرات التالية أن نورد بعض هذه الأمثال ، مبتعدين قدر الإمكان عن الألفاظ المهجورة ، التي بعد العهد بها عن الاستخدام في لغة المعاصرين ، حتى أصبحت تحتاج الى شرح لتكون مفهومة .

٣/٨/٥ ـ جعلت العرب لكل سمة إنسانية (أو طبع بشري) تقريباً ، سواء أكانت سمة مستحبة أو مرذولة ، مثالاً من الناس ، أو نموذجاً واقعياً من البشر (ولهذا تكثر أسماء الأعلام في الأمثال العربية ، وسنعود الى هــذا في فقرات قادمة) . فمثال البلاغة هو قس بن ساعدة ، ومن هنا المثل العربي : أبلغ من قس . وزرقاء اليمامة مثال حدة البصر ولهذا قيل : أبصر من زرقاء اليمامة . وللجود أكثر من مثال : أجود من حاتم ، ومن كعب بن مامة ، ومن هرم (بن سنان) . وللوفاء

ايضاً ، يقال : اوفى من السموال ، ومن عوف بن محلّم ، ومن الحارث بن ظالم ، ومن ام جميل ، ومن ابي حنبل ، ومن الحارث بن عباد ، ومن خماعة ، ومن فكيهة . وفي الخطابة يقال : اخطب من سحبان وائل ، ومن قس (بن ساعدة) . وفي الدهاء ، ادهى من قيس بن زهير . وفي الحلم ، احلم من الأحنف . وضرب المثل بامرىء القيس في الغزل ، فقيل اغزل من امرىء القيس . وفي العز قيل : اعزّ من كليب وائل ، ومن الزباء ، ومن حليمة . وفي الفخر ، افخر من الحارث ابن حلزة . وفي الثأر ، اثأر من قصير . وفي الفتك ، افتك من البرّاض ، ومن الجحّاف ، ومن الحارث بن ظالم ، ومن عمرو ابن كلثوم . وفي الحـزم ، احزم من سنان . وفي الحكمة ، احكم من زرقاء اليمامة ، ومن لقمان . وفي السيادة ، اسود من الاحنف . وفي عذوبة اللحـن ، الحن من قينتي يزيد (ابن عبد الملك) ، ومن الجرادتين . وفي النسيب ، انسب من كثيّر (عزة) . وفي الانساب ، انسب من دغفل ، ومن ابن لسان الحمّرة . وفي الإنجاب ، انجب من مارية ، ومن فاطمة بنت الخرشب الانمارية ، ومن ام البنين ، ومن خبيئة ، ومن عاتكة . وفي النطق ، انطق من سحبان وائل ، ومن قس بن ساعدة . وفي الندم ، أندم من الكسعي . وفي الاكل ، آكل من لقمان ، ومن معاوية . وفي البخل ، ابخل من مادر ، ومن كسَع . وفي التجارة ، اتجر من عقرب (تاجر من تجار المدينة ، ضرب به المثل في المطل ايضا ، فقيل : امطل من عقرب) وفي الحماقة ، احمق من بيهس ، ومن جحا . وفي خلف الوعد ، قيل اخلف من عرقوب . وفي الخيبة ، اخيب من حنين . وفي الزنى ازنى من سجاح . وفي الضلال ، اضلّ من سنان . وفي العدو ، اعدى من الشنفرى ، ومن السليك . وفي طول العمر ، اعمر من نصر . وفي الغدر ، اغدر من قيس ابن عاصم ، ومن عتيبة بن الحارث . وفي الغيرة ، اغير من

عقيل . وفي الإفلاس ، أفلس من ابن المدلّق . وفي الفقر ، افقر من العريان (بن شهلة الطائي) . وفي الكذب : اكذب من المهلب (بن ابي صفرة) ، ومن قيس بن عاصم ، ومن مسيلمة . وفي الفَوَه (وهو سعة الفم ، أو خروج الأسنان من الشفتين مع طولها) ، افوه من جرير . وفي اللهفة ، الهف من قضيب (كان تمارا بالبحرين) . وفي اللؤم ، الأم من اسلم ، ومن ابن قرصع ، ومن جدرة ، ومن ضبارة . وفي المنعة ، امنع من ام قرفة . وفي ارتفاع قيمة الفداء ، أغلى فداء (وقيل اوفر فداء) من حاجب بن زرارة ، ومن بسطام بن قيس ، ومن الاشعث بن قيس الكندي . وفي الشؤم ، اشأم من البسوس ، ومن احمر عاد (عاقر الناقة)، ومن طويس . وفي الطمع ، اطمع من اشعب ، ومن طفيل . وفي العي ، اعيا من باقل . وفي الفروسية ، افرس من عامر، ومن بسطام . وفي اقامة الولائم ، اولم من الأشعث (بن قيس ابن معد يكرب الكندي) . وضربت العرب مثلا بأبي لهب ايضاً ، فقالت : اتب من أبي لهب . وكان المرقش الأصغر متيماً بفاطمة بنت الملك المنذر ، وبلغ من تعلقه بها ان قطع إبهامه بأسنانه وجداً عليها ، فضرب به المثل ، وقيل : اتيم من المرقش .

٥/٨/٤ — هذا غيض من فيض ، فغير هذا كثير . وغني عن القول إن كل علم من هؤلاء الاعلام كانت له قصة ، او اكثر من قصة ، حتى صار مثلا في ميدانه . وإذا كان عدد كبير من هؤلاء الاعلام قد طواهم النسيان ، بدرجات متفاوتة ، بمرور الزمن ، فإن عدداً منهم ــ بالمقابل ــ مايزال معروفاً ، ولاتزال الذاكرة تحتفظ بقصصهم ، ولايزال المعاصرون يتداولون الامثال التي خلدتهم ، وإن نسوا قصص هذه الأمثال ، والاشخاص الذين صنعوا هذه القصص . وليس في نيتنا أن نروي قصة كل مثل من هذه الأمثال ، وأن نعرف بكل علم من هؤلاء الاعلام ، فهذا

امر يطول كثيرا ، ويفوق الطاقة ، ويخرج بنا عن الهدف المرسوم .

٥/٨/٥ — على ان العرب كانت ، في بعض الاحوال ، ترسل المثل مرتين، أو على نحو مضاعف إذا صح التعبير . ففي مرحلة اولى تضرب بالشخص ، او الاشخاص ، المثل بأن تطلق عليه ، او عليهم ، لقباً يغلب على الاسم الاصلي ، ويصبح بمثابة علم من الاعلام ، وفي مرحلة ثانية ترسل اللقب مثلا سائرا ، وبصيغة « أفعل التفضيل » ايضاً . وفي هذه الاحوال لابد لنا من شروح مقتضبة . من هذا القبيل هذه الامثال :

— اقرى من زاد الركب، ومن حاسي الذهب، ومن غيث الضريك، ومن مطاعيم الريح ، ومن آكل الخبز ، ومن ارماق المقوين . فزاد الركب بمثابة اسم من اسماء العلم ، لانه لقب اطلق في قريش على ثلاثة من اجوادهم ، هم مسافر بن ابي عمرو، وابو امية بن المغيرة ، والاسود ابن المطلب ، وقد سموا زاد الركب لان المسافرين معهم كانوا لا يتزودون للطريق . وكذلك (حاسي الذهب) لقب لعبد الله بن جدعان التيمي ، سمي « حاسي الذهب » لانه كان يشرب في إناء من الذهب . وكذلك « غيث الضريك » (اي غيث الفقير) ، لقب اطلق على قتادة بن مسلمة الحنفي . و « مطاعيم الريح » هم كنانة ابن عبد ياليل الثقفي ، ولبيد بن ربيعة ، وابيه . وقد سموا كذلك لانهم كانوا ، إذا هبت ريح الصبا ، اطعموا الناس . و « آكل الخبز » لقب لعبد الله بن حبيب العنبري . اما « ارماق المقوين » — اي من يسدون رمق الجائع — فهم كعب وحاتم وهرم .

— اتيه من احمق ثقيف (اي اصلف) . واحمق ثقيف لقب ليوسف بن عمر امير العراقين من قبل هشام بن عبد الملك .

— اجبر من قاتل عقبة . هو عقبة بن سلم ، كان الخليفة ابو

جعفر وجّهه الى البحرين ، فقتل اهلها قتلاً فاحشاً . اما قاتله فرجل منهم انضم الى عقبة بقصد الانتقام ، ولم يزل معه سنين ، حتى عزل عقبة ورحل الى بغداد ، فرحل معه ، ثم قتله على باب الخليفة المهدي بعد موت ابي جعفر ، وقال مفسراً فعلته : « ... ظفرت به غير مرة ، إلا انني احببت ان يكون امره ظاهراً ، حتى يعلم الناس انني ادركت ثاري منه ».

— أفرس من سمّ الفرسان ، ومن ملاعب الأسنة . « سمّ الفرسان » لقب لعتيبة بن الحارث فارس تميم ، وكان يسمى « صياد الفوارس » ايضاً . اما « ملاعب الأسنة » فلقب لفارس قيس عامر بن مالك .

— احمى من مجير الظعن . هو ربيعة بن مكدّم الكناني صاحب القصة المعروفة ، الذي حمى الظعائن ميتاً كما حماهن حياً ، بأن وقف بفرسه ، بعد إصابته بجرح قاتل ، واتكأ على رمحه ، وظل على هذا الوضع بعد لفظ الروح ، واعداؤه بإزائه يحجمون عن الإقدام عليه . وهو الذي قيل فيه : ما نعلم قتيلاً حمى ظعائن غير ربيعة بن مكدّم .

— اطمع من قالب الصخرة . قالب الصخرة هو رجل من معدّ ، رأى حجراً كبيراً مكتوباً عليه : « اقلبني انفعك » ، فاحتال في قلبه ، فوجد على جانبه الآخر : « رب طمع يهدي الى طبع » ، فما زال يضرب بهامته الصخرة تلهفاً حتى مات . ويروى هذا المثل ايضاً : « الهف من قالب الصخرة » ، كما يروى : « احمق من ناطح الصخر » .

— الهف من مفرق الدرّ . وهو رجل من تميم رأى في النوم انه ظفر من البحر بعدل من الدر ، لكنه اغرقه . فلما استيقظ من نومه ، مات تلهفاً عليه .

– الأم من راضع اللبن (ويروى الأم من راضع) . هو رجل من العرب كان يرضع اللبن من حلمة شاته ، ولا يحلبها ، مخافة ان يسمع وقع الحليب في الإناء ، فيطلب منه .

– اقرش من المجبرين (اي اتجر) . المجبرون لقب لأربعة من قريش ، هم أولاد عبد مناف بن قصي : هاشم وعبد شمس ونوفل والمطلب . لقبوا بالمجبرين لان قريشاً جبرت بهم . ويقال أيضاً : « اوفد من المجبرين » ، لأنهم كانوا اكثر العرب وفادة على الملوك .

– اخسر من حمالة الحطب . هي أم جميل اخت ابي سفيان ابن حرب ، وامراة ابي لهب المذكورة في القرآن الكريم .

– ولعل من هذا القبيل ايضاً هذه الأمثال : اتيه من فقيد ثقيف – احمق من لاعق الماء – اعجز ممن قتل الدخان – اذل ممن بالت عليه الثعالب – اشهر ممن قاد الجمل – احمق من الممهورة من مال ابيها – اجرأ من خاصي الأسد – اخرق من ناكثة غزلها – اخيب من القابض على الماء – ابخل من الضنين بنائل غيره .

٥/٨/٦ – وتجري مجرى الأمثال ذوات اسماء العلم امثال اخرى ليس فيها اسماء اعلام بالمعنى الدقيق للكلمة ، ولكن فيها ماهو بمثابة ذلك من حيث الجوهر . ومنها : اتيه من قوم موسى ، اشأم من داحس (الفرس المعروفة) ، اثقل من احد (الجبل) ، ابطأ من غراب نوح ، ابطأ من مهديّ الشيعة ، آمن من حمام مكة ، آلف من حمام مكة ، آمن من ظبي الحرم ، آمن من الظبي بالحرم ، اتلى من الشعرى ، اثقل من حمل الدُّهيم ، اشأم من سراب (اسم ناقة البسوس) .

٥/٨/٧ – ولقد رأى العرب في الحيوان منبعاً غزيراً استقوا منه امثلة نموذجية ، تنتظر من يبلغها أو يبذّها ، فجاءت بصيغة « أفعل التفضيل » ايضاً . ويندر ان يكون هناك حيوان في بيئة العرب

لم يتخذ مثالاً في جانب من الجوانب ، كما يندر أن يكون هناك مجال لضرب الامثلة لم يستعن العرب فيه بالحيوان بوجه من الوجوه .

ففي مجال الجراة قيل : اجرا من قسورة ، وذي لبد ، واسامة ، وليث بخفان . وقيل : اجرا من ذباب . وفي مجال الخفة قيل : اخف من فراشة ، ومن يراعة . وفي الذل قيل اذل من حمار مقيد . وفي الزهو قيل : ازهى من طاووس ، ومن ديك ، ومن غراب ، ومن وعل . وفي الشؤم ، اشأم من غراب البين ، ومن طير العراقيب . وفي الضلال ، اضل من ضب ، ومن ولد اليربوع . وفي الظلم ، اظلم من حية ، ومن افعى ، ومن ذئب ، ومن التمساح . وفي الغزل ، اغزل من عنكبوت . وفي القبح ، اقبح من خنزير ، ومن قرد ، ومن الغول . وفي الإلحاح ، الح من الذباب ، ومن كلب . وفي النتن ، انتن من مرقات (صوف) الغنم . وفي الوقاحة ، اوقح من ذئب . وفي الاكل ، آكل من حوت ، ومن السوس ، ومن الفيل . وفي الثبات ، اثبت من قراد . وفي الحذر ، احذر من غراب ، ومن ذئب ، ومن ظليم . وفي الروغان ، اروغ من ثعالة ، ومن ثعلب . وفي السرعة ، اسرع من كلب الى ولوغه ، ومن فريق الخيل (اي متفارق) ، ولحسة الكلب انفه . وفي الصناعة ، اصنع من نحل ، ومن النحل ، ومن دود القز . وفي الطيش ، اطيش من فراشة ، ومن ذباب . وفي العقم ، أعقم من بغلة . وفي الفساد ، افسد من الجراد ، ومن الضبع ، ومن الارضة . وفي الكسب ، اكسب من نملة ، ومن فهد . وفي المنعة ، امنع من عقاب الجو ، ومن عقاب ، ومن لهاة الليث ، ومن انف الاسد . وفي الاهتداء ، اهدى من حمامة ، ومن جمل . وفي اليقظة ، ايقظ من ذئب . وفي البخل ، ابخل من كلب . وفي الجبن ، اجبن من صافر ، ومن نعامة . وفي الخرق ، اخرق من حمامة . وفي السرى ، اسرى

من جراد . وفي الصبر ، أصبر من حمار ، ومن ضب . وفي الطيران ، أطير من عقاب ، ومن حبارى ، ومن جرادة . وفي العدو ، أعدى من الظليم ، ومن الذئب . وفي الكثرة ، أكثر من النمل . وفي المهانة ، أمهن من ذباب . وفي الألفة ، آلف من كلب . وفي البلادة ، أبلد من ثور ، ومن سلحفاة . وفي الجهل ، اجهل من فراشة ، ومن حمار ، ومن عقرب . وفي المحاكاة ، احكى من قرد . وفي الخيانة ، اخون من ذئب . وفي الشجاعة ، اشجع من أسامة ، ومن ليث عرّيسة ، ومن ديك . وفي الضعف ، اضعف من بقّة ، ومن بعوضة ، ومن فراشة . وفي الظمأ ، اظمأ من حوت . وفي الغيرة ، اغير من الفحل ، ومن جمل ، ومن ديك . وفي القصر ، اقصر من فتر الضب ، ومن إبهام الضب ، وإبهام الحبارى ، وإبهام القطاة . وفي اللصوصية الص من فارة . و في النوم ، انوم من كلب ، ومن الفهد ، ومن غزال . وفي الهوان ، أهون من ذباب . وفي حدة البصر ، ابصر من فرس بهماء في غلس ، ومن عقاب الصحراء ، ومن غراب ، ومن الوطواط بالليل ، وابصر ليلا من الوطواط ، ومن كلب . وفي الجوع ، أجوع من ذئب . وفي الحراسة ، احرس من كلب . وفي الشراهة ، اشره من الأسد . وفي التطفل ، اطفل من ذباب . وفي الكرامة ، اكرم من الأسد . وفي النهم ، انهم من كلب . وفي النشاط ، انشط من ذئب . وفي الوهن ، أوهن من بيت العنكبوت ، ويقال اوهى من خيوط العنكبوت . وفي ما هو بغيض ، ابغض من الطلياء (الناقة الجرباء المطلية) . وفي الجمع ، اجمع من نملة . وفي الحرص ، احرص من كلب على جيفة ، ومن كلب على عرّق ، ومن نملة . وفي الحيلة ، احول من ذئب . وفي الخيلاء ، اخيل من غراب . وفي الشجو ، اشجى من حمامة . وفي العداء والعداوة ، اعدى من الحية ، ومن الذئب ، ومن العقرب . وفي العقوق ، اعق من هرة ، ومن ضب ، ومن ذئبة . وفي الوثوب ، اوثب من فهد . وفي العطش ، اعطش من النمل . وفي طول العمر ، اعمر من ضب ،

ومن نسر . وفي الجرد ، أجرد من جراد . وفي الحسن ، احسن من الطاووس ، ومن الديك . وفي ثقل الرأس ، اثقل رأساً من الفهد. وفي خفة الراس ، اخف رأساً من الذئب، ومن الطائر . وفي الري ، أروى من نعامة ، ومن ضب ، ومن حية ، ومن النمل . وفي الشهرة ، اشهر من الفرس الأبلق . وفي المطاوعة ، اطوع من فرس ، ومن كلب . وفي العجلة ، اعجل من نعجة الى حوض، ومن كلب الى ولوغه. وفي الغدر، اغدر من ذئب . وفي البعد ، ابعد من بيض الأنوق (اسم للرخمة ، طير بعيد الوكر) . وفي طول البقاء ،ابقى من النسرين (أي النسر الطائر ، والنسر الواقع) . وفي الحماقة، احمق من الضبع ، ومن نعجة على حوض ، ومن نعامة . وفي الحماية ، احمى من انف الأسد . وفي الخطا ، اخطا من ذباب ، ومن فراشة . وفي السلح ، اسلح من دجاجة . وفي الشدّ (اي العدو) ، اشد من فرس . وفي طول الذماء (الذماء : ما بين القتل الى خروج النفس) ، أطول ذماء من الضب ، ومن الحية ، ومن الأفعى ، ومن الخنفساء . وفي ما يعز وجوده ، اعزّ من بيض الانوق ، ومن الغراب الأعصم (الذي تكون له رجل بيضاء) ، ومن مخ البعوض . وفي العزّ والمنعة ، اعزّ من انف الاسد ، ومن عقاب الجو . و في التعقيد، اعقد من ذنب الضب . وفي العري ،اعرى من حية . وفي الولوغ اولغ من كلب . وفي سرعة الغدر ، أسرع غدرة من الذئب .

٨/٨/٥ — غير ان اجمل الأمثال العربية ، التي جاءت بصيغة « افعل التفضيل » ، هي الأمثال التي استمدها الذهن العربي من الطبيعة ومن الحياة ، فصنع صوراً تعبيرية رائعة اساسها في ارض الواقع وفروعها في سماء الخيال المبدع . من هذه الأمثال : آكل من ضرس ، ومن النار ، ومن الرحى . اثقل من الرصاص ، ومن الحمّى ، ومن المنتظَر ، والنضار ، ومن طود . أحرّ من الجمر . أدق

من الطحين . اذلّ من النعـل ، والحـذاء ، والشّسـع ، والرداء ، والبساط . اسهر مـن النجم . اصفى من جنى النحل ، ولعاب الجراد ، ومـاء المفاصـل (الوديـان) ، والدمعة ، والماء ، وعين الغراب ، وعين الديك ، ولعـاب الجندب . اطول من ظل الرمح ، ويوم الفراق ، وشهر الصوم، والسنة الجدبة ، والدهر . اعزّ من الكبريت الأحمر (الذهب)، والترياق . اقرب من حبل الوريد ، وعصا الاعرج . الزق من ريشٍ على غراء ، ومن قار ، ودبق ، وحمّى الربع . انقى من الدمعة ، والراحة ، وطست العروس . اوثق من الأرض، واوطأ من الارض . ايبس من صخـر . ابعد من النجم ، ومناط العيّوق ، ومن الكواكب . اثبت من الوشم ، واثبت في الدار من الجدار . اجرد من صخرة ، ومن صلعة . اخفى مما يخفي الليل . ارسى من رصاص . اشهى من الخمر . اضيع من قمر الشتاء ، ومن غمدٍ بغير نصل ، ومن لحمٍ على وضم ، ومن بيضة البلد ، وترابٍ في مهب ريح ، ومن وصيّة . اظلم من الشيب . اغرّ من السراب ، ومن الاماني . اكتم من الارض . امضى من الريح ، والسيف ،والسهم ، والنصل ، والسنان ، والشفرة ، والسيل تحت الليل ، والقدر المتاح ، والأجل ، والدرهم . اهون من النباح على السحاب . آمن من الأرض . اثبت راساً من اصمّ (اي جبل). احفظ من الأرض . ازكى من الورد ، والمسك الاصهب ، والعنبر الأشهب . اسعى من رجل . اصلب من الجندل ، والحجر ، والنضار ، والحديد . اطيب نشراً من الروضة . اعذب من ماء البارق ، وماء السحاب ، وماء الغادية ، وماء المفاصل (الوديان) . اقذر من مَعبأة (خرقة الحائض) . الزم للمرء من ظله ، ومن اليمين للشمال ، وللمرء من إحدى طبائعه . أنتن من ريح الجورب . اوفى من كيل الزيت . آلف من الحمّى ، وآنس من الحمّى ، وآنس من الطيف . اجرى من السيل تحت الليل . ارق من رقراق السراب ،

ومن النسيم ، والهواء ، ودمع الغمام ، ودمع المستهام ، ودمعة شيعية تبكي عليا ، وارق من سحا البيض . اشهر من فلق الصبح ، ومن فرق الصبح ، ومن الشمس ، والقمر ، والبدر ، والصبح ، والعلم ، وقوس قزح . اضيق من ظل الرمح ، وسم الخياط ، وخرت الإبرة . اظلم من ليل ، ومن الليل . اغشم من السيل . اكثر من الرمل . امر من العلقم ، والحنظل ، والدفلى ، والصبر . اهدى من اليد الى الفم ، ومن النجم . ابقى من الدهر ، ومن وحي في حجر ، ومن العصرين . اجدى من الغيث في اوانه . ارفع من السماء . اشرب من رمل ، ومن الرمل ، ومن قمع . اضعف من قارورة . اظل من حجر . اقبح من قول بلا فعل ، ومن من على نيل ، ومن تيه بلا فضل ، ومن زوال النعمة ، ومن السحر . الح من الحمى . انور من صبح ، ومن وضح النهار . اوجد من الماء ، ومن التراب . ابهى من القمرين ، ومن قرطين بينهما وجه حسن . اجفى من الدهر . ارخص من الزبل ، والتراب ، ومن التمر بالبصرة . اسرع من ذي عطس ، ومن رجيع العطاس ، ومن اليد الى الفم ، ومن عدوى الثؤباء ، والريح ، والبرق ، والإشارة ، والجواب ، والبين ، واللمح ، والطرف ، ولمح البصر ، وطرف العين ، ورجع الصدى ، وحلب شاة ، ومضغ تمرة ، ومن الماء الى قراره ، والسيل الى الحدور ، ولفت رداء المرتدي ، ومن النار إلى يبيس العرفج ، ومن شرارة في قصباء ، ومن النار تدنى من الحلفاء . اطيب من الحياة ، ومن الماء على الظما . اعمق من البحر . اقتل من السم . الين من الزبد . امرق من السهم . اهول من السيل ، ومن الحريق . ابغض من الشيب إلى الغواني ، ومن سجادة الزانية ، ومن وجوه التجار يوم الكساد . احمل من الأرض ذات الطول والعرض . اذل من قيسي بحمص (سكانها

يمنية)، ومن أموي بالكوفة يوم عاشوراء . اسرى من الخيال. اصعب من وقوف على وتد ، ومن ردّ الجموح ، ومن نقل صخر . اطفل من ليل على نهار ، ومن شيب على شباب . اعدى (من العدوى) من الجرب ، ومن الثؤباء . اقصر من حبة ، ومن انملة ، ومن اليد إلى الفم . الذّ من الغنيمة الباردة ، ومن المنى ، ومن إغفاءة الفجر ، وشفاء غليل الصدر. انمّ من الصبح ، ومن زجاجة على مافيها ، ومن التراب ،ومن ذكاء (الشمس) ، ومن جوز في جوالق ، ومن جلجل ، ومن جرس . اوضح من مرآة الغريبة . اياس من غريق . ابخل من ذي معذرة . أثقل من رقيب بين محبين . احسن من سوق العروس ، ومن زمن البرامكة ، ومن الدنيا المقبلة ، ومن الشمس والقمر ، ومن الدرّ . ارسب من حجارة . اشبه به من التمرة بالتمرة ، ومن الماء بالماء . أضوأ من الصبح ، ومن نهار ، ومن ابن ذكاء . اظمأ من الرمل . اغنى عن الشيء من الاقرع عن المشط . اكلب من صبي . انقى من ليلة القدر، ومن مرآة الغريبة . اوهى من الاعرج . ابشع من مثل غير سائر . اتعبه من رائض مهر ، ومن راكب فصيل . احمق من راعي ضأن . أسير من شعر . اصبر من الاثافي على النار ، ومن الارض ، ومن حجر . اعز من ابن الخصيّ . اكثر من الغوغاء . اهون من تبنة على لبنة ، ومن الشعر الساقط ؛ ومن معباة (خرقة الحائض) . اجهل من راعي ضأن . اخسر من مغبون . اشد من ناب جائع . اعطش من قمع . اكره من العلقم . ابرد من مارد لايشتهى ، ومن مستعمل النحو في الحساب ، ومن برد الكوانين . اخبط من حاطب ليل ، ومن عشواء . اطول صحبة من الفرقدين . اقضى من الدرهم . انضر من روضة . احلى من حياة معادة ، ومن نيل المنى ؛ ومن الولد ، ومن العسل . اطغى من السيل ، ومن الليل . اقذّ من شفرة . اندى من البحر ، والقطر ، والليلة الماطرة. احرس من الأجل . اعجز عن الشيء من الثعلب عن العنقود،

ومن مستطعم العنب من الدفلى ، ومن جاني العنب من الشوك . امنع (من المنع) من صبي . ابين من فلق الصبح . اسبق من الاجل ، ومن الافكار . اقل من واحد ، ومن أوحد، ومن تبنة في لبنة ، ومن لاشيء في العدد ، وفي اللفظ من لا . اناى من الكوكب . ابكى من يتيم . احنّ من المريض الى الطبيب . اسرّ من غنى بعد عدم ، وبرء بعد سقم . اعرى من إصبع ، ومن مغزل ، ومن الأيم ، ومن الراحة . اقسى من صخرة ، ومن الحجر . انفذ من سنان ، وخارق ، وخياط ، وإبرة ، ومن الدرهم . احدّ من موسى . اعدل من الميزان . اقطع من البين . احلّ من ماء الفرات ، ومن لبن الأم . اعلم من دعيّ . احقر من التراب ، واحقر من التراب . احمض من صفع الذل في بلد الغربة . احقّ الخيل بالركض المعار .

هذه الامثال غنية عن التعليق ، فهي تتحدث عن نفسها ، وهي لا تحتاج الى شهود يؤيدون مقربتها الفذة في التصوير والتعبير ، فهي تشهد لنفسها شهادة حاسمة . غير اني ، بمناسبة هذه الامثال ، لا استطيع إلا ان اعبر عن الأسى لتلاشي استخدامها في لغة المعاصرين ، رغم أنها ـ هي التي يرجع معظمها الى ايام الجاهلية ـ تفوق جلّ ما نقراه من الشعر العربي الحديث شاعرية وطلاوة وجزالة وجرساً وسلاسة .

الحصري يناقش ستالين ولينين

انطون المقدسي

يعرض الحصري اهم النظريات المعروفة في ايامه عن الامة على محك تعريفه (راجع العدد ـ ٤ . ٢ ـ من هذه المجلة حيث تجد هذا التعريف في صياغته النهائية وايضا الاعداد ـ ١٩٥ ـ ١٩٨ ـ ١٩٩) ليختبر صحتها وفي طليعتها النظرية الماركسية كما فهمها ستالين ولينين ، ثم يردها كلها باستثناء نظرية الرومنتيكيين الالمان لانها تتوافق مع تعريفه (الامة لغة وتاريخ) . واذا كنت سأفصل في هذه الدراسة مناقشاته الطويلة نسبيا بما امكن من الدقة فلسببين : الاول انها تلقي ضوءاً ساطعا على مفهوم الامة الذي مايزال معتمدا حتى الآن ، على ما أعلم ، عند جل مفكرينا القوميين وعلى الخصوص في كتبنا المدرسية ، روحا ان لم يكن نصاً . فالمناقشة تشكل بالتالي دليلا من جملة ادلة اخرى على مرحلة تاريخية انتهت في اعتقادي حوالي الخمسينات . الثاني هو ان وضع نظرية الحصري ومناقشاته ضمن حدودها التاريخية تمهد السبيل الى مفهوم آخر للامة يتكون اليوم على ارض الواقع ليكمل الاول ويحل محله. وهذا هو جوهر الحوار مع أسلافنا وأساتذتنا .

ان النظريات التي توضع وتستمر هي في الحقيقة خلاصة تاريخ علينا ان نعرفه ؛ كما علينا ان نتعرف الى التاريخ الذي يكوننا ونكونه ، وهو واقعنا .

والواقع هو العصي على الفكر .

طريق الحصري ومسلماته

أن من حق العالم ـ على الخصوص اذا كان قد اعتمد الطريقة التحليلية ـ ان يعزل ظاهرة ويدرسها بذاتها في الفترة الزمنية التي يرى انها تتجلى فيها بكامل قوتها اكثر من غيرها . وهذا مافعله الحصري عندما عكف على تحديد مفهوم الامة . ولقد اصاب حقا المرمى عندما اختار القرن التاسع عشر ومابعده اذ في هذه المرحلة قفزت المسألة القومية لتحتل الطليعة بين القوى الموجهة للسياسة والاقتصاد .

وفي المقابل فان من حقنا ـ ومن واجبنا ايضا ـ نحن الذين تعلمنا منه واخذنا عنه ان نتناول الظاهرة ذاتها في المرحلة الزمنية ذاتها ولكن انطلاقا من وضعنا الراهن ، لنحاوره بشأنها وتناقشه عسانا ندخل بعضا من حياة على مفهوم تكاد تفارقه الحياة وعلى قضية ـ قضية الوحدة التي ناضل في سبيلها نضال المستميت ـ وقد اصبحت اليوم ذريعة للاتهامات المتبادلة بيننا نحن العرب .

ولما كانت الطريق الى المفهوم هي الكاشف عنه ، فساعود اليها مرة اخرى بسرعة .

اذا كان الارسوزي قد اعطانا خلاصة كثيفة تكاد تكون وافية عن طريقته، فان الحصري انساق عفويا مع كلاسيكية القرن التاسع عشر وطرقها في البحث التي كانت لاتزال معتمدة حتى ايامه والتي تعلم وعلم ضمن اطارها . وهو يسهب في وجهها السلبي (ليست الامة كذا وكذا) مما دفعني الى القول بانه اخذ لحد كبير بالبند الرابع من طريقة ستوارت ميل (البواقي) ويبدو لي انه كان يرمي من وراء ذلك ـ عفويا ايضا ـ الى تحقيق هدفين: من جهة اخراج خصوم العروبة من ساح المعركة ومن جهة اخرى الوصول

الى حقائق يعتقدها اكيدة او مايسميه « النتائج الواقعية » و « البرهان العقلي » (١) .

وأولا ليست الامة مصالحها الاقتصادية او في مناقشة الخط الماركسي »(٢) وهاك خلاصة عن برهنة الحصري وهي الكاشف الادق عن فكره القومي، أوردها جهد المستطاع بمفرداته ولو ادى ذلك الى بعض الركاكة في الاسلوب وهي مرتبة من الاضعف الى الاقوى فالى نقطة ارتكازها الضمنية :

« ليست المنفعة والمادة والاقتصاد » كل شيء في حياة الانسان بل هناك ايضا « النوازع والعوامل العاطفية والفكرية » التي تسمو على الحسابات النفعية اذ تدفع الانسان الى التضحية بالنفس وتؤثر على الحياة الاقتصادية ذاتها ؛ هذا من وجه ومن وجه آخر فان المصلحة الاقتصادية ليست من الامور الثابتة بحيث تتراءى لجميع البشر على شكل واحد تؤثر فيهم على وتيرة واحدة اذ ان بعضهم يفكر بمصالحه العاجلة والبعض الآخر ابعد مرمى ، وقد تختلف المصالح في البلد الواحد ، من منطقة الى اخرى ، فلا يمكننا بالنتيجة ان نعتمد عليها لاقامة او لتسويغ بناء مستمر . وثالثا فان الاقتصاد مرتبط بالدولة وسياستها اكثر من ارتباطه بالامة ، والسياسة متبدلة في حين أن الامة كيان ثابت ، ومن مهام الدولة التوفيق في سياستها بين المصالح المتعارضة ، اما الامة فهي حيث يأتلف البشر بعضهم مع بعض طبيعيا وكأنهم يشتركون في جوهر واحد . وفي رأيي ان المبدأ المضمر الذي يقوم عليه فكر الحصري القومي برمته وارد في عبارة يذكرها عرضا اذ يقول بان الوحدة الاقتصادية « لاتخلق الامة » بل تقويها فيما اذا تحققت ، كدولة الوحدة ، تزيد الوجود القومي منعة على منعة(٣). فالامة امر والاقتصاد امر آخر ، تلك مطلقة وهذا نسبي او يكاد .

(١) ماهي القومية ؟ ــ الطبعة المذكورة ــ صفحة ٣٤ .
(٢) المرجع السابق ذاته ــ الصفحات ١٥١ ــ ١٨٥ .
(٣) المرجع السابق ١٧٣ ــ ١٧٤ .

او ان الامة موجودة مبدئيا (عقليا او منطقيا) كالموجــود الارسططالــي (الجوهر ، كما ترجم العرب) سابق مبدئيا على مايطرأ عليه من تبدلات او اعراض .

ومسلمة الحصري هي مسلمة (او مصادرة) الفكر العربي اللغوي برمته ، اذ وحدنا بين الامة واللغة (والتاريخ من حيث هو تراث لسان الماضي يتحدث الينا) وجعلنا من المكونات الاخرى (وهي في الواقع قوى كما سنرى) اعراضا متبدلة بحيث حصلنا على « جوهر » لا مشروط . هذه المسلمة آن لنا ان نستوضحها اذ نعيد « الموجود » القومي وغير القومي الى شروط حدوثه وزواله . بهذا يمكن ان يتكون لدينا فكر قومي آخر يكمل السـابق وفي الوقت ذاته يربطنا بالواقـع المعـاش المتبـدل . اذ الجماعات ليسـت جواهر ثابتة والقوى المحركة لها او للتاريخ متحولات، وعلى المفاهيم التي تقولها ان تساير حركتهـا . فالايديولوجيات نسبية .

الحصري : « ليست المصلحة كل شيء »

وينتقل الحصري بعد هذا العرض للمبادىء العامة الى تفنيد آراء ستالين ولينين في القومية ، فيتهم الاول بالتناقض الصريح واللا منطق ــ وايضا بالسخف ــ لانه اعتبر الحياة الاقتصادية (الى جانب اللغة والارض ووحدة التكوين النفسي او الثقافة) من مقومات او مكونات الامة في حين انه كان قد انحى باللائمة على قول القائلين ان الدولة من هذه المقومات ، والاقتصاد من شأن الدولة وحدها كما رأينا اذ ان الدولة هي التي تقيم الحواجـز الجمركية على الحدود (حدودها لاحدود الامة) لتحمي اقتصادياتهـا وتنشىء الموانىء والطرقات وتصك النقد وتعقد المعاهدات التجارية وتقرر الضرائب وتحددها .. الخ ، فتجعل هذا الاقتصاد مزدهرا . وكما ان ستالين يعدد الشواهد التاريخية ليدعم رايه ، فالحصري يعارضـه بشواهد اخرى ، مثلا ايطاليا ، فقد كانت امة قبل ان تتوحد سياسيا وبالتالي اقتصاديا ، وكذلك بولونيا فهي مابرحت امة واحدة بعد ان تقاسمتهـا

فيما بينها الدول الثلاث المجاورة لها ، وهكذا ... او يعزو خطل ستالين الى « المغالاة في تأثير العامل الاقتصادي » . وايضا الى انه لم ينتبه الا الى وضع روسيا بحيث جاءت نظريته خاصة لاتحقق اية نتيجة علمية او يقينية .

ويرتكب لينين الخطيئة ذاتها عندما يقرر ان الدولة القومية نشأت مع البورجوازية التجارية التي تكونت اثناء النهضة الغربية اذ في هذه الفترة من التاريخ انتقل الاقتصاد من شكله الزراعي والاقطاعي الى الشكل الراسمالي ـ التجاري (وبالتالي من الريف الى المدينة) ، ولما كان الشكل الثاني بحاجة الى سوق داخلية تجارية موحدة ونسبيا واسعة وهذه بدورها الى تواصل لا تضمنه الا اللغة القومية كان لزاما ان يتوحد الذين يتكلمون اللغة ذاتها في دولة .

فاس الاسس لدى لينين ، كما يفهمه الحصري ، في قول لينين نفسه : « ان توحيد البلاد التي يتكلم اهاليها لغة واحدة ، يؤدي الى توسيع السوق التجارية وتوحيده وفق ماتتطلبه حاجات الراسمالية مما يرد مقومات او مكونات الامة عند ستالين الى واحد منها هو العامل الاقتصادي . وهذا خطأ اذ ان ماحصل فعلا بالشواهد التاريخية التي يطيب للحصري ان يسهب فيها هو العكس ؛ فقد قامت الحركات القومية في معظم الحالات على اساس انفصال البلاد التي يتكلم اهاليها لغة تختلف عن لغة الدولة التي تحكمها » . ويدلل على ذلك بالوحدة الايطالية والوحدة الالمانية ، ومن ثم فان الحركات القومية اقدم تاريخيا من الاقتصاد الراسمالي . « واذا كانت كلمة المؤرخين قد اتفقت على تسمية القرن التاسع عشر في اووربا بـ « عصر القوميات » ... فلان النزعات القومية اشتدت خلال ذلك العصر ، واخذت تتغلب على سائر العوامل في أمر تكوين الدول وتحديد حدودها » (٤) .

---

(٤) المرجع السابق ذاته الصفحات ١٧٨ ـ ١٨٥ .

من الخط التحليلي الى الخط الديالكتيكي :

من حق المفكر – ومن واجبه – أن يعرض النظريات التي تعالج موضوعه ليقبل منها ما يقبل كليا او جزئيا ويرد ما يرد ، ايضا كليا أو جزئيا ، ولكن ضمن حدود شرطين : الاول أن يكون عرضه متوافقا مع الاصل او مقاربا له لابعد حد ممكن ، والثاني أن يربط كل نظرية بمجمل الظرف التاريخي الذي وضعت فيه ، وعلى الاصح بالمشاكل التي وضعت النظرية لشرحها وحلها اذ لا يوجد ، كما قلت ، علم في المطلق فالموضوعية الكاملة حد يسعى اليه العقل العلمي ، وهو أبدا يتباعد ، حتى في العلوم المدعوة دقيقة كالفيزياء الرياضية وما انشىء من علوم على غرارها . فهل تقيد الحصري بهذين الشرطين عند دراسته لنظرية الماركسيين في الامة ؟ اقول بشكل آخر إن الباحث يبحث من موقعه الفكري والاجتماعي – التاريخي ولكن عليه أن يكون لذاته ولقرائه صورة واضحة جهد المستطاع عن المواقع الاخرى التي يناقش . فهل وفر لنا الحصري شيئا من ذلك قبل او اثناء رفضه القاطع لنظرية لينين وستالين في الامة ؟

بمعنى ما : نعم .

بمعنى آخر : كلا .

اقول نعم لانه ، اذ اخذ بالمقولية التحليلية الكلاسيكية كما صاغها ديفيد هيوم وقد اشرت اليها (الامة هي كذا ... الامة ليست كذا ...) او بصورة اعم (س هي آ ب جـ .. وليست د هـ و) تساءل عن الخاصة الاكثر استمرارا في حياة الامم فوجد ان المصالح الاقتصادية متبدلة ومتضاربة عبر الزمان والمكان والجماعات والافراد في حين ان اللغة ثابتة والتاريخ موحد او في حين أن الثقافة ، كما تفهمها اليوم الانتربولوجيا الثقافية ، سيرورة مرتبط مستقبلها بماضيها عبر الحاضر رغم التطورات، بحيث تفصح عن حقيقة الجماعة اكثر بكثير من بقية الظواهر الاجتماعية أو بحيث تعطي للجماعة هوية موحدة ، نخلص الى النتيجة التي ذكرتها اكثر من مرة : الامة لغة وتاريخ .

ولكن الذي فات الحصري هو اولا المعقولية الديالكتيكية التي بدات مع افلاطون ثم استعيدت في العصور الحديثة مع هيجل وماركس ، كل من منطلقه ، وعلى أسس منها ما هو افلاطوني ، ومنها ما هو حقا جديد ، والتي يجب ان نفهم على ضوئها ، النظريات الماركسية في الامة ، او تطور مفهوم الامة في ممارسة الماركسيين وفكرهم ؛ ثانيا — وهذا مرتبط بذلك — النقد الذي يلزم من هذه المعقولية ، اذ علينا في مرحلة اولى الاخذ بالنقد الكانتي اي رسم حدود كل مفهوم من حين صلاحيته في اداء الواقع الذي عليه ان يؤديه . وفي مرحلة ثانية تخطي النقد الكانتي الى النقد الديالكتيكي حيث نربط كل مفهوم بالموقع الذي استدعاه وبالمشكلة التي استثارته بحيث تحاذي مفاهيمنا الواقع في حركيته .

اقول بشكل قد يكون ادق ان الباحث من موقعه الفكري والاجتماعي — التاريخي ويتعرف الى هذا الموقع ويعرف به بمقارنته مع المواقع الاخرى ، شريطة ان يكون لذاته ولقرائه صورة واضحة جهد المستطاع عن هذه المواقع كلها . فهل وفر لنا الحصري شيئا من ذلك عند رده للنظرية الماركسية ؟ لا اعتقد ، وان صح ذلك ففيمن حدود ضيقة لأنه اقتصر على معقولية كان الزمن قد تجاوزها عند وضع كتاب « ما هي القومية ؟ » فمفاهيم المصلحة والمنفعة والمادة والعامل الاقتصادي التي كثيرا ما ترد على لسانه وعلى لسان المفكرين العرب من الماركسيين وغير الماركسيين ، هذه المفاهيم غائمة ملتبسة عندما تستعمل باطلاق المعنى ، ولا يمكن ان تتضح وتتعين الا اذا ردت الى المفهوم المنبثقة منه وهو مفهوم القوى المنتجة من حيث ان هذه مجموعة علائق متبدلة ككل العلائق ، وتبدلاتها الكبرى تمفصل حركة التاريخ فتوفر لنا شرحا علميا له ، وذلك اذ تتوضع في نمط من انماط الانتاج كالانتاج الاقطاعي او البورجوازي او ما قبلهما وما بعدهما . وتلك هي المادية التاريخية التي اصبحت اليوم معروفة في خطوطها الكبرى لدى المفكرين العرب .

هذه الاسس او المفاهيم الاساسية هي التي تمكننا من ان نفهم ، اولا ، نظرية كل من لينين وستالين في الامة من حيث نشوؤها وطبيعتها ، فلا يكفي ان نقرا نصوص هذين المفكرين السياسيين الكبيرين عن الامة وكأنها

قائمة بذاتها كما فعل الحصري وبفعل جل المفكرين العرب الماركسيين وغير الماركسيين بل علينا ان نربطها بأسسها النظرية كما حددها مؤسسا الماركسية في كتابات اصبحت اليوم ـ جلها ان لم يكن كلها ـ مترجمة الى العربية ومنها بالدرجة الاولى « الايديولوجيا الالمانية » (ماركس ـ انجلز) و « الاسهام في نقد الاقتصاد السياسي » (ماركس) وعلى الخصوص مقدمة هذا الكتاب والجزء الاول من الكتاب الاول عن « راس المال » (ماركس) . ويبدو لي ان الحصري اغفل هذه الكتابات ، سواء قراها ام لم يقرا ، لانه اسقط ضمنا من الاصل الديالكتيك طريقة وفلسفة . وتمكننا من ان ندرك ثانيا نقطة الخلاف الاساسية بين الفكر القومي والفكر الماركسي . ففي حين ينطلق الاول من موقع الامة على انه مبدئيا لا يتجاوز ؛ ينطلق الثاني من موقع العمل المنتج الذي يشد العمال بعضهم الى بعض في العالم كله .. لهذا يعتبر التنظيم القومي للجماعات الانسانية بمثابة مرحلة من مراحل التطور سوف نتخطاها عندما ننتقل من نمط الانتاج الراسمالي الى نمط الانتاج الاشتراكي الذي سيجعل من البشرية ، عندما يتحقق المجتمع الشيوعي ، يصبح كل فرد عاملا منتجا ، جماعة واحدة متكاملة الاجزاء والقضايا . ونفهم اخيرا حقيقة تعريفه ستالين ودوره ، فقد وضع لايجاد مقاييس واضحة تمكن قادة الاتحاد السوفييتي (وهو على ما نعلم كلنا ، دولة تضم امما وشعوبا متعددة) ، من التمييز بين هذه الشعوب والامم وغيرها ، ايٌ منها يشكل امة يمكن ان تحول الى دولة وايٌ لا يشكل .

وهذا كله مما لا يمكن أن ينعت بالتناقض واللامعقول والسخف . الا ان الحصري ترك هذه الكلمات المجحفة تجري على قلمه من جهة لانه تحليلي ، والتحليل لا يقبل منذ واضعه ارسطو الديالكتيك الا جزئيا ، وهذا في احسن الحالات ، ومن جهة اخرى لانه كان ما يزال عام ١٩٥٩ (عندما وضع كتاب « ما هي القومية ») ما يزال تحت تأثير المناقشات بين الاحزاب التي سادت المشرق العربي منذ الاربعينات وحتى اواسط الخمسينات وما تزال بعض ذيوليا قائمة حتى الآن ، وهي مناقشات عقيمة نظريا ، جلها ان لم يكن كلها ؛ وفي الوقت ذاته عظيمة الاهمية من حيث ملابساتها ونتائجها السياسية .

الابداع والطغيان

د . خليل سمعان

آ ـ تعريف

اريد★ بالابداع الخلق الفني ، سماعاً كان او مشاهدة . والخلق غير العمل: العمل هدفه اشباع احتياج غرائزي او رغائبي . يجوع الانسان
العمل هدفه اشباع غرائزي احتياج او رغائبي . يجوع الانسان
ويعطش ويبرد فيعمل ليؤمن حاجته الى الطعام والشراب والمأوى . وتثور في جسده رغبات اخرى ، غرائزية او انانية او حتى فضولية ، فيعمل ايضاً على تأمينها لنفسه بالوسيلة الاسهل ، وعن الطريق الاقصر ، وذلك في سبيل الحصول على اكبر كمية من الاكتفاء واللذة وتجنب الالم .

★ ترجمة مختصرة لمحاضرة القاها الاستاذ في جامعة ولاية نيويورك الدكتور خليل ا . ح . سمعان (مساء الاثنين) في ٦ نوفمبر تشرين الثاني ١٩٧٨ (في قاعة الاجتماعات بمركز دراسات العصور الوسطى ومطلع عصر النهضة) في جامعة ولاية نيويورك في بنغمتن ، ن . ي . ١٣٩٠١ ، الولايات المتحدة الاميركية .

اما الخلق فهو ما تعدى ذلك : انه عمل هدفه لا اشباع غريزة او رغبة او تجنب الم فحسب ، بل ما وراء ذلك ، من ارضاء لذوق متطور مرهف ، ولدوافع حسية ـ عاطفية . انه عمل نشأ اول ما نشأ فكرة نمت ونضجت في عقل وضمير صاحبها ثم نفذت . ومعلوم ان التنفيذ عمل ، يدويا ـ ؟ ليّا كان كالموسيقى والرسم والنحت باليد او بمساعدة وعلى الآلة ، او نطقا كارتجال الشعر او النثر الفني ، او مشاهدة كالتمتع بالنظر الى راقص او راقصة ، الخ . وكي لا اغمط حق الفنان المجهول ، ذلك الانسان الذي عدّته الفكر واليد والتذوق والنار ، الطاهي في مطعم ممتاز او السيدة في مطبخها النظيف ، اقدم مثلا بسيطا وبديهيا يوضح نظريتي في العمل والابداع ، فأشير الى الانسان البدائي الذوق والفكر ، يجوع فيعمل على الحصول على قطعة من اللحم يشويها وياكلها سادآ بذلك رمقه ، واقول ان هذا عمل . واشير الى الطاهي او السيدة في مطبخ ولديها قطعة من اللحم تشبه تلك التي ذكرناها في يد الانسان البدائي ، تقطع اللحم وتتفنن في تجهيزه بالتوابل ، ثم تطبخه وتخرجه لحمة محمرة شهية ، فأقول هذا هو الابداع . وكذلك الكلمة نسمعها في حديث بين شخصين عاديين او اكثر فلا نلتفت اليها ولا نعيرها اهتماما . ونسمعها مرتلة مقفاة تروق نبرتها للاذن ويتلقف العقل افكارها وصورها فنتذوقها ونتغنى بها . الاول عمل والثاني ابداع .

وبديهي ان يكون هنالك طبقات في نوعية الابداع ، وذلك في جميع حقول النشاط الانساني مما ساذكر في مساق هذا الحديث ، ومما لن يتسع الوقت لي لذكره .

ب ـ الطغيان

اما الطغيان فهو تحكم الانسان باخيه الانسان فرديا كان ذلك التحكم ام جماعيا . وحيث يوجد الطغيان تختفي الحرية . واعني بالحرية تلك الارادة المميزة التي ترى وتتعرف وتميز وتتصرف بالحق والخير والجمال والحب . فانا لا اسمي حرية كل ما شاء المرء وبشاؤه قولا وعملا

وتحصيلا . هذا النوع من الحرية احرى بالتسمية « نهلستيه » او « عدمية » اذ ان مصدره وحدة حياتية تجهل ماهية الحياة البشرية ومعناها . فالحياة حتى في عرف الطبيعيين والدهريين والملحدين تتقيد بقوانين منظمة لا يمكن تجاهلها . صحيح أنها قوانين توفر الحياة للافضل وبذلك يمكن اعتبارها طغيانا بالنسبة للضعيف . وصحيح أن باستطاعة الفكر المادي باللجوء الى هذه القوانين ومضاعفتها والاستفادة منها .. باستطاعته تغييروجه المجتمع البشري تغييرا اساسيا ؛ ولكن هناك منذ الازل والى الابد ، الرادع الضميري المدعوم بتعاليم سماوية (الاسلام والمسيحية والموسوية) وفلسفية (كالهندوكية والبوذية) الذي يجعل ذلك مستحيلا أو شبه مستحيل (قرأتم في الصحف نبأ « انتاج » طفلة في انابيب احد المختبرات الانجليزية . هذا لايدحض ما قلته عن وجود ضمير مدعوم بروادع سماوية تقف حجر عثرة في سبيل طغيان المادية هذه ، وربما قرانا مستقبلا عن شجب مثل هذه الاختبارات ومنع القيام بها ...)

وعلى كل فالحرية التي اعالجها في حديثي هي الحرية العاقلة وليدة عصور من الانتاج الفكري المرشد بتعاليم اوصلها الى الانسان انبياء مرسلون ملهمون وحكماء مفكرون . هذه الحرية العاقلة تؤهلنا للتعرف الى الحق فنتبعه والباطل فنتركه ، الى الجمال فنتمتع به والقبح فنبتعد عنه ، الى الخير فنعمله والشر فنتجنبه ، والى الحب ننجذب اليه والبغضاء فلا نقترب منها .

وهنا قد يتساءل متسائل ممن يروق لهم الجدل الاكاديمي : « ولكن يا استاذ ، ما هو الحق وما هو الخير ، والجمال ، والحب ؟ » .

اجيب ، واجابتي هذه مقتبسة من اجابة للراهبة تريزا الاسبانية التي سئلت مرة : « ما هو الله ، واين هو ؟ » فكان جوابها صفعة على خد السائل الذي فوجىء فصرخ : « لماذا صفعتني هكذا ؟ » ، فأجابت تريزا : « ولكن لماذا تصرخ ؟ » ، فقال الرجل : « هو الالم الذي سببته لي صفعتك الخبيثة » . « الالم ؟ » ردت الراهبة ، « ما هو الالم ،

واين هو ؟ ارني اياه » رد الرجل المصفوع باشمئزاز : « الالم يا سيدتي لا يرى ، ولكن يشعر به المتألم » ، وضعت تريزا حدا للنقاش اذ قالت بلطف وعطف ظاهرين : « كذلك الله ، يا اخي . لا يرى ولكن يشعر به كل موجود . اذهب الى بيتك وعد الي عندما تحس بالله وتشعر بوجوده » .

واذا ، وباختصار ، الحق والخير والجمال والحب هو ما نعرف ونعلم بكل تأكيد بانه خير وحق وحب وجمال ، وان كانت معرفتنا هذه هي ، كما يقول علماء الاجتماع ، علم مكسوب او مكتسب هو نتيجة نشوء المرء في بيئة هي بالذات ، بالاضافة الى العائلة والمدرسة ، احدى مربيات الانسان وصاقلة ذوقه . صحيح ان هذا يتعارض والفكر الفلسفي العربي للعصور الوسيطة . وافكر بحي بن يقظان ، من ابن سينا الى ابن فضلان . ولكنه لا يتعارض معه الا في بعض التفاصيل كما سبق وقلت ، والنبرة هنا على الكلمة « بعض » ، وللحديث في هذا الصدد شجون .

اذاً ، فالطغيان ، الشق الثاني من موضوع حديثنا هذا المساء ، هو انعدام الحرية ، فردية كانت ام جماعية ، وذلك لاي سبب كان . فالحرية تفتقد في بيت عائلي يقوم عليه اب جاهل قاس ، وفي مؤسسة وطنية يديرها مدير طماع عات ، وفي بلد يحكمه من ابنائه حاكم (او اعضاء حزب معين)جبار عنيد . هذا هو طغيان ذوي القربى وهو اشد مضاضة على النفس . . وهنالك طغيان من نوع آخر ، الا وهو طغيان قوة غريبة عنصراً ودينا ولغة خططت اغتصاب قطر من الاقطار ، واستعباد سكانه الاصليين ، ونفذت مخططها فعاثت في الارض فساداً ، منكلة بالمواطنين الاصليين ، مهيمنة ، متجبرة ، طاغية ، معتزة بما اغتصبت من ارض ، واستعبدت من بشر ، وشردت من مواطنين ، وهدمت من بيوت ، فنتج عن طغيانها لجوء المواطنين الاصليين الى وسائل تكفل لهم الاستمرار الحياتي بكرامة وعزة .

هذا هو الطغيان الذي سأشير اليه في سياق هذا الحديث .

ج ـ الاسلوب

واسلوب البحث في موضوعي هذا يعتمد الفكر التوينبي فيما يتعلق بنظرية التحدي ورد الفعل ـ تشالنج اندرسبونس . وهدفي هنا هو الوصول الى نتيجة تستخلص كمبدأ يمكن اعتباره عاما . وانني في هذا السبيل سوف استقطب من أهم احداث تاريخ الامة العربية ، أولهما قديم قدمها ، والثاني حديث معاصر . ونظرا لضيق الوقت المخصص لهذه المحاضرة فانني سوف لا ارسم سوى الخطوط العريضة للحدثين المذكورين ، فأصف هذه الخطوط الرئيسية وصفا موجزا ثم استخلص منها عبرة تاريخية اقدمها برهانا على صحة الاسلوب والاستنتاج وختاما لحديث هذا المساء .

د ـ حدثان في تاريخ الامة العربية

١ ـ رسالة محمد بن عبد الله

لا يختلف اثنان في ان محمدا بن عبد الله هو مؤسس الوحدة والحضارة العربيتين ، والرسول الذي ادى الرسالة الاسلامية وارسى صرحها وحدة وحضارة . كما لا يختلف منصفان في ان ابن عبد الله كان مثال الرجل والخلق العربي الاصيل . فدمه كان دما عربيا وكذلك خلقه وسيرته ولذا كان ولا يزال خير مثال يحتذى لا في حياة الانسان العربي فحسب بل وايضا في حياة المسلم والمؤمن والعارف دينه ودنياه اينما وجدوا . وانني انما اخترت سيرة ابن عبد الله لكونها أفضل حدث تاريخي عربي يمكن اعتماده للوصول الى نتيجة صحيحة يمكن عرضها على جمعكم المحترم بكل ثقة . انكم لتعلمون ان محمدا ولد يتيما ونشأ وترعرع فقيرا في مكة الحجاز حيث عمل تاجرا امينا ثم اختير رسولا

الى العرب اولا والى الامم جميعها . وكانت مكة الجاهلية قوية بمالها وثروتها ، ضعيفة بايمانها وخلقها . وكان اهل مكة تجارا لا يتورعون عن المتاجرة بالسلع وبالدين . وما ان ظهر الرسول بينهم حتى بدأ ذلك المجتمع الجاهلي يشعر بأن فساد تجارته وقلة دينه سوف لا تجديه نفعا بالرغم من طغيانه وظلمه ونشأته على ايذاء الضعيف والاستبداد بأمره ، ووءد البنات وعبادة الاصنام وما الى ذلك من فساد وشرك . وكان محمد يعمل بكل ما اوتيه من ايمان وقوة على تثقيف ابناء مكة فيقلعون عن السيء من عاداتهم وسننهم ويهتدون الى ما فيه خيرهم . وكان من الطبيعي ان تنكر مكة على الرسول رسالته وتعمل هي بدورها جاهدة على ايذاء الرسول لا في دعوته فحسب بل وايضا في سمعته وشخصه. واضطهدت قريش واصحابها رسول الله وتحدوه شر تحدٍ منزلين بـه وبصحبه من الاذى والهوان الوانا .

ماذا كان رد الفعل العربي ؟ اشخص محمد في بعض الشعاب ، ثم في دار الارقم ليأمن وصحبه اذى المشركين . ويتزايد اضطهاد المكيين لهم ويصبح العذاب شديدا جارحا واعراض الناس عنهم قاس لا يطاق فيوعز الرسول ان هاجِروا الى بلاد الحبشة . ويشتد الطغيان فيصبر محمد على الظلم والعدوان ويبتعد ، ويبتعد ، ويبتعد .

يلجأ الى ثقيف في طائفها فتتنكر له ثقيف وتكيل له من العذاب اكيالا . وبالرغم من هذا يتابع محمد مسيرته غير ملتفت الى الوراء وغير مكترث لعقبات ، دوما الى الامام ، الى مكة والنصر ، الى الاسلام والعزة .

٢ ـ فلسطين

والحدث الثاني الذي ارغب في رسمه صورة واضحة للابداع العربي الاصيل هو فلسطين. ففلسطين التراب هي قطر تعاقبت على سكناه مجمعات انسانية كثيرة نعرف منها الفلسطينيين القدماء الذي يعرف القطر باسمهم. اما العبرانيون القدماء (اليهود) فان تاريخهم القديم ما زال غامضا ومعقدا كل التعقيد . أهم شعب « الخبيرو » الذي كان عبارة عن مجموعة

من بشر هربوا أو هربوا من قبائلهم فتصاحبوا وتصادقوا ونظموا من انفسهم شبه امة صغيرة لعبت دورا صغيرا في تاريخ المنطقة في عهد فراعنة الاسر المتأخرة ؟ ليس هنالك اجماع على منشأ العبرانيين ، وكل ما يمكن القول في هذا الصدد هو ان الاعتماد على الكتب المقدسة هو كل ما يمكن للبحاثة ان يفعل . وطبعا ، لايجوز أن يقبل هذا العذر ومن الناحية العلمية .

على اننا نعلم بثقة ان العبرانيين الذين دخلوا ارض فلسطين في قديم الزمان كانوا مستعبدين في ارض مصر الفرعونية وانهم هم المجموعة البشرية التي قادها « موسى العابر » واجتاز بها الصحراء الى « ارض ميعاد » هي ارض فلسطين ، كما تقول التوراة . ومعلوم ان فكرة « ارض الميعاد » هذه هي فكرة نبيلة يؤمن بها كل مضطهد . فهي الحرية السياسية للمستعمر ، والشبع للجائع ، والعودة الى وطنه للمنفي والمشرد . ومعلوم أن « يهوه » لم يشر الى فلسطين بالنسبة لليهود الا بعد ان اجتازوا الصحراء ووجدوا انفسهم على حدود ارض فلسطين . كما وانكم لتعلمون ان موسى ، عليه السلام ، هو ذلك العابر الذي آواه شيخ القبيلة المديانية العربية وزوجه من ابنته (سفر الخروج ٣ : ١ و ١٨ : ١٠ — ١٢) وعرفه الى الاله « يهوه » اله المديانيين (وكان اسمه المدياني « ياهو ») الذي اصبح فيما بعد اله اليهود (ف.خ. حتى تاريخ العرب ، ص ٤٠) .

واستقر العبرانيون في فلسطين وتبعهم المصريون والاشوريون فالبابليون فالفرس فالاغريق فالرومان . وتعارفت هذه الشعوب وتزاوجت وساهمت جميعها في بناء الصرح البشري في فلسطين . وما ان اشرق عصر عيسى المسيح عليه السلام حتى كان سكان فلسطين خليطا من شعوب كثيرة بما في ذلك الاقوام التي كانت على دين التوحيد اليهودي . اجل ، في عصر عيسى ، كان سكان فلسطين قد تقطبوا واصبحوا يقسمون الى قسمين دينيين كبيرين ، اليهود وغير اليهود ، وجميعهم تحت حكم الرومان .

وبشر عيسى وادى رسالته التي ختمها بدمه . وتنصر من اليهود والوثنيين الكثيرون حتى ان من بقي من اليهود على دينه اصبح اقلية

لاحول لها ولا قوة وما بقي من غير اليهود على وثنيته أقل من ذلك بكثير . فلقد اصبحت فلسطين منذ عهد قسطنطين قطرا سكانه في اكثريتهم الساحقة من النصارى. هؤلاء النصارى كانوا قبل تنصرهم يهودا وروماناً واغريق تنصروا فاهتدوا الى دين النصرانية الذي اقره الامبراطور قسطنطين في مطلع القرن الرابع الميلادي . وتعاقبت الهداية الى النصرانية من قبل ما تبقى من وثنيي فلسطين ويهودهم حتى القرن السابع الميلادي ، عصر ظهور الاسلام برسالته السماوية . وانتصر الاسلام في الجزيرة العربية وامتدت رقعته الى بلاد الشام فدخل الناس في بوتقته زرافات وكان المهتدون من نصارى فلسطين ويهودها اسلموا على ايمانهم بالله وبرسوله وباليوم الآخر ودخلوا في بوتقة المجتمع العربي الاسلامي أو كموال ، موال للعرب الذين جاؤوا فلسطين كفاتحين ، ثم كأحرار ، لهم ما لاخوانهم العرب من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات . وظل الحال هكذا حتى مجيء الاوربيين المغتصبين المعروفين في التاريخ باسم الصليبيين . هؤلاء كانوا على التزمت الديني كاحقر ما هنالك من مستوى اجتماعي . وكان عهدهم في فلسطين وسواها من التراب العربي عهد استبداد ديني لم يهتد فيه الكثير من المسيحيين الفلسطينيين الى الاسلام . ولكن الوضع بدأ يتغير بعد ان طرد الصليبيون وعادت فلسطين قطرا اسلاميا عربيا ، وعادت للدين الحنيف جاذبيته ، واصبح باستطاعة من شاء الانتماء اليه عن ايمان ومعرفة . وزاد عدد المسلمين الفلسطينيين . أما الذين بقوا على دين ابائهم من نصارى ويهود فقد استعربوا وبذلك اصبح لهم الحق بالانتساب لا للامة الاسلامية فحسب بل للامة العربية التي هي خليط من امم كثيرة تدين اكثريتها بالاسلام ويتعايش فيها المسلم والنصراني واليهودي وحتى من لادين له ، تعايش المواطن الصالح في ارض طيبة كريمة .

والباحث المدقق في تاريخ الحركة الصهيونية يجد ان صهيونية هرتزل وخلفائه انما هي حركة نشأت اوروبية وترعرعت كذلك ونمت قوامها أوروبيون اقحاح ، وانـه ، حتى الحرب العالمية الثانيـة لم ينتم الى

الصهيونية من اليهود العرب الا القليل ممن تاجر تجارة الصهيونيين فكسب المال سمسارا لاراض وتجارا وصرافين . وهكذا نرى ان عرب فلسطين من مسلمين ونصارى ، لم يكونوا في وقت من الاوقات اعرابا من البادية كما تحاول الدعاية الصهيونية تصويرهم للراي العام الغربي . انهم ابناء فلسطين القديمة والشعوب التي تعاقبت على سكنى فلسطين من عبرانيين ومصريين قدماء ، آشوريين وبابليين واغريق ورومان وعرب واتراك ، انهم فلسطينيون استعربوا ويهود ووثنيون تنصروا ثم اهتدت اكثريتهم الى الدين الحنيف .

وبقيت الحال هكذا حتى أوائل الثلاثينات اذ تازمت احوال يهود المانيا واتهموا بالخيانة العظمى وبالاحتكارية المالية والاكاديمية فاضطهدوا ومثل بهم بطريقة جهنمية لم يسبق لها مثيل في التاريخ (اللهم سوى ما سجله المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي الذي كتب في دراسته التاريخية المعروفة ان اضطهاد الصهاينة للفلسطينيين هو شبيه باضطهاد النازيين لليهود . واستثمر الصهاينة الاوروبيون ــ الامريكيون الكوارث والرزايا التي مني بها ابناء جلدتهم في المانيا وسواها من البلاد الاوروبية التي فتحتها النازية واستبدت بها ، فاثاروها نعرة طائفية عنصرية هدفت الى استعمار التراب الفلسطيني وتشريد كل من لا يدين باليهودية الصهيونية فيه . وتحدى الصهاينة عواطف النصاري الدينية الذين يؤكد مذهبهم ان وعد « يهوه » ذاك قد نفذ بظهور عيسى ، عليه السلام ، وبتأسيس الكنيسة المسكونية كصهيون الجديدة ، عاصمتها روما وترابها العالم بأسره . كما تحدوا عواطف المسلمين الذين يؤكد دينهم الحنيف بان بيت المقدس ، أورشليم ، هي ثالث الحرمين .

اجل تحدوا النصرانية والاسلام وبدأت هجرتهم الى فلسطين هجرة ظاهرها اللجوء والتدين وباطنها الاستيطان والاستعمار . وما ان ازداد عددهم وقويت شوكتهم حتى اعلنوا هدفهم الاستعماري الغاشم : لم يأتوا الى فلسطين للتعايش مع سكانها الاصليين . لقد نزحوا اليها لسبب واحد الا وهو طرد الفلسطينيين واستملاك بيوتهم وارزاقهم ومتاجرهم

وكنائسهم ومساجدهم ومتاحفهم وحتى مقابرهم ... وبذلوا في سبيل ذلك جهود الجبابرة تسندهم اموال راسماليي فرنسا وانجلترا وامريكا. وبالرغم من جهودهم العارمة لم مايتمكنوا من استعمار اكثر من ستة بالمئة من التراب الفلسطيني منذ نزحوا الى فلسطين حتى عام ١٩٤٨ ، سنة صدور قرار الامم المتحدة الغاشم بتجزئة فلسطين .

وفي عام ١٩٤٨ اعلن الصهاينة قيام دولتهم ، باسم « ارض اسرائيل » على تراب شمل علاوة على القسم الـذي قررته لهم الامم المتحـدة مدنا ومقاطعات فلسطينية شاسعة كانت الامم المتحدة ذاتها قد قررتها تراباً لدولة عربية فلسطينية . وقتل الصهاينة وشردوا السكان الاصليين واستولوا على بيوتهم واراضيهم ومتاجرهـم وكنائسهم ومساجدهم ومستشفياتهـم ومتاحفهم وحتى مقابر آبائهم واجدادهم واحبائهم . استولوا على القسم الاكبر من فلسطين بعدان قتلوا وشردوا سكانه الاصليين . ولم يجد الارتجال العربي نفعا بل عادت مفارز الدول العربية التي تدخلت لحماية عرب فلسطين ، عادت الى بلادها بعد ان فشلت في فلسطين . ومني شعب فلسطين بكارثة اليمة . وتوالت المصائب وكان اطمها كوارث اعوام ١٩٥٦ و ١٩٦٧ وكانت معارك ومناوشات وتدمير قرى تلتها معارك منها معركة مدينة السويس ومعركة سيناء ومعركة الجولان ومعركة الضفة الغربية ، معارك شنها الصهاينة بمساعدة وموافقة اصدقائهم في الغرب وكسبوها بمساعدتهم ومعاونة ابناء جلدتهم ودينهم في العالم بأسره . وعادت المفارز العربية الى بلدانها خاسرة خائبة . ومني شعب فلسطين وشعوب العالم الاسلامي اجمع بصدمة اليمة خصوصا وقد اجلي عدد كبير من الفلسطينيين والسوريين والمصريين عن منازلهم ومزارعهم ومتاجرهم في سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة . وهكذا توالت الكوارث لا على الفلسطينيين وحسب بل وايضا على اخوانهم شمالا وجنوبا .

وفي الوقت الذي كان فيه الصهاينة انفسهم يصدقون دعاياتهم عن تدمير شعب فلسطين وضعف مناصريه ، في ذلك الوقت بالذات ، لمع نجم في سماء فلسطين والعالم الكادح بأسره هو نجم حركة تحرير فلسطين ، امل

الحرية الفلسطينية والاديان السماوية الثلاثة ، اليهودية والنصرانية والاسلام ، املهم في احلال الحق وازهاق الباطل ، في انتصار السلام وانهزام الفاشية . وهكذا ولد رد الفعل العربي على الطغيان والاضطهاد العنصري في فلسطين . وفي عام ١٩٧٣ تطور رد الفعل هذا متفاعلا في فرق من مشردين وأميين جاعلا منهم رجالا أقوياء يحاربون دفاعا عن شرفهم القومي وترابهم العربي وينزلون بالعدو الغاشم عقابا كاد يهلكه لولا تدخل امريكا الحاسم الفعال بارادة هنري كسنجر والمستسلمين من حكام امريكا وشيوخها ونوابها الذين يدينون بمراكزهم الحكومية لما نسميه في امريكا « بنفوذ اليهود الانتخابي » ، اي انتخابات الدولة الامريكية التي تقرر كل سنتين للنواب ، اربع سنين لرئيس الجمهورية وست سنوات للشيوخ .

وقبيل ١٩٧٣ وبعدها عرف الفلسطينيون العالم بانفسهم وبقضيتهم عن طريق الجهاد والفداء ، وقرعوا وما زالوا يقرعون باب الحرية الحمراء بايد من حديد ونار . وتقدمت صفوف الثوار وعلى رأسها رجالات اعمارهم اعمار الزنابق المتفتحة ينادون على رؤوس الاشهاد بحياة فلسطين حرة متحررة وطنا عزيزا لابنائها بصرف النظر عن معتقداتهم ، يهودا كانوا او نصارى أو مسلمين ، لايفرق بينهم قانون ولا سلطان . ومعلوم ان احدا لم يصدق هؤلاء الفلسطينيين او يكترث لهم . فكان المتزمتون يقولون : ليس هنالك فلسطينيون وكان المتخاذلون يقولون : لنسالمهم فهم اقوى منا شكيمة وعزما .

ودون سابق انذار امتلات السماء باشعاع الفدائيين وكذلك الارض . ودوت اخبارهم فرددتها وكالات الانباء معلنة عن ظهور رد فعل عربي جديد على الطغيان ، جديد من نوع « عليَّ وعلى أعدائي يارب » . فاثباتا لهويته الفلسطينية العربية وفرضا لوجودهم قدم الفلسطيني ويقدم نفسه قربانا ذكيا على مذبح الحرية السياسية وحرية المعتقد والعقيدة ، رد فعل له ما يوازيه تاريخيا في أعمال الفدائيين الفينتاميين ضد الاستعمار وقبلهم بقرون عديدة ، اعمال المؤمنين ضد الشرك .

ان الدارس لموضوعنا هذا ليرى بكل وضوح ان الطغيان يحاول عدوغاشم اتزاله بعنصر عربي اصيل ، لايمكن أن يكون تجارة رابحة . فالكرامة العربية لاترضى الهوان ولا تسكت عنه . لقد تبين لنا من سيرة الرسول الكريم ومن تاريخ فلسطين العربية الحديث ان الطغيان لاينجم عنه سوى عذاب المضطهد ودماره . فالعربي له من سيرة ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام خير مثال يحتذى . فسيرة الرسول تبين ان للاضطهاد مراحل ووسائل محدودة : اولها التشويق للتعاون لقاء كسب مادي ــ مهني يليها الحرمان من الكسب فالحرمان من الحرية فالتنكيل . هذه الوسائل الاستبدادية هي التي تؤدي الى رد الفعل التدريجي ، صمود هدفه اثبات الهوية ، هوية عنيدة لاتقبل المساومة ، تصبر على حرمان معتمدة على الله والذات ، متذكرة رائدها وخطبته التي قال فيها : « ان الرائد لايكذب اهله . والله الذي لا اله الا هو ، اني لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة . والله يابني عبد المطلب ما اعلم شابا جاء قومه بافضل ماجئتكم به ، واني قد جئتكم بامر الدنيا والآخرة » .

وعندما شوّق الرسول بكسب لو ترك الله وامره قال : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ماتركته » .

وعندما اشتد الاذى عليه وعلى صحبه امرهم بالانسحاب المؤقت .. الى الحبشة . وعندما خسر معركة الطائف التي كادت ان تقضي عليه ، توقف ونظر الى مسيرته ومنطلقات عمله واسباب فشله ثم ناجى ربه قائلا : « اللهم اليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ياارحم الراحمين ... انت رب المستضعفين وانت ربي ، الى من تكلني ؟ الى بعيد يتجهمني ؟ الى عدو ملكته امري ؟ ان لم يكن بك علي غضب فلا ابالي أعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات ... لاحول ولا قوة الا بك » .

وعندما اشتد البلاء على المسلمين في احد ، وقتل حمزة بيد المولى وحشي وبقرت هند بنت عتبة ، زوج ابي سفيان ،بطنه وجرح رسول الله ونودي « مات محمد » ظهر الرسول في وسط المعركة مصباحا ينير الطريق الى النصر واستبشر المسلمون ... ولم ينفع الامل واصيب المسلمون بنكستهم المعروفة ، لم تثبط للرسول عزيمة بل صبر وتابع جهاده ضد الفساد والشرك والطغيان والعتو .

وعندما آذن الله بالنصر ودخل الرسول والمسلمون مكة ، طاف صاحبها بالبيت ثم اخذ مفتاح الكعبة من حاجبها ووقف بباب الكعبة مشهدا الناس على أن « لا اله الا الله لاشريك له . صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده » . اما المشركون ، أعداء الله ورسوله الظالمون المغتصبون الطغاة ، اما هؤلاء فلم يعد لهم من الحيثية مكان وأمرهم الرسول ان « اذهبوا فأنتم طلقاء » ، ابداع عربي أصيل هو مثل الثورة الفلسطينية ومثل كل عربي مضطهد ، معرض لظلم طغاة من أعداء قومه وحضارته .

ارجو أن أكون قد وفقت في رسم الخطوط العريضة لما اسميته بالطغيان وما أثبته من رد الفعل العربي عليه .

خليل سمعان ــ نيويورك

الفحص عن اساس الحكم

تيسير شيخ الارض

مقدمة

يطلق الانسان احكامه على الاشياء باستمرار . وقد فرق المفكرون والفلاسفة بين الاحكام العلمية من ناحية ، والاحكام الاخلاقية والبديعية من ناحية اخرى . فالاولى احكام نظرية ووجودية ، والثانية احكام عملية وتقويمية . وبين هذه وتلك اختلاف جوهري ، حتى لقد اعتادوا ان يجعلوا النظر مناقضا للعمل ، والوجود مناقضا للقيمة . وقد راوا ان القيم الثلاث ، هي الحق والخير والجمال ؛ وكل منها مستقلة عن الاخرى تمام الاستقلال ؛ ويمكن الرجوع الى كل منها ، لقياس نوع معين من الامور الجزئية : الحق الجزئي ، والخير الجزئي ، والجمال الجزئي . لهذا نما القياس لديهم نموا تجريديا خالصا ؛ فاذا الحق غير الخير والجمال ؛ واذا الخير غير الجمال والحق ؛ واذا الجمال غير الحق والخير . وهكذا ، نشات لديهم احكام مختلفة : علمية واخلاقية وبديعية ؛ وكل نوع منها مستقل بذاته ، لا يمكن رده الى سواه . فهل الامر كذلك ياترى ؟

في راينا هذا نتيجة تجريد . ويكفي ان نرجع الى التشخيص ، حتى نرى ان الامر يختلف كل الاختلاف : فالنظر والعمل يمتان الى اصل واحد ، هو الوجدان ؛ والوجدان له اصل ثابت في الوجود المشخص ؛ وفيه يرى الاصل المشخص للقيم الثلاث : الحق والخير والجمال ، التي لا تبدو ثلاثا الا في التجريد ؛ وهي تشكل في حقيقتها وحدة اساسها

الوجود المشخص ذاته ، ولا تتعدد هذا التعدد الا من خلال نظر الوجدان في تامله لاصله الذي صدر عنه ، حينما يتطلع الى الموجودات الجزئية ، المتواجدة معه في الوجود المشخص ، وفق مقاصده الثلاثة .

ولكن مثل هذا الكلام يحتاج الى تدليل . وتدليلنا على ذلك يبدأ بالحكم ، وينظر اليه في التجريد والتشخيص ؛ ثم ينتقل الى تحليل ما ينطوي عليه من علاقات ، ليبين علاقة الحكم بمطلقه وبالعالم الذي يتلاقى على مسرحه ، موضوع الحكم بمطلقه ، وما يتضمن ذلك من كون الوجدان اساس القيم ، ومن أن وحدته مع الوجود المشخص تنتهي الى وحدة الوجود والقيمة . وهذا يعني ، ان التمييز الشهير بين حكم الوجود وحكم القيمة فقد مكانته ، واصبح يحتاج الى مراجعة واعادة نظر . وهذا ما نريده من هذا المقال .

- ١ -

رأى الفلاسفة ان مضمون حكم الوجود شيء فكري ينطبق على الوجود ، او لا ينطبق عليه؛ فينعت بالحقيقي أو غير الحقيقي . وهو يبلغ كامل وضوحه ، حينما يتخذ صورة قضية منطقية تتضح فيها العلاقة بين الموضوع والمحمول . فلنبدأ بحكم صريح ، وناخذ بتحليله ، لا من اجل مجرد تحليله ، بل من اجل رؤية العلاقة الشخصية ، التي لا تكتفي بحمل المحمول على الموضوع ، بل تسعى الى رؤية الموضوع والمحمول في تشخيصها الوجودي ايضاً .

ولكن الاحكام ـ القضايا ـ تختلف من حيث التجريد والتشخيص . فالعامة منها مجردة؛ والمخصوصة منها مشخصة . ان القضية : كل ورد احمر ، مجردة ؛ والقضية : هذه الوردة حمراء ، مشخصة . في الاولى لا نحكم فقط على هذا الورد الذي نراه امامنا ، بل على كل ورد سواء أكان امامنا هنا ، ام بعيداً عنا في أي مكان آخر ؛ سواء اكان الورد الموجود في هذه اللحظة ، ام الورد الذي وجد في اية لحظة ماضية ، ام الذي سيوجد في آية لحظة مقبلة ؛ على حين أن القضية : هذه الوردة حمراء ، هي اكثر تشخيصا ؛ لاننا نحكم على وردة معنية ، نراها امامنا ، في هذه اللحظة بالذات . ولكنها ليست في الذهن ، كاملة التشخيص مع ذلك ؛ لاننا فصلنا بينها وبين صفاتها عموما ، وبينها وبين احمرارها خصوصا ؛ فكان هناك وردة بلا صفات ، او بلا لون (احمرار) في لحظة معينة ؛ ثم

تصبح ذات لون ـ دون صفاتها الاخرى ـ في لحظة تالية ؛ فتكون هذه الوردة الحمراء التي لا ينفصل احمرارها عنها . ولكن ، ماذا حلَّ بصفاتها الاخرى ؟ لقد جردناها منهـا، كما جردناها من احمرارها . ولكن الوردة دون صفاتها ، ودون احمرارها ، شيء مجرد ؛ واحمرار الوردة دون « الوردة » شيء مجرد ايضا ؛ فهما هكذا في المعرفة ! بيد أن الامر يختلف في الوجود المشخص ، هذه الوردة ؛ لان الوردة واحمرارها ، بل هي وكـل صفاتها ، شيء واحد مشخص ؛ وحدة لا تنفصم .

ولكن وجود هذه الوردة المشخص ، وجودها في وحدتها التي لا تنفصم ، ليس مثـل وجود « كل وردة » ليس احمر ؛ بل له الوان متعددة مختلفة . وهو ان كان حاضراً امامي وجوداً ؛ فهو طريقي الى التجريد معرفة ؛ لانني بتعدد الوانه المختلفة ، استطيع أن اجرده من الوانه الخاصة ؛ وبتعدد روائحه المختلفة ، استطيـع أن اجرده مـن روائحه ؛ وبتعدد اشكاله المختلفة ، استطيع أن اجرده من اشكاله ؛ الخ ... لكـي انتهي بتجريده من اللون والرائحة والشكل ، وبعزله عن صفاته كلها ! وهذا هو التجريد العام ؛ فلنبدأ منـــه .

ولكن البدء من التجريد العام ، ربما لايصل الى التجريد الخاص ، في الاحوال كلها . والحقيقة ، اذا صح أن القضية الكلية : كل ورد ذو لون ، يمكن أن نستخلص منها قضية مخصوصة : هذه الوردة ذات لون ؛ لان كل ورد ذو لون ؛ فإنه لا يصح ان نقول : كل وردٍ احمر ؛ وانما فقط : هذا الورد أحمر ؛ لان من الورد ما ليس احمر . وهـذه نقطة اولى يجب علينا ان نسجلها للتجريد : وهي أن مـن شانه ازالـة الفروق بين الاشياء . والحقيقة ، انني لا استطيع ان اقول : كل ورد احمر ، الا اذا كنت اجهـل أن هناك انواعا منه ليست حمراء ؛ او كنت اريد المغالطة ! وبهذا الصدد ، لا بد ان نلاحظ عابرين ، ان ازالة الفروق بين الاشياء ، اي الصفات التي يتصف بعضها بهـا دون بعض ، من شانها ان تقربنا من التجريد ، وتبعدنا عن التشخيص ، في احكامنـا . ولهذا كان التشخيص وحده المرجع الاخير في بلوغ الحقيقة : انه وحده معيار الصدق .

– ٢ –

ولكن ، هل يقتصر الفرق بين الحكمين اللذين ذكرناهما ، على ان احدهما اكثر عمومية من الآخر ؟ بحيث نستطيع ان نقول : كل ورد ذو لون ، ولا نستطيع ان نقول : كل ورد أحمر !قلنا : ان الفلاسفة يفرقون بين حكم الواقع وحكم القيمة . فلناخذ مثالا

على حكم قيمة ؛ وليكن : كل ورد جميل . ان هذا الحكم صادق بالاضافة الى من يطلقه ؛ وربما لا يكون صادقاً بالاضافة الى غيره ؛ لان الجمال نسبي ، كما يقال . وسواء اقلنا من هذه الناحية : كل ورد جميل ، أم قلنا : ليس البتة كل ورد جميل ، أو بعض الورد جميل ؛ فهو يعبر عن علاقة بين الورد ومن يطلق الحكم عليه ، من خلال قيمة الجمال ؛ من حيث أن الجمال هو صورة مجردة من الوجود المشخص . والحقيقة ، ان جمال الورد يتعلق ـ كما يقال ـ بطبيعة مطلق الحكم ؛ أي بذاتيته .

والامر هو كذلك بالنسبة الى الحكم الثاني : كل ورد ذو لون ؛ على الرغم من اننا تعودنا أن نفرق بينهما . فالورد حينما يكون ذا لون ، لا بد أن يكون كذلك بالنسبة الى مطلق الحكم ، بل بالنسبة الى عينه ، وما تحويه شبكيتها من مخروطات تساعد على التفريق بين الالوان ؛ وذلك من خلال قيمة ندعوها الحقيقة ؛ وهي صورة مجردة اخرى من الوجود المشخص ؛ لان لون الورد ، وان كان متعلقاً ـ كما يقال ـ بالورد ذاته ؛ فهو يظل بحاجة الى عين مطلق الحكم ، الى ذاته ، لتراه كذلك من خلال قيمة الحقيقة . واذا بدا هذا الحكم موضوعيا أكثر من الحكم السابق ، فهذا لان بنية عيوننا تتشابه الى حد بعيد ؛ وهذا لا ينفي تدخل الذاتية هنا ، وان كانت ذاتية عامة . ويبدو هذا لنا بوضوح اكبر ، اذا انتقلنا من اللون عموما ، الى هذا اللون أو ذاك ؛ وعندئذ ، ماذا نقول عن المصابين بعمى الالوان الكلي أو الجزئي ؟ يقال ، ولكن هذا استثناء ، وليس القاعدة ؛ ونحن نرى في التفريق بين الاستثناء والقاعدة ، حكم قيمة .

وهكذا نلاحظ في الحكمين السابقين علاقتين لا بد من التسليم بهما ، سواء أكان هناك اختلاف بين مطلق الحكم وغيره ، أم لم يكن . هاتان العلاقتان هما : اولا ، علاقة الموضوع بالمحمول ؛ وثانيا ، علاقة الحكم (ارتباط الموضوع بالمحمول) بمطلق الحكم ؛ وكلتاهما موجودتان في ما تعودنا ان ندعوهما حكم قيمة وحكم وجود . ولكن « الفلسفة » علقت الاهمية على العلاقة الاولى ، واهملت العلاقة الثانية ؛ على الرغم من ان العلاقة الثانية هي التي تمسك العلاقة الاولى . ومهما يكن من أمر ، فانه لا بد لنا من تحليل العلاقتين ؛ لنتمكن من فهم حقيقة الحكم ، الذي هو حجر الزاوية في كل علم . فلنبدأ بالعلاقة الداخلية في الحكم ؛ اعني علاقة الموضوع بالمحمول .

هنا نلاحظ ، ان تحليل الحكم (القضية) ، اي تجريد المحمول من الموضوع ، كان يتضمن تشخص الموضوع باللامحمول ، في الحكم من ناحية ، وفي الواقع من ناحية

اخرى . ولكن التشخص في الواقع أغنى وأعقد منه في الحكم . لان الموضوع في الواقع يتضمن صفات كثيرة ، يمكن لكل منها ان يصبح محمولا في الحكم ؛ في حين أننا نكتفي في الحكم بواحدة من هذه الصفات ، ونجعلها محمولا نحمله على الموضوع . ومن هنا كان الحكم تجريدا . والحقيقة ، انني حينما اقترب من الورد ، ارى شكله ولونه ، واشم رائحته ، وربما ألمسه فاشعر بنعومة وبرودته ، الخ ... ولكنني أفصل صورته عن رائحته ؛ لانني ادركتهما بحاستين مختلفتين . وهذه بداية تجريد . ولكنني ادرك أنهما شيء واحد ؛ بل ادرك معهما صفات اخرى متعددة تشكل وحدة لا انفصال بينها ؛ فاعزو الشكل واللون والرائحة والنعومة والبرودة الخ ... الى « الورد » الذي وراءها ؛ في حين ان الورد هو كل هذه معا . وهكذا يردنا التجريد الى التشخيص ! ولكن التشخيص هنا ليس اي تشخيص ؛ بل التشخيص الوجودي ؛ اي الورد الموجود هنا والان ! ولكن ، ماحقيقة « الورد » من دون صفاته ؟ فاذا أعدمت صورة الوُرد ، وأنا اعتصره في سبيل استخلاص رائحته ، هل يبقى وردا ؟ بالطبع لا ! هل الثفل المتبقي من الورد بعد اعتصار مائه ، وما يحويه من رائحة ، وتشويه صورته ، يبقى وردا ؟ ان احدا لا يقول هذا . واذن ، فما « الورد » ؟ ومن ناحية اخرى ، اذا استطعت — وهذا ليس عسيرا — أن آخذ لدينة ، واعطيتها صورة وردة ، ثم اضفت اليها عطرا خاصا يمنحها رائحة الورد ، هل اكون بازاء وردة ؟ — بالطبع لا ! لان من طبيعة الوردة أن تكون من « مادة » الورد ؛ اي من « مادة » مخالفة لـ « مادة » اللدينة .

بيد أن هذا اذا عنى شيئا ، فانما يعني ان التجريد وسيلة فهم وعمل . فهو من ناحية يفهمني تجريدا ما الوردة ؛ ومن ناحية أخرى ، يساعدني على صنع شبيه لها . ولكن شبيهها ليس اياها ؛ فالوردة المصنوعة ليست وردة . وهـذا يتضمن ان « الوجود » مازال مفتقـدا هنـا ؛ لانه يظـل ، شئنا او ابينا ، خارج نطـاق الفكـر ، وخارج نطاق العمـل .

- ٣ -

ولكننا مازلنا نتحدث عن « الورد » وصورته ورائحته ولونه الخ ... وكأنها مستقلة كل الاستقلال عن نطاق الحكم . وهذا تجريد على الرغم من التشخيص الذي وصلنا اليه: انه تجريد الورد من مدركه . ولكن ، اين يوجد هذا الورد من دون مدركه ؟ أفي العالم الخارجي ؟ لنقف قليلا ؛ ولنحلل مانعنيه بالعالم الخارجي .

يوضع العالم الخارجي عادة ، في مقابل العالم الداخلي . ونعني بالعالم الداخلي ، الحياة النفسية التي تجري في داخلنا ؛ مثل انفعالاتنا ونزعاتنا وافكارنا . ولكن ، بالنسبة الى اي شيء يكون العالم الداخلي داخليا ؟ أبالنسبة الى الجسد ؟ ان علماء النفس لا يقبلون بتحديد مكان لحياتنا النفسية ؛ فهي ليست في الجسد ؛ ليست في القلب او الدماغ ، الخ ... فهذه كلها شروط الحياة النفسية ؛ ولكن الحياة النفسية ليست اياها ! حسنا ! مامعنى العالم الداخلي اذن ؟ واذا رفضناه ، الا نرفض برفضه العالم الخارجي ؟ وهل يمكن ان يوجد الخارجي من دون الداخلي ؟

اذن ، لا بد من قبول العالم الداخلي ! وعندئذ ، افلا يصبح داخليا بالنسبة الى اجسادنا ؟ واذا كان لا بد من التسليم بذلك ، افلا يصبح الجسد هو الحد الفاصل بين انفعالاتنا ونزعاتنا وافكارنا من جهة ، واشياء العالم الخارجي واشخاصه ، من جهة اخرى ؟

وهكذا يتحول الجسد الى حد يفصل بين عالمي الذاتي وعالم الاشياء والاشخاص . ولكنه ليس مجرد حد ؛ بل هو انا ؛ بدليل انني لا استطيع ان افصل عالمي الداخلي عنه ؛ ولا يمكن لي أن اكون من دونه . وهذا يعني ، ان جسدي ليس حدا يفصل بيني وبين العالم ؛ وان العالم لا يمكن ان يكون خارجيا ، وان الاشياء والاشخاص هي معي فيه . وهذا ينتهي الى انني لست في جسدي ؛ بل انني جسدي ، انني لست حياتي النفسية او حياتي العقلية ، بل انني هذه وتلك ، من حيث انهما نشاط يقوم به جسدي ، ان صح فصلهما عنه ! انني جسدي وحياتي النفسية معا ؛ من حيث هما وحدة تامة . وانني موجود في العالم بجسدي ونفسي معا ، لا العالم الخارجي ، بل العالم المشخص الذي انا جزء منه ، في التشخيص الوجودي !

بعد هذا التحليل المتكفيء الى المشخص ، استطيع ان اقول : ان الورد موجود في العالم، مثلما انا موجود في العالم . ولكن هل بالامكان ان يوجد من دون ادراكي ؟ يقال لي : ان هناك جنينية حافلة بانواع الورد المختلفة الاشكال والالوان والروائح ، في ضاحية المدينة . انها موجودة هناك ، وانت لا تدركها ، لانك هنا ! ويقال لي : ما ادراك أن هناك باقة من الورد الابيض ، مختفية في احدى غرف بيت جارك ، تفوح بعطرها ، من دون ان تحس بها ، او تكون على علم بوجودها ؟ وجوابي هو ان هذه الجنينة او الباقة تظل غير موجودة ، الى ان ياتي من يخبرني بوجودها . وفي هذه الحال ، تكون موجودة بالنسبة الى مخبري ، اذا كان صادقا . ولكن مخبري ربما لا يكون صادقا ! وعندئذ ،

أما ان اصدق هذا الخبر ، أو اكذبه . فاذا صدقته كنت وكاني أستمرت عيني مخبري وأنفه وعقله ، الخ ... وهذا يتضمن ان وجود الورد مرتبط بادراكه ؛ وان حقيقة ارتباط الورد بادراكه ، مرتبطة بادراكي انا في نهاية المطاف ! فكانني بحيلة عقلية ـ هـي التجريد ـ نقلت مركزية ذاتي في العالم ، اليه هو ذاته ؛ وجعلته مركز العالم ! ولكنها حيلة لاتنطلي علي ؛ لانني سرعان ما ادرك ، انني ما زلت مركزاً له وللعالم الذي منحته مركزيته . فاذا كان في هذه الحال مركز العالم ؛ فانا فيها مركز المركز . اما اذا كذبته ، وانكرت وجود الورد في هذه الجنينة او في بيت جاري ؛ كان لا بد لي عندئذ ، من ان اتحقق من وجوده بعيني وانفي وعقلي ؛ أي بوجداني جسدا وذهنا . وفي هذه الحال ، اظل محتفظا بمركزية ذاتي في العالم ؛ وابقى على التشخيص الذي يربط بيني ـ بما انا ذات مدركة ـ والورد بما هو موضوع ادراكي ! وفي كلتا الحالتين ، لا بد لي من رؤية الورد وشمه الخ ... لتكون العلاقة مشخصة فعلا ؛ مع فارق بسيط ، وهو ان الورد يكون موضوع ادراكي في احدى الحالتين ؛ وانه ومدركه يكونان موضوع ادراكي في الحالة الثانية !

وهكذا نتكلىء خطوة اخرى من التحليل المجرد الى المشخص « الذي يجمع بين الورد ومدركه ، لا بما مدركه عقل يدرك ، ولا بما هو جملة حواس ، بل بما هو وجدان . وهذا يعني ، انه موجود يقف من موجود . ولكن « اليس من التجريد ايضا ، ان اتصور ذاتي موجودا يقف من موجود ؟ لنحلل هذه العلاقة في سبيل تلمح ما وراءها ! ان وقوفي من الورد لا يتضمن ذاتي من ناحية ، والورد من الناحية الاخرى ، فقط ؛ بل يتضمن ايضا ، ان هناك عالما يجمع بيننا ؛ ولا يمكن لنا ان نلتقي من دونه . وهذه درجة من التشخيص اكبر من درجات التشخيص السابقة .

ولكن هذا التشخيص ما زال تجريدا ايضا : فانا مازلت غير الورد وغير العالم ؛ وكذلك الورد ؛ فهو ما زال غيري وغير العالم ؛ وهذا شان العالم ، فما زال غيري وغير الورد ! ثلاث حقائق مجردة تنطوي على شيء من التشخيص ؛ لكنها تظل دون التشخيص الكامل ! فكيف يمكنني ان اصل الى هذا التشخيص الكامل ، والوعي الذي اتوخى ان يكون وسيلتي الى ذلك ، هو في اصله تجريدا !؟ هل نقضي عليه ؟ واذا فعلنا ، هل يبقى شيء نستطيع ان نطلق عليه اسم الحقيقة ؟ قلنا : ان منهجنا يقتضي ان نذهب الى التجريد ، لنتكفىء منه الى التشخيص ؛ ومن التجريد الكامل الى التشخيص الكامل(1) . وتطبيقا لذلك ، نقول

---

(1) كتابنا : الفحص الكبير ؛ مراجعة لاساس اليقين في الفلسفة والعلم (مخطوط) .

هنا : لا بد لنا من ان نجرد الذات من الوجدان ، ونجرد المطلق من الوجود المشخص ـ بالاعتماد على حركانية الفكر وحركانية الصيرورة ـ وان نتصور العالم ـ بما هو جملة من الاشياء المتمايزة ـ وقد تحول الى الوجود المشخص ، بما هو هذه الاشياء ، وقـد امحى بينها كل تمايز ؛ حتى ذاك الذي يميزني انا ذاتي من العالم ، بما انا ذات واعية ؛ فيصبح هذا كله ، في الوجود المشخص غير المتمايز ، ماثلا في المطلق ، امام ذات مجردة . وهكذا تتمكن الذات من رؤية الوجود المشخص ، من خلال المطلق ! وفي هذه الحال ، يصبح الوجود المشخص موضوعا ، من دون ان يكون في حقيقته موضوعا . وهذا هـو الفارق الجوهري بين المعرفة والوجود المشخص . بهذا قلنا : ان وجود ذاتي ، ووجود الورد ، ووجود العالم ، نتيجة تجريد !

ومن هذا يتضح ، ان البداية في الفلسفة هي البحث عن « موضوعها » ، لاذاك الذي ندركه حينما نتفلسف ، بل الذي افلت منا ، منذ ان بدأنا بالنمو ، والذي لابد من استعادته ، لكي نبدأ بالتفلسف !

ـ ٤ ـ

وعلى هذا النحو ، نجد ان الحكم يتضمن علاقة بين الموضوع والمحمول من جهة ، وعلاقة بين الحكم ومطلقه من جهة اخرى ، وان هذا كله يتضمن حكما ضمنيا بوجود العالم ، الذي يجمع بين مطلق الحكم وموضوع الحكم . وهذا يتطلب وقفة قصيرة عند مطلق الحكم . يحـاول « الفلاسفة » ان يصلوا الى تعريفات جامعة مانعـة للمفهومات التي يتطرقون اليها . والتعريفات الجامعة المانعة نتيجة درجة قصوى من التجريد ، الذي لايمكن مـن دونه ، ان نصل الى تعريفات بعامة ، وتعريفات جامعة مانعة بخاصـة . ولهذا فقيمتها مرتبطة بالحقائق المجردة . ولكن الحقائق المجردة لاقيمة لها من دون الحقائق المشخصة، اعني الوجودية . ومن هنا كان لابد من الفحص عن هذه الحقائق المشخصة ، مثل : سقراط حيوان ناطق ، ابن سينا حيوان ناطق ، ديكارت حيوان ناطق ، الخ ... ولكن هذه الحقائق شبه المشخصة لا قيمة لها ايضا ، الا بردها الى مايرفض « الفلاسفة » ان يدعوه حقيقـة ، وما ندعوه نحن الحقيقـة الوجودية ، اعنـي سقراط وابن سينـا وديكارت الخ ...

يقول المناطقة : ان الحقيقة هي حقيقة الحكم ، وما لايصاغ في قضية صريحة ، لايعد حكما صريحا . ولكن علماء النفس يرون ، ان الحكم ربما لايتخذ صورة صريحة ، فيبقى مضمرا ، ويفقد بذلك اسم القضية ، ولكنه لايفقد اسم الحكم . وهذا يعني ، ان الحكم، وان لم يتخذ صورة القضية الصريحة ، يظل معبرا عن الحقيقة . ولهذا كان قولنا : سقراط ، ابن سينا ، ديكارت ، الخ ... يتضمن الاشارة الى حقيقة وجودية ، هي سقراط حينا ، وابن سينا حينا آخر ، وديكارت حينا ثالثا ، الخ ... واذا نحن سايرنا المناطقة في تفكيرهم ، كان لابد لنا أن نؤول الاحكام المضمرة ، ونردها الى قضايا صريحة ، لتصبح معبرة عن حقائق ، كان نقول : سقراط موجود ، ابن سينا موجود ، وديكارت وجدوا في هذا اليوم او ذاك ، بالمعنى الكامل للوجود المشخص ، وهم موجودون اليوم بآثارهم الفكرية . ولهذا كانت اضافة كلمة موجود الى كل منهم ، لاتقدم ولاتؤخر ! ان اضافتها لاتمنحهم الوجود المشخص ، كما ان حذفها لا يحرمهم منه . وهذا يعني ، ان حقيقة الحكم — التي هي الحقيقة في نظر « الفلاسفة » — تعتمد على « شيء » لايعدونه حقيقة . وهذا يثير مسالة صعبة ، وهي : كيف يمكن لما لايعد حقيقة ، ان يكون سندا لما يعد حقيقة ؟

هنا لابد لنا من التذكير بان هذا « الشيء » الذي هو سند الحقيقة ، هو مايطلق «الفلاسفة» عليه اسم الواقع . ، ولكن ، هل ينقذنا اطلاق التسمية من الصعوبة التي نحن بازائها ؟ اننا لانعتقد ذلك ؛ فـ « الواقع » من دون ذات تدركه ، ليس واقعا ؛ لان تصوره من دون الذات ، يفترض ذاتا تتصوره وتتصور الغاء تصورها لهذا التصور ، في وقت واحد معا . وعندئذ ، فما الفرق الذي يبقى بين الحقيقة والواقع ؟ في عرف « الفلاسفة » هناك فرق في التجريد ؛ اذ ان الشيء في ادراك الذات حقيقة ؛ وهو من دون ادراكها واقع ! ولهذا قلنا : ان التجريد ليس محك الفلسفة ، بل وسيلة من وسائلها في البحث عن الحقيقة ، ضمن حد معين لاتستطيع تجاوزه ، والا وقعت في المحالات التي رأينا شيئا منها !

ان مثل هذا هو الذي دفعنا الى عد الحقائق الوجودية حقائق اولا ؛ وسندا للحقائق المجردة كلها ثانيا . ولكن ، لنلاحظ هنا ، ان كلمة « موجود » خرجت عن معناها المشخص ،وتحولت الى تجريد ، بمجرد تحولها الى محمول نحمله على موضوع ! ولهذا قلنا عن مثل هذه الاحكام : انه يعبر عن حقيقة شبه مشخصة . ففي القضية : سقراط موجود ، رأينا ان كلمة « موجود » لم تضف الى سقراط (الموجود) شيئا . ولكن الامر يبدو لنا بشكلـه الجلي ، اذا عدنا الى مثالنا : الانسان حيوان ناطق .

اننا نلاحظ على القضية : الانسان حيوان ناطق ، انها تعريف جامع مانع للانسان ؛ لانها تصدق على كل انسان من ناحية ، وتمنع هذا الصدق عن غير الانسان ، من ناحية اخرى . والحقيقة ، اننا اذا اخذنا بتحليل مفهوم الانسان ، وجدنا انه يتضمن الحيوانية من ناحية، والنطق من الاخرى . ولكن الحيوانية والنطق ليسا مفهومين بسيطين ؛ بل تنضوي تحتهما مفهومات اخرى ، كالتفكير والضحك واستخدام الرموز ، بالنسبة الى النطق ؛ وكالجسمانية والحياة والتغذي والنمو والتوالد والحس الخ ... بالنسبة الى الحيوانية . صحيح ان كل هذا يفضي الى مضمون مفهوم الانسان . ولكن ، اين هذا الانسان ؟ يقال لنا : في سقراط وابن سينا وديكارت الخ ... طيب ! اذن ، فهذه الحقيقة المجردة ، حقيقة الحكم لاوجود لها من دون « الحقيقة » الوجودية ، حقيقة الافراد الذين تصدق عليهم هذه الحقيقة المجردة . ولعلنا نكون اقرب الى الصواب ، اذا قلنا : ان الحقيقة المجردة هي تعبير عن جانب مجرد واحد ، من جوانب الوجود الشخص الذي نطلق حكمنا عليه !

وهنا لابد لنا ، وقد وصلنا الى هذا الحد من التحليل ، من ان نتساءل : ما قيمة هذه الحقائق المجردة ؟ اذا كانت قيمتها تنحصر في انها تفهمني شيئا عن الافراد الذين تصدق عليهم ، وكان الفهم يسهل لي التعامل معهم ؛ كان معنى هذا ، ان التجريد ليس للتجريد فقط ، بل لتسهيل العمل ايضا . وهذا يعني ، ان العمل مرتبط بالنظر دائما . ولا عجب! فهما يصدران عن اصل واحد : الوجدان !

ومما يثبت ذلك كل الاثبات ، انني قد اجتزئ : الحكم بحسب غايتي ، التي هي نظروعمل في وقت واحد معا . فانا قد اقول : الانسان ناطق ؛ فاصرف النظر عن كونه حيوانا . لانني في هذه الحال ، لا اريد شيئا سوى التحدث اليه ، او التفاهم معه ، حول امر من الامور. او قد اقول : الانسان حيوان يتغذى ؛ فاصرف نظري عن صفاته الاخرى ؛ لانني أريد ان اقدم له طعاما في مناسبة ما ! وهذه الاحكام ربما لا اعطيها صورة القضية الصريحة ؛ فيكون حكمي « اجراء » مباشرا أجريه مع هذا الشخص أو ذاك ؛ فيتوحد النظر والعمل في وجداني .

ولكنني في هذا المثال أو ذاك ، لا أكون بازاء الانسان بعامة ؛ بل بازاء هذا الانسان ؛ أعني الانسان الماثل امامي بلحمه وعظمه . وهذا يضعنا أمام السؤال التالي : واذن ، ما الذي استفدته من هذا التعريف للانسان ، سواء أكان جامعا مانعا أم لم يكن ؟! انه دليل يمكنني من التصرف بازاء هذا الشخص او ذاك . انه اشبه ما يكون برقم هاتف صديق ؛ فانا أستطيع أن استخدمه ، اذا حاولت التحدث اليه ؛ وهو يصلني به دون غيره . ولكنه

دليل لا قيمة له ؛ اذا لم تحقق شروط وجودية معينة ؛ اولها : ان يكون هذا الصديق ما زال على قيد الحياة ؛ وحاضرا في بيته ساعة اتصالي الهاتفي به ؛ وان تكون هناك مناسبة تدعوني الى التحدث اليه ، الخ ... وهذا يعني ، ان رقم هاتفه لن يفيدني شيئا ، من دون توافر هذه الشروط كلها . ان هذا الرقم ما زلت احتفظ به ، على الرغم من ان صاحبه توفي منذ اكثر من سنتين ؛ وهو لن يفيدني شيئا اذا شئت التحدث اليه . فانا اذا طلبته لن يرد علي ؛ واذا رد على احد ، كان لا بد ان يكون شخصا آخر ، ربما ابنه او ابنته او زوجته او احد اقربائه ! لا ادري ! بل ربما يكون شخصا غريبا لم اعرفه في يوم من الايام ، سكن البيت ، وتملك جهاز الهاتف ، بعد ان هجر اهل صديقي بيتهم ، هربا من الذكرى المؤلمة !

واذن ، ما قيمة هذه القضية : الانسان حيوان ناطق ، اذا لم يكن هناك « هذا » الانسان الذي اريد ان اتعامل معه تعاملا تتضمن هذه القضية شيئا منه ، من دون ان تستنفده ابدا !؟ الحقيقة ، ان تعاملي مع « هذا » الانسان لا يمكن ان يكون الا « هذا » التعامل ، وليس اي تعامل ؛ اعني انه ليس تعاملا مجردا ، بل تعاملا مشخصا . وهذا يتضمن ، ان المجردات بعامة ، والتعريفات الجامعة المانعة بخاصة ، لا تفيدني كل الفائدة في « هذا السبيل » ؛ وان كانت توجهني توجيها عاما ، بما انا وجدان ، هو صاحب النظر ، وهو صاحب العمل . وهذا يرتد بنا الى الوجدان ؛ ففيه نرى ارتباط القيمة بالوجود ، وقيام الاحكام المختلفة على اساس من وحدة القيم !

— ٥ —

اذا كان الوجدان يتجرد ذاتا ، امكننا ان نميز في هذه الذات ثلاث قوى متمايزة بتغليب ؛ وهي القوة النظرية ، والقوة الاخلاقية ، والقوة البدعية ؛ وكل منها تعبر عن الذات في موقف دون موقف ، وفي مجال دون مجال .

اما القوة النظرية فترتفع الى اعلى مستوياتها ، وتشرع بالقيام بفعلين متلازمين ، احدهما سلبي والآخر ايجابي . اما السلبي فيقوم على تجريد الوجود من كل مشخصاته ، فيصبح مطلقا ؛ في حين ان الايجابي هو ملء الفراغ بمبدعات القوة النظرية ؛ اعني الافكار وعلاقاتها ، اي ما ندعوه الحق . وهـذا ينتهي الى ان المطلق هو الحقيقـة الاولى وقد فرغت من

مضمونها ، بعمل الفكر المواكب لحركة الصيرورة . ويكون الحق مضمونه الفكري ؛ اي بديله المنطقي في احدى لحظاته .

وما حدث بالاضافة الى القوة النظرية ، يحدث بآلية مماثلة ايضا ، بالاضافة الى القوة العملية او البديعية . وعندئذ ، يصبح الوجدان ذاتا اخلاقية (ضميرا) ، او ذاتا بديعية (بدعا) . اما الحقيقة الاولى التي استحالت الى مطلق ؛ فتملأ بالمفهومات الاخلاقية ، أو الصور الحسية ، في هذه اللحظة او تلك ؛ فيصبح الخير او الجمال مضمونه النزوعي أو الانفعالي ؛ اعني بديله الاخلاقي او الجمالي . وهكذا يملأ المطلق بالحق حينا ، وبالخير حينا ثانيا ، وبالجمال حينا ثالثا .

ان هذا الوجود المفرغ من مضمونه ، والمملوء على نحو من الانحاء ، هو ما ندعوه الواقع ؛ فالواقع ليس فقط وجود الموجودات في قلب الوجود المشخص ، ولا ما يحدث فيه ؛ بل انه فضلا عن ذلك ، طريقة من طرائق الوجدان في ترتيب الافكار ، بديلة الموجودات في المطلق ، بديل الوجود المشخص ، وفقا لمبادىء الحق والخير والجمال . ولهذا ، كانت القيم ــ أعني الحق والخير والجمال ــ واقعية ايضا . ولكن ، على نحو آخر من الواقعية ، هي الواقعية الوجدانية ، التي هي واقعية وجودية في نهاية التحليل . وهذا يعني ، ان الوجود المفرغ من مضمونه ، يملؤه الوجدان بموجوداته التي يتصرف بها ، وفقا لقيمه ، وحسب غلبة هذه القيمة او تلك . بيد ان هذه القيم ليست شيئا آخر سوى الوجود المشخص ذاته ، وقد استحال في نظر الوجدان الى حق او خير او جمال ؛ دون ان تكون استحالته الى حق نافيـة لخيره أو جماله . وكذلك قـل بالقياس الى استحالته في نظر الوجدان ، الى خير او جمال ؛ فهذا لا ينفي عنه حقه وجماله ، او حقه وخيره ! وفضلا عن ذلك ، فالوجود لا يختلف فقط بحسب مضمونه ، عن الحق والخير والجمال ؛ بل بحسب قدر كل من الحق والخير والجمال ، من المشاركة فيه ، ومدى توتر الذات في تغليب أحدها على الآخرين . وهذا يعني ، ان الحق هو الوجود المشخص ذاته ؛ وأن الخير هو الوجود المشخص ذاته ؛ وان الجمال هو الوجود المشخص ذاته ؛ ولكن ، في نظر الوجدان الذي استحال الى ذات ، وفي هذه الحال أو تلك من حالات تجرده . وهذا ينتهي الى ان الواقع ليس واحدا ؛ بل له صور مختلفة يمكن تلخيصها

في ثلاث ؛ وانه ليس الوحيد المحدد لمضمونه ؛ بل تشاركه الذات في هذا التحديد ، بحسب مواقفها وظروفها ومقاصدها ، وما تتوخاه هذه المقاصد من قيم .

ولكن ، لماذا لا نعد القيم أمورا مخالفة للواقع ، كما تعود « الفلاسفة » ان يفعلوا ؟ اننا نعتقد ان الذات ـ سواء اكانت ذهنا أم ضميرا أم بديعا ـ ليس بامكانها ان تحكم على شيء ، من دون الرجوع الى الوجود المشخص . فالوجود المشخص هو المعيار الاخير الذي تعتمد عليه : انه معيار المعايير . فاذا شئت ان احكم على شيء بانه حق او خير او جميل ؛ كان لا بد لي من اللجوء الى الحقيقة او الخير او الجمال ؛ لاتخذ من هذا او ذاك معيارا يمكنني من الحكم على الشيء الذي انا بصدده ، هل هو حق او خير أو جميل . ولكن الحقيقة هي الوجود المشخص ذاته ، في مستوى التجريد ؛ وكذلك هو الامر بالقياس الى الخير والجمال . واذن ، فالحقيقة والخير والجمال هي واقع الوجود المشخص ذاته ؛ ولكن من خلال الذات . فانا حينما اقيس الاشياء بها ، لا اقيس باشياء غير واقعية ؛ بل اقيس بهذا الواقع او ذاك ؛ أعني الواقع الذي يتبدى لي الوجود المشخص عليه ، في التجريد . بيد ان المقايسة تظل ضمن هذه الحدود ، مقايسة الجزئي بالكلي : مقايسة الحق الجزئي بالحق الكلي ، ومقايسة الخير الجزئي بالخير الكلي ، ومقايسة الجميل الجزئي بالجميل الكلي . ولكن الجزئي واقعي والكلي واقعي . تبقى المقايسة ذاتها ، وهي من عمل الوجدان ؛ والوجدان ليس غريبا عن الوجود المشخص ؛ فهو فيه ، وجزء منه .

وهذا يعني في نهاية التحليل ، ان القيم ليست غريبة عن الواقع : انها بحاجة الى الذات ، كما ان الوجود المشخص (أو صوره الواقعية) بحاجة الى الوجدان . وهذا يفضي بنا الى تعريف القيمة تعريفا جديدا ؛ انها نظرة الذات في مقايستها الجزئي بالكلي ، في نطاق الوجود والوجود المشخص .

خاتمة

وهكذا نجد ان الحكم في حدوده المجردة ، يقوم على اساس من وحدة المحكوم عليه ، في تشخصه ؛ لا وحدة موضوعه ومحموله المنصوص عليهما في الحكم فقط ، بل وحدة موضوعه ومحموله من خلال جميع المحمولات الاخرى ، التي يمكن حملها على هذا الموضوع ، والتي

جرد منها محمول واحد كان مقصد مطلق الحكم ، لا من أجل النظر فقط ، بل من أجل العمل أيضا ؛ مما يجعل قيمة الحقيقة مرتبطة بقيمتي الخير والجمال ، من خلال وجدان مطلق الحكم ، الذي يقف هو وموضوع حكمه معا ، في قلب الوجود المشخص .

وهـذا يعني اولا ، ان الحـكم ، وان كان مجردا ، فهو يعتمد في اساسه على الوجود المشخص ، الذي هو وحدة القيم الثلاث ، التي تمتزج في احكامنا ـ في الوجدان ـ على انحاء مختلفة ؛ فتبدو في التجريد ـ أي عندما يصبح الوجدان ذهنا او ضميرا او بديعا ـ حقا او خيرا و جمالا ؛ في حين انها ليست كذلك الا تغليبا ؛ لان الحق والخير والجمال ـ في الوجدان والوجود المشخص معا ـ لا يخلو أحدهما من الاثنين الاخرين ، وان بدا غالبا عليهما . وهذا يجعلنا نقول : ان العلم ، وهو جملة احكام ، اذا بدا قائما على قيمة الحقيقة ، فهو لا ينفي قيمتي الخير والجمال . وما قلناه بشأن العلم ، يمكن أن نقول مثله بشأن كل من الاخلاق والفن .

وهو يعني ثانيا ، أن الحكم ، وان بدا نظريا ، فهو لا ينفي العمل ؛ لانه ينبع من الوجدان ، الذي هومصدر النظر والعمل . ولهذا ، كان بامكان النظر ان يتحول الى عمل ، وبامكان العمل أن يتحول الى نظر ، سواء في مجال الاخلاق او في مجال الفن . وهو أمر ملاحظ في التقنيات القديمة والحديثة ، وفي الفنون على اختلافها . وقد أشرنا الى هذا في مناسبات متعددة ؛ ولا نريد العودة اليه هنا .

وهو يعني ثالثا ، ان الحدود بين الذاتية والموضوعية لم تعد فاصلة من جهة ، ولا مستقلة عن الوجودية من جهة أخرى . وهـذا ما سبق أن بيناه في مقالتـنا : ما وراء الذاتية والموضوعية(١) .

(١) مجلة المعرفة ، العدد ٢٠١ ، تشرين الثاني ١٩٧٨ ، دمشق .

الثقافة والفن كواقع

مؤيد الطلال

الثقافة والمجتمع

الثقافة في البدء ، كل ثقافة ، هي بمثابة تصعيد متسام وتنظيم عقلي للخبرات والتحصيلات المعرفية لامة من الامم او شعب من الشعوب .

ولذا فان القدرة المعرفية البسيطة لاي شعب من الشعوب البدائية في لحظتيها السلبية أو الايجابية تتناسب وتتناظر الى حد ما مع البنية الاقتصادية والاجتماعية لذلك الشعب ، ومع اسلوب انتاجه المادي ومدى تطور قواه التكنيكية والجسدية والعقلية في آن واحد . وبهذا المعنى تكون الاسطورة والسحر والارهاصات الدينية الاولى والخبرات اللغوية والاخلاقية والفنية بمثابة بوتقة تركيبية أو سلوب تشكيلي يغلف الجوهر المادي والاجتماعي، يعبر عنه ويشوهه في آن معا .

وفي مرحلة لاحقة تكون تلك البوتقة تعبيراً عاما عن مصالح ومفاهيم ايديولوجية كل طبقة من الطبقات بشكل خاص . وتتسع الهوة بين شكل ومحتوى ثقافة الطبقة السائدة من جهة ، وثقافة الطبقة المسودة من جهة ثانية ، في لحظات الاحتدام والانعطاف التاريخي والايدلوجي العام وتأجج الصراع الطبقي ـ كلما اقتربنا من مراحل التاريخ القريبة ، وكلما تبلورت صيغ انقسام المجتمع المحلي والدولي الى طبقات وانظمة وايديولوجيات متصارعة .
الثقافة بهذا المعنى اذن ليست مجرد مجموعة معارف نظرية مكدسة في أذهان الناس أو في

بعض نشاطاتهم المادية ، بل هي موقف تاريخي ووجهة نظر ملموسة للحياة وحركة المجتمع وقضايا الانسان .

وبهذا المعنى أيضا لا تكون الثقافة الثورية اذن مجرد وجهة نظر منافضة لوجهة نظر سابقة ، بل هي وبالدرجة الاولى عملية تركيب خلاقة لمجمل نشاطات الانسان الذهنية والروحية والنضالية ذات الطابع والموقف التقدمي والعلمي مبرهنة بالبراكسيس الثوري المجسد بنضال الطبقات الثورية ، والفئات الاجتماعية التقدمية ، ومنظماتها النقابية والاجتماعية المناضلة .

ليس ثمة انقطاع كلي او مطلق في الثقافة الانسانية اذن ، كما لم يك يوما انقطاعا في السيرورة التاريخية والاجتماعية ، بل عملية تواصل واستمرار دائمين في شكل تطور ديالكتيكي يحافظ على جوهره وفحواه الواقعي ويحوي صيغ واشكال تناقضاته الاساسية والثانوية في الوقت عينه .

وبذلك تكون الثقافة الثورية بمثابة مشروع رؤية كونية طبيعية واجتماعية انسانية تحمل بين طياتها مجمل تلك النشاطات الخلاقة للانسان ، التي تشكل تراثه الانساني والوطني ، وخاصة لحظاتها الايجابية وصيغها المادية والثورية العلمية التقدمية ، مشروع رؤية يعبر عن صحته وصدقه بالفعل الثوري الثاني والبناء .

الثقافة والوعي الطبقي

ومن هنا تصبح الثقافة عملا وممارسة لوجه من اوجه العمل والنشاط الانساني ، بل قوة مادية وسلاحا نقديا خطيرا حين تتشربها الجماهير كما اشار ماركس وكما برهنه تاريخ الانسانية عامة وجسدته المرحلة التاريخية الراهنة خاصة .

وبالعكس ، وبذات التأثير والخطورة التي يولدها رد الفعل السلبي ، يمكن أن تصبح الثقافة اداة تضليل وخداع ايديولوجي حين تصوغها الطبقات الاستغلالية السائدة من وجهة نظرها الخاصة وانطلاقا من مصالحها المادية ، فتتحول الثقافة عندئذ الى أفيون قاتل .

وهكذا فان العلاقة بين الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وبين الثقافة علاقة معقدة

ومركبة وغاية في الخطورة والتأثير : علاقة ديالكتيكية وديناميكية ، مباشرة وغير مباشرة ، وليست علاقة ميكانيكية او انعكاسية كما يحلو لبعض مبسطي الفلسفة الماركسية ان يتصورها .

الثقافة تعبير عن مرحلة تاريخية

ومن هنا لا نستطيع ان نتفق مع وجهة نظر غرامشي التي أيدت ما اكده (لابريولا) من ان الماركسية فلسفة مستقلة ومتفردة تحمل في ذاتها عناصر تطورها اللاحق التي تسمح لها بالتحول من مجرد تفسير للتاريخ الى فلسفة شاملة ـ وان كنا نقدر نقده المزدوج لمحرفي الماركسية على صعيد النظرية : (تطعيم الماركسية بالتيارات المثالية) ، وعلى صعيد التطبيق العملي الذي مارسه السلفيون في استعاراتهم من ايديولوجية التصعيد الدينية ، او تحويل الماركسية الى شكل من اشكال المادية الميكانيكية المبتذلة في آن معا .

وبمعنى آخر ان الماركسية هي تمثل واستيعاب وتطوير وتجريد للثقافة البشرية بقدر ما هي انقلاب عليها ، وهي حلقة وصل بين التراث العلمي العقلاني المتنور وبين التطور الحضاري والمادي الذي يبشر بآفاق رحبة على صعيد العلم والكشف والنمو الروحي ، دون ان تكون بالضرورة فلسفة انتقالية ، بل وعي كلي وشامل لحركة التاريخ والمجتمع والانسان ، وارتباط عضوي بفعالية الطبقة الثورية الصاعدة .

ولنا في تأكيد ماركس وانجلز ولينين على الجوانب المادية الديالكتيكية التقدمية العقلانية المتنورة في الفكر البشري ، وعلى اهمية اغناء النظرية الماركسية بأي مكتشف علمي جديد ، دليل واضح على ما ذهبنا اليه آنفا .

المثقفون وانتاج الفكر

ومن هذه المنطلقات نستطيع ان نعرف المثقفين بأنهم فئة اجتماعية تفرزها طبقة نشاطها فكري بالدرجة الاولى ولكنه يتحول تدريجيا الى نشاط عملي اي تترجم الافكار الى مواقف سياسية بطريقة واعية او غير واعية ، مقصودة أو غير مقصودة .

ولما كان المثقف منتجاً فان افكاره قابلة للبيع والشراء والاستلاب في المجتمع الراسمالي الاستهلاكي خاصة ، وبذلك يصبح المثقف البرجوازي آلة في الماكنة الراسمالية ، في حين يصبح اداة مناهضة وتدميرية حين يرفض ان يكون برغيا في تلك الالة ، وفي عملية رفضه تلك انقلاب على الواقع . ومن هنا فان انتماء المثقف الطبقي لا يتحدد بتاريخية انحداره الاجتماعي والطبقي بقدر ما يتحدد بوظيفته الفكرية : بمعنى اي طبقة تخدم افكاره في مرحلة الصراع التاريخي ؟!

الثقافة كسلاح نقدي

ان اطلاق كلمة « ثقافة » باعتبارها حصيلة المجتمع كله ليس الا محض تجريد يصدق اطلاقه الى حد بعيد في المراحل المبكرة نسبيا لولادة المجتمعات والشعوب وتراكم خبراتها وتبادل معارفها قبل نشوء المجتمع الطبقي ، وبالتالي الفرز والصراع الثقافي .

ونحن هنا نستعيد ذلك المفهوم المجرد للثقافة حين نضطر الى التعميمات المجازية ، ولكننا غالبا ما نعي ونؤكد الثقافة من خلال منظور طبقي وسياسي ملموس وتاريخي .

وعلى العكس من ذلك تتمسك الطبقة البرجوازية ومنظروها الايديولوجيون بالمفهوم المجرد العام والفضفاض للثقافة كجزء من رؤية كوزموبولوتية تتناسب مع ظرفها التاريخي وتتطابق مع حاجاتها ومصالحها الطبقية .. ومن خلال ذلك تؤكد خدعتها السياسية وتوسع ضفاف كذبتها الايديولوجية عن مجتمع الاخاء والمساواة والحرية : الا يمكن لابن الطبقة الشعبية المستغلة أن يتعلم ويتفوق ثقافيا في ظل مجتمع المساواة البرجوازية ؟. حسنا ان هذا ممكن – ولكنه نادر واستثنائي كما هو معروف بالنسبة الى ابناء هذه الطبقة .

ولكن لمصلحة من سيكون العلم والثقافة التي يتزود بها المهندس او الخبير الذي قاوم الضغوط المالية والاجتماعية واصبح مؤهلا للمساهمة في عملية الانتاج البرجوازي ؟ عن هذا السؤال ينبغي الاجابة ، وسندرك عندئذ لماذا وسمت الطبقة البرجوازية قاعدتها وحركتها الثقافية ، لماذا اتاحت لبعض المؤهلين (فرديا واجتماعيا) من الطبقات الاخرى (الدنيا والشعبية) فرصة التعلم والتثقيف اكثر من طبقة ملاك العبيد أو الاقطاعيين ؟ عندئذ سندرك سر أخويتها وتسامحها ونظرتها الكوزموبولوتية ، كما سندرك سر هذه الوحدة الجدلية

المتفجرة بالتناقضات بين الطبقة البرجوازية والبروليتاريا ، بين فائض القيمة والعمل ، بين الواقع ونفيه .. وعندئذ سندرك كيف تنقلب اللعبة السحرية على ساحرها ، وكيف تتحول الثقافة المجردة الى ثقافة طبقية ملموسة ، الى سلاح نقدي يرافق نقد السلاح .

سحر الكتاب

ان تاريخ الثقافة والكتاب هو تاريخ العمل الانساني ، حيث رافقت الثقافة والمعرفة البشرية حياة الانسان العملية ، عبرت عنها واغنتها بقدر ما خضعت لضروراتها ومراحل تحولها وتطورها .

ومن هنا يجوز لنا ان نعتبر السحر بمثابة تكتيك للانسان البدائي في محاولته للسيطرة على الواقع والخوارق الطبيعية ، مثلما كانت الاسطورة وسيلة تأويل وتفسير لذلك الواقع، كما كان الكتاب سبيلا لخزن المعرفة ولتجسيد الفنون الانسانية .

واذا كان الكتاب ـ هذه الاداة السرية للثقافة والفنون ـ مرتبطا في البدء بخاصة من الناس والطبقات ، فقد اصبح اليوم الاداة السحرية لنشر الافكار والمعارف الجماعية بين الشعوب والامم على اختلاف امصارها ولغاتها والوانها وفئاتها . ولذا صار الكتاب جهدا جماعيا بقدر ما هو حاجة ووسيلة اجتماعية .

استخدم الامراء والحكام الكتاب كوسيلة لتثبيت قوانينهم وحفظ رسائلهم وحاجاتهم المادية والروحية بقدر ما استخدموه كوسيلة للفن والمتعة وقضاء الوقت ، كما ارتبط انتاج الكتاب بجهود الحرفيين من خطاطين ومزوقين ومجلدين .. غير ان الكتاب اصبح فيما بعد حاجة وصناعة اجتماعية بقدر ما هو وسيلة ديناميكية لبث الافكار الثورية ، وذلك كلما تطورت أساليب المجتمع التكنيكية والفنية ، وكلما ازداد الوعي السياسي بين الطبقات الشعبية المضطهدة .

ومن هنا تقلبت الاداة السحرية على ساحرها ، وانتقلت الى يد الجماهير العريضة غذاء، فكريا وروحيا خطيرا . وبذلك صارت ادواة القمع الطبقي (الدولة ومؤسساتها العسكرية والثقافية ...... الخ) مثلا ، تبحث عن الكتب الثورية ، تصادرها وتحرقها او تمنعها

من الانتشار بين الجماهير .. ولعل في اجازة السلطة القيصرية انذاك كتاب (رأس المال) لصعوبة فهمه مدلولا كوميديا وتراجيديا في آن معا : فهي بقدر ما جسدت بذلك التصرف تسلطها الوحشي فانها عبرت عن غبائها وجهلها دون ان تدرك انها قد ساعدت على حفر قبرها وتقريب لحظة احتراقها من خلال نقل مشعل الفكر والحرية من يد الى يد ، ومن صيغة الى اخرى ، من اجل ضرم اللهب بالعالم القديم وبناء عالم الاشتراكية الجديد .

واليوم لم يعد الكتاب اداة سرية ولم تعد الثقافة مهنة سحرية يتعاطاها علية القوم ، بل اصبحت حياة عامة تمارسها جميع الشعوب وتكتب من خلالها تاريخها الحقيقي وتراثها الاصيل ، كما تجسد عبرها طموحاتها وهمومها وارادتها .

نموذج تطبيقي : الفن كواقع

واستنادا الى هذه التعميمات النظرية ، وانطلاقا من الرؤية الجدلية للعلاقة المركبة بين الايديولوجيات والطبقة ، نحاول ان نتابع الآن دور الفن (ابداع نثري شعري ـ ابداع يدوي وتشكيلي ـ صناعة جمالية .. الخ) ضمن مراحل تاريخية مختلفة باعتباره اكثر جوانب الايديولوجيا واشكالها تسترا وخفاء في علاقته بالواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، بالطبقة .

فن تشكيل الافكار من الاسطورة الى الواقع

الفن هو شكل من اشكال الوعي ، وعي حركة التاريخ والمجتمع ، يتجسد ويتحقق عيانيا في اسلوب منظم ، والاسطورة هي اول فن انساني منظم ، فن تشكيل الافكار وتاويل الواقع، وهذا هو جوهر وبداية كل فن ، حيث ان الفن يسعى دائما الى تنظيم المادة الخام ، الواقع والافكار ، تنظيما راقيا ، والى اعادة صياغة وخلق الواقع من جديد أيضا .

ان الجانب العقلاني ، الواقعي والانساني من الاسطورة ، قد احتوى وطور الحكاية الشعبية والملحمة فتكونت بذلك الارهاصات والبشائر الفنية الاولى .

وقد كان الاسلوب الفني السائد في العصر الحجري الاول ينزع نحو مطابقته للطبيعة ، لان الفن كان آنذاك بمثابة اداة سحرية بيد الصيادين على وجه الخصوص ، الذين يستحوذون

على فريستهم وينتصرون عليها عن طريق الوهم ، المحاكاة والتشبيه ، التثبيت والاحتواء ... الخ ، ولذا فانه يتعلق بحاجات الحياة اليومية للانسان البدائي ويعبر عنها أيضا .
فتلك الاعمال اليدوية التي كانت تعبر عن هدف وغاية حياتية ملحة تساعد صانعيها على انجاز عملية صيد الحيوانات الحقيقية ، أو ايقاع الاذى بالاعداء ، أو استرضاء القوى الطبيعية الخارقة المجهولة . ولذا فقد تميزت تلك الاعمال الفنية بحسها الواقعي ونزعتها نحو مطابقة الطبيعة والتعبير عن الواقع ، كما كشفت عنه الاعمال التكوينية الاولى التي تعود الى حوالي العشرين الف سنة قبل الميلاد والتي عثر عليها في كهوف افريقيا واسبانيا (كهوف التاميرا في اسبانيا على وجه الخصوص)(١) .

وفي عصور لاحقة ، مرحلة العصر الحجري الحديث (٥٫٠٠٠ – ٤٫٠٠٠ ق.م) ، انتقل وتطور ذلك الاسلوب الفني باتجاهات تصميمات هندسية رمزية عقلية ذات بعد جمالي كنتيجة حتمية وضرورية لانتقال الانسان من النمط الانتاجي البسيط المتمثل في المجتمع البري والصيد الى انتاج اكثر تعقيدا وتطورا واستقرارا ، وما يتتبع هذا الانتقال من تطور فوقي على الصعيد الاجتماعي العام وعلى الصعيد الفردي والذهني في آن معا .
وقد كان الساحر الفنان يبغي اخضاع الطبيعة وتحويل الواقع المتحرك والعدائي الى واقع انساني اليف ومن اجل حفز النشاطات الانسانية الجماعية الفكرية والعملية ، واعادة الوفاق وحل التناقض الذي كان يحسه ويرعبه بينه وبين الواقع . ولذا فانه مارس السحر والرسم والنحت والشعائر والرقصات الدينية والتراتيل والترانيم الغنائية ، وخلق الاساطير والحكايات التعبيرية الرمزية .

الفن نتاج العمل الجماعي

في الوقت الذي كان فيه الفنان يسعى من اجل ذلك الوفاق والوحدة مع الطبيعة ، من اجل السيطرة عليها واستثمارها ، فانه سعى أيضا الى تطوير العلاقات الاجتماعية وجعلها اقوى وامتن . حيث ان الفن منذ البداية التاريخية كان انتاجا اجتماعيا يستمد قيمته ومعناه من الجماعة ومن ضرورات حياتهم اليومية .

وكما لاحظ طومسن ، فقد كانت الرقصات الجماعية قبل الصيد او الحرب تؤدي فعلا الى زيادة شعور القبيلة بوحدتها وقوتها . فاضافة الى كون الفن ينشأ من العمل فانه بالوقت

عينه يغني العمل ويساعد على ادائه بيسر وبفرح عظيم. فالشعر القديم على سبيل المثال ، لم يكن نتاجا فرديا بل نتاج الجماعة باكملها « والنوع الوحيد الذي يعرفه البدائيون عن الشعر هو الاغنية ، وان غنائهم ذاك كان مصاحبا على الاغلب بحركات جسمية لها وظيفة سحرية ... وعليه فان تاكيدات او ضربات الايقاع الشعري تجد جذورها في نشاطات العمل البدائي متمثلة في جر اكوام الخشب او بالضرب بالآلة على الحجر او ايقاع المجاذيف ...... الخ »(٢) .

فالفنان الاول اذن هو الذي صنع الادوات البسيطة ، الذي بدأ يدرك الواقع تدريجيا عن طريق المحاكاة والرمز والسحر . انه منظم الجماعة وايقاعات العمل الجماعي ، العرّاف والمتنبي ، انه الانسان الذي بدأ يعبر عن مشاعره واحساساته بلغة شعرية محدودة ، فراح يحكي ما وقع له ويروي شيئا عن ماضيه فطور بهذا الاسلوب الحكاية الشعبية والاسطورة ومن ثم الملحمة .

انه الانسان الاول الذي استوقفه بعض ما هو جميل في الطبيعة (وخاصة الحيوانات جلودها وارياشها ...... الخ) فراح يثبته على الجدران وينقشه على الحجر او يتزين به . وهذا هو المصدر الاول لكل فن ولكل احساس بالجميل .

وظيفة الفن

الفنان الاول ، الساحر والعراف ، كان بمثابة طبيب للجماعة وشاعرها وزعيمها الروحي ايضا ، ولذا فانه في تلك المرحلة التاريخية الغابرة ، يمكن ان يتحول الى كاهن ، الى رئيس ، الى حاكم فعلي ينظم امور الجماعة (الوحدة الاجتماعية القبيلة .... الخ) ويعبر عن وعيها واهدافها . وقد كانت تلك الموهبة والمؤهلات تخوله مثل هذه الريادة . هذا قبل ان ينقسم المجتمع الى طبقات ، اما في مرحلة لاحقة فان الفنان قام بدور المنظم والعاكس لايديولوجية طبقته ــ والتي هي غالبا ما تكون ايديولوجية الطبقة الحاكمة لارتباطه الحتمي والضروري بهذه الطبقة صاحبة الامكانات والوسائل التي تخلق وتشجع وتخلد الفن والادب كجزء من حاجتها الى دعم حقها المطلق او الالهي في الحكم والسيادة

ليس على صعيد القوة المادية فقط ، بل وعلى صعيد القوة الروحية متمثلة في الفنون والاديان ايضا .

★ ★ ★

بعد التراكم الاولي للثروة العامة بيد حفنة من الحكام نتيجة لانتقال المجتمع من النمط الانتاجي البدائي الى النمط الاكثر تطورا (الزراعة ، تدجين الحيوانات واستغلال مواردها، ظهور الات زراعية بسيطة ، تنظيم الري وبناء السدود ، ظهور التجارة وبعض الحرف اليدوية الخ) ونتيجة لوجود فائض عمل منتج بسيط ناجم عن استغلال طبقة العبيد من اسرى الحروب ـ فان هذه الطبقة قد كرست بعضا من وقتها الفائض وثرواتها المتراكمة الى تنمية وتطوير الفنون والاداب للتعبير عن عظمتها وهيمنتها اللامحدودة على شؤون الدنيا والدين والمجتمع في آن واحد : وبذلك تحققت معجزة الاهرامات والجنائن المعلقة والمعابد والقصور والاعمال التكوينية الفنية الرائعة في كل من مصر وبابل ، وخلقت هذه الطبقة حولها هالة من الاساطير الادبية التي تمجدها في حياة الدنيا والاخرة على حد سواء ، فعرف العالم ولاول مرة شعر الملاحم الذي يستمد منابعه ومواده من حياة ومغامرات أولئك الحكام الاوتوقراطيين الكبار (كلكامش ، الفرعون ـ الملك ـ الاله) وتحولت قصور ومعابد الحكام الى مسرح عظيم تقام فيه الحفلات الرسمية والدينية وترتل فيه الابتهالات والاناشيد مصحوبة باصداء الموسيقى وبحركات الفنانين الممثلين ، على حد تعبير (فنكلشتين)(٢) .

بيد ان هذا الانعطاف التاريخي الكبير في حركة المجتمع والفن قد ترك اثره الكبير على شخصية الفنان ومنزلته الاجتماعية . فكلما اقتربنا من المراحل التاريخية اللاحقة نجد ان شان الفنان قل واضمحل الى درجة التلاشي : فحيثما تقوى قبضة السلطة الطبقية الحاكمة يتحول الفن الى اداة وسلعة معروضة للطلب والاستهلاك وتستمد قوة عمل الفنان قيمتها من خلال مقياس نقدي .

ولذا فان الفنان في العصر العبودي (حكم الاسرات المصرية على وجه الخصوص) أصبح من نكرات المجتمع ، وكانت تأتي مكانته ادنى بكثير من مكانة الكاتب الرسمي او العامل في الحقول ـ كما لاحظ كل من فنكلشتين وهاوزر ـ ولا تظهر شخصيته من خلال عمله الفني أبدا . وذلك نتيجة لانقسام المجتمع طبقيا من جهة ، وانقسام العمل الانساني الى يدوي وفكري واحتقار الطبقة الفنية للعمل اليدوي من جهة ثانية .

فن الحضارة وحضارة الفن

لقد ادى التراكم البدائي (الاولي) للثروة الاجتماعية في العصر الاغريقي نتيجة فائض العمل الناجم عن سخرة العبيد وتنامي التجارة وظهور مكننة بسيطة في الميدان الزراعي خاصة والاعمال الحرفية ، وتقسيم العمل ، وظهور التخصص في التنظيمات الادارية والفكرية ، وسيادة الجو شبه الديمقراطي آنذاك .... الخ .

ادى كل ذلك الى تطور زاهر في الحضارة عامة والآداب والفنون خاصة ، واتاح للفرد امكانات جديدة للتطور والابداع الخلاق . فعرف التاريخ للمرة الاولى مثلا الملاحم الهومرية في الشعر وتراجيديا (اسخيلوس) العظيمة وكوميديا (لوسيان) الساخرة .
وقد عكس الفن الاغريقي ذلك (الطابع البدائي للمجتمع) الذي ترعرع فيه هذا الفن .
فكانت مواده الاولية هي الميثولوجيا اليونانية التي تسيطر على الطبيعة وتخضع قواها العاتية في الوهم ، ومن خلال اعادة صياغة الواقع خياليا .

ولذلك فان الفن اليوناني (الاغريقي) قد استغل الصياغة اللاشعورية للطبيعة وللاشكال الاجتماعية نفسها من زاوية الخيال الشعبي ، على حد تعبير ماركس(٤) ، حيث اطلق خيال الانسان اطلاقا كليا نحو المجهول ونحو صياغة بناء الواقع وما ينبغي ان يكون عليه من خلال الميثولوجيا .

ولذلك فقد تحول الابطال الاسطوريون ، الذين هم غالبا ما يكونون ملوك ونبلاء ارستقراطيين (اجاممنون ، هرقل ، اخيل ، يوليسيس ... الخ) ـ الى آلهة او ابناء آلهة ، وهذه الاخيرة بدورها قد اصبحت اكثر التصاقا بالانسان وقبولا لمواصفاته العامة ، فهي تنزل على الارض وتتجسد بكيان بشري وتمارس الفعاليات والعواطف الانسانية كالحب والبغض والخيانة والاغواء .... الخ .

ان هذا الجو الاسطوري السحري الخلاب هو الذي بث في روح الفن الاغريقي كل هذه المتعة الحسية والذهنية الخصبة لتي نعيشها في لحظة مشاهدتنا او قراءتنا لآياته العظيمة . وغالبا ما تمارس طفولة الانسان التاريخية سحرها على ارواحنا فتعترينا الرغبة الجامحة في العودة الى ذلك الفردوس المفقود ، الى تلك الفترة التي بلغت فيها الانسانية

« أوج تفتحها » لا سيما وان تلك الفترة التاريخية لم تصل الى مرحلة تطورنا الاقتصادي والحضاري الراهن . وهذا هو سر عظمة وشموخ ذلك الصرح الفني العظيم في المرحلة الاغريقية الزاهرة ، والذي هو بمثابة نتاج للطابع البدائي للمجتمع « نتاج الشروط الاجتماعية التي لم تنضج نضجا كافيا ، والتي ولد فيها هذا الفن ، والتي فيها فقط كان يمكن أن يولد ... ماركس ـ الصفحات الاخيرة من كتاب مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » .

تدهور الفن

واذا كان النمط الاقطاعي في الانتاج بمثابة خطوة تقدمية حسب مراحل تطور حركة التاريخ ، أتاحت لعلاقات الانتاج حرية وحركة أوسع من العلاقات السائدة في ظل النظام العبودي الذي ساد وطغى في الفترة الاغريقية والرومانية فان هذا النمط قد أحكم قبضته تدريجيا على رقاب ملايين الفلاحين والفقراء .

وقد ساعدت الكنيسة ، باجهزتها المتغلغلة في أركان الحياة الاجتماعية للدول الاقطاعية ، على تثبيت دعائم النظام الاقطاعي وذلك من خلال تبريرها لواقع تلك العلاقات وبثها العزاء الخادع في نفوس جمهرة الفقراء المعدمين ووعدها بعالم سمائي آخر اكثر عدالة ومساواة ، حتى باتت تبيع (صكوك الغفران) التي يستطيع بموجبها الفلاح ان يشتري له ارضا ليس هنا في هذه المملكة الفانية ، بل هناك في أرض اكثر خصوبة ونعيما واطمئنانا لا يستطيع أن يدخلها الا حملة سندات وصكوك الغفران !!

ليس هذا فقط بل ان التاريخ يخبرنا ويكشف لنا عن حقيقة اكثر خطورة : فقد استملكت الكنيسة ، بسبل غير شرعية متعددة ، اوسع الاراضي الزراعية خصوبة في كل ارجاء اوربا المعمورة ، وشكلت اقطاعيات مستقلة خاصة بها لتزيد بذلك من غنى الاغنياء وفقر الفقراء في آن معا .

هذا التحالف غير المقدس بين حكومات الدول الاقطاعية وكنائسها قد سبب قيام حكومات اوتوقراطية متعسفة احكمت قبضتها على القوى المادية والروحية ، وحاربت كل ما يناهض أو يناقض مصالحها الطبقية ووعيها الايديولوجي ، فسادت أوربا فترة ظلام حقيقي وعرفت خلالها محاكم التفتيش الشهيرة .

فلا عجب اذن أن ينحط شان الادب والفن الى مثل هذه الدرجة ، حيث تحولت الميثولوجيا الاغريقية ببريقها البدائي الساحر الى لاهوت صارم ، والى ادب يستمد منابعة من الكتب الدينية السيكولاستية ومن حياة المسيح وكبار رجال الدين .. وتحولت الاشعار الملحمية التي تغنى بها « هوميروس » الى مدائح دينية اوبلاطية ضعيفة ، ودار الادب حول الاخلاق الفردية للفرسان النبلاء وحياتهم الارستقراطية الصاخبة ، في حين اهملت الحياة الاجتماعية اهمالا تاما ، وانحط شان المراة أكثر فاكثر ، وقضي على النزوع الطبيعي في تلبية حاجات الانسان الاولية (الحاجات الجنسية للجسد البشري ، مثلا) وسادت الروح التنسكية المتطيرة والتشاؤم الديني المطلق النابع من فكرتي الخطيئة الاولى والنهاية المفزعة التي يؤول اليها الكائن الانساني (الموت) .. الخ [راجع جون فريفل : الادب والفن في ضوء الواقعيـة الاشتراكية] .

ازدهار الفن نتيجة لتطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية

ولم ينته ذلك التحالف غير المقدس بين الدولة والكنيسة الا في مرحلة لاحقة ، مرحلة نزوع الامراء الى الافلات من قبضة الكنيسة ، والرغبة في استقلال اماراتهم والسيطرة الروحية والثقافية على بنية المجتمع بما يتلائم وتطلعاتهم السلطوية . وفي لحظة تشكل الطبقـة البرجوازية الصغيرة الناشية في احشاء المجتمع الاقطاعي المتهرىء ، بدات هذه الطبقة تشجع اولئك الامراء على مناهضة الكنيسة والحد من نفوذها ، وبهذا دخل المجتمع مرحلة جديدة وخطيرة لم تعد العلاقات الانتاجية والاجتماعية السائدة تتلائم مع تطور القوى الانتاجية الصاعدة . حيث بدأت الورش الفنية والصناعية الصغيرة تتسع وتنمو على هيئة (مينا فيكتوره) ، وتطورت التجارة والاعمال المصرفية وتراكم راس المال ونشا فائض القيمـة وتطورت المـدن وتنامى بناؤها ، واكتشفت مناطق وقارات جديدة غنيـة بالمواد الاولية (امريكا .. مثلا) ... الخ [فريفل : المصدر المذكور آنفا] .

كل هذا قد ادى الى نشوء طبقة برجوازية صاعدة اعتمدت العلم والثقافة العقلية سبيلا لهـا . ففي العصر ، عصر صعود الطبقة البرجوازية الظافرة تربع العقل عرشه وبرزت الاتجاهات العقلانية في الفلسفة والادب التي تؤمن بامكانات العقل اللامحدود في المعرفـة وبامكانات الانسان الخارقة في التغيير والسيطرة على الطبيعة ، كانعكاس لصبوتها في تغيير وتحويل العالم لمصالحها الطبقية . فراح ادب وفن هذا العصر يمجد الانسان والعقل ــ

البرجوازيين بالطبع ـ واصطبغ بطابع الكوزموبولوتية وراح يرصد حركة الواقع وصفوف طبقته الناهضة ، وحارب الافكار الاقطاعية اللاهوتية القدرية البالية ، ووضع له رسالة تاريخية تسعى لتنوير وتحرير الانسان والتفاؤل بخلق مستقبل الحرية والاخاء والمساواة. وقد احتاج عصر النهضة البرجوازية الى عمالقة ، فانجب عمالقة في الفكر والعاطفة الشخصية بما لديهم من معرفة شمولية وعالية ، على حد تعبير انجلز ، وكان اول عملاق في اول دولة عصرية (ايطاليا) هو الشاعر الكبير (دانتي) الذي عاصر الفترة المظلمة وعصر التنوير في آن واحد ، واصبح بذلك اشارة ضوء بارزة في الدلالة على افول نجم صغير وسطوع آخر كبير .

بضاعة الفن والادب

بيد أن سيادة الطبقة البرجوازية سيادة مطلقة ، وانتصارها على الصعيد الاقتصادي والسياسي والثقافي ، قد جعلها تركن الى الاسونة والمحافظة على امتيازاتها الطبقية ومحاربتها لكل ما هو جديد ، بل وتنصلت حتى عن شعاراتها التي رفعتها في فترة محاربتها للنظام الاقطاعي ، فتحولت بذلك « الحرية الى مفهوم تجريدي وليبرالي براق يخفي واقع حرية الاستغلال التي تمارسه البرجوازية للاخرين (العمال والنساء والاطفال ، واقتصر مفهوما الاخاء والمساواة على افراد الطبقة البرجوازية المنتصرة » وتحولا الى مجرد شعار يخفف حدة المأساة ويؤمل عبثا الطبقات المحرومة بمجيء يوم يتحقق فيه هذا الشعار. ولذا فقد فتح الباب على مصراعيه من جديد للامل الديني كوسيلة لاستنفاد غضب الجماهير العريضة (المحرومة) . وظهر ادب برجوازي يدعم اركان هذه الطبقة المستغلة ، ويحارب تطلعات البروليتاريا ويدعو للاستسلام الى الواقع القائم باعتبار ان ما هو واقع هو حقيقي ايضا على حد تعبير « هيغل » .

ان استتباب السيطرة المطلقة للطبقة البرجوازية على قوى الانتاج والتسويق ادى الى تزايد انتاجية السلع ، ومن ثم ازدياد اوقات العمل مع بقاء الاجور على وضعها ، مما استتبع ظهور فائض قيمة كبيرة وتراكم للرأسمال بيد المنتجين . وبذلك تحولت قوة العمل الى سلعة معروضة في سوق الطلب اليومي ، تنخفض قيمتها تدريجيا وتنعدم احيانا الى الصفر نتيجة البطالة الدورية والازمات الاقتصادية « ويتحول جسد العامل بمجمله الى آلة متخصصة أوتوماتيكية نتيجة لتكرار الجزء الوحيد والبسيط المنوط به خلال حياته كلها ـ ماركس » .

وبهذا ينحط العمل الانساني والفني ويتحول الى مجرد قيمة تبادلية الى كمية ، الى سلعة ، ويصبح قوة غريبة على خالقها ، فلا يعود الفنان يتمتع بحريته وفرديته بل يخضع للاطار العام ولمنطق الانتاج الراسمالي وقوة غريبة معادية وغير خاضعة لخالقها . وهو بذلك يكون اما قد اضاع نفسه أو أنه مستعد لاضاعتها ثانية في زحمة غلبة الموضوع (المادة المُنتجة) على الذات المُنتِج .

حرية الفن والفنان

ان على الفنان ، من أجل أن يزيل الشروط التي تجبره على الاغتراب والضياع ، من اجل أن يكون عمله غاية في ذاتها وليس وسيلة للعيش ، من اجل حل مشكلته الخاصة وازمته الفردية .. أن عليه اذن أن يدرك اولا واقع المجتمع والتناقض الاساسي فيه ـ ان يراقب حركة التاريخ ، وان يربط ثورته الفردية الواعية بثورة الطبقة الصاعدة ، الطبقة التي تنوء تحت عبء نتائج انقسام المجتمع ومآسي القهر الطبقي ، والتي تسعى لالغاء كل الظروف والشروط اللا انسانية التي تخلق الاغتراب (والتي تتلخص في وضعها ـ ماركس) .

هذا الوضع المحرج الدقيق سيضع المفكر ـ الفنان ـ الاديب أمام ضميره وامام التاريخ وجها لوجه ، وعليه أن يختار طريقين لا ثالث لهما : مسايرة الواقع وتحويل فكره ، ادبه وفنه ، الى نتاج يباع ويشترى ، عرض في السوق الرأسمالية يمكن أن يدر عليه بعض الارباح والمنافع المادية ، ويخسر بذلك اصالته وقيمته الانسانية ـ أو محاربة هذا الواقع الاسن واللاانساني من أجل تغيير تلك الشروط والاطر التي تؤسر بنية المجتمع وتحول دون حركة التاريخ الصاعدة ، مهما كلف الثمن وحتى لو واجه موته وجها لوجه ، حيث يربح العالم واستكانة ضميره في آن واحد !

ولقد عرف التاريخ الكثير من المفكرين والادباء الذين اختاروا هذا الطريق الوعر والانساني ابتداء من (سقراط) وانتهاء بنيقوس كازنتزاكي ، الذي « بالوا على قبره وما زالوا يتبولون » نتيجة مواقفه النبيلة التقدمية في مناهضة قوى الظلام والرجعية والعمالة الاستعمارية وتجار الدين من اللصوص المتخمين ومحاربته الجهل والزيف والتقاليد البالية واللاإنسانيـة .

اما عدم الاختيار فهو ايضا اختيار (عدم الاختيار) ، على حد تعبير (سارتر) . والمواقف الوسطية ، الانسانية الخجولة ، هي انتهازية مقنعة وانتقائية تعسفية ، بل هـي تواطؤ مقنع مع قوى الظلام واسونة الواقع الطبقي المؤلم .

فالادب والفن لم يعودا مجرد اشكال اسلوبية او صناعية زخرفية ولفظية ، بل انهما وبالدرجة الاولى موقف ، موقف حيال الحياة والمجتمع والانسان وحركة التاريخ .
وهذا الموقف حين يتجسد وتتعرف عليه الجماهير ، تتشربه وتتمثله ، يتحول الى قـوة مادية ، الى سلاح في التغيير . فلم تعد هناك جدوى من عملية تاويل الواقع وتفسيره فقط : حيث أن المسألة الاساسية في هذا العصر ، وبالدرجة الاولى ، تغييره ، وتحويله تحويلا ثوريا لصالح الجماهير الغفيرة (ماركس ــ الاطروحة الاخيرة عن فيورباخ) .

اتجاهان متناقضان في الفن والادب

ومن خلال هذا الواقع عرف التاريخ اتجاهين متناقضين في الفن والادب . الاول يعبر عـن وعي الطبقة البرجوازية ويثبت دعائمها المادية والروحية . والثاني ينتقد مساوىء النظام الراسمالي ويسلط الاضواء الكاشفة على ترهات المجتمع البرجوازي واسونته وقسوته اللاإنسانية ويلتحم بالطبقات الفقيرة العاملة من أجل تغيير شروطها الاجتماعية الخانقة .

والاتجاه الاول تجسد وتبلور في تيارات متنوعة : الفن للفن ، العدمية الذاتية والباطنية ، السريالية والرمزية ، ... الخ . والاتجاه الثاني ابتداء من المدرسة الواقعة النقديـة (ديكنز / تاكري / بلزاك / ستندال / فلوبير ..) وبنزعة مطابقة الطبيعة (اميل زولا) ومناصرة الاتجاهات الاشتراكية والراديكالية (فكتـور هيجو ــ البؤساء خاصة) لتصب هـذه الروافد التقدمية في تيار الواقعية ولتشكل الخلفية الثقافية والفنية للمدرسـة الواقعية الاشتراكية التي تسترشد بالمنهج العلمي في الكشف عن الواقع وسبل تحويله تحويلا ثوريـا .

واذا كان الشاعر الالماني الكبير (جوته) قد مات دون ان يستقر قلقه (رايه) علـى الاختيار بين الثورة الفرنسية العاتية وبين الامبراطور الطاغية (نابليون بونابارت) ، بين نزعته العالية ورؤيته الانسانية وبين محافظته على كيان الدولة الالمانية التي تبوأ منصب وزير فيها بين خصب الادب وروح فاوست وبروموثيوس وبين جفاف الحياة الرسمية واعمال

مقاطعة (فايمار) المرهقة على حد تعبير (فريغل) . اذا كان « جوته » لم يحسم امره في مثل هذه القضايا الخطيرة فان « بلزاك » الاديب الفرنسي الذي كان أفضل من (مؤرخي واقتصاديي واحصائيي عصره المحترفين اجمعين) قد حسم الامر واختار طريق الاخلاص والولاء الى الواقع والحقيقة بدل الاخلاص الى (المسيحية والملكية) .

ولأن « بلزاك » اضطر الى السير في طريق يخالف الطريق الذي سارت فيه الطبقة التي كان تعاطفه كله معها ومعتقداته السياسية كلها تؤازرها ، ولانه رأى ضرورة أن يسقط وان ينتهي النبلاء الذين أحبهم ، ولانه وصفهم حتى لينسجم مع المصير الذي آلوا اليه ، ولانه رأى أين يكون البشر الحقيقيون الذين يسودون المستقبل ... الخ .
لذلك كله فقد اعتبر (انجلز) ان بلزاك هو أحد الانتصارات الكبرى في تاريخ الواقعية [رسالة انجلز الى م . هاركنس في عام ١٨٨٨] .

لقد طرح « بلزاك » جانبا نموذج البطل الارستقراطي النبيل الذي يقضي يومه (بمشاغل القلب وحده) وغاص في معترك الحياة وكشف عن العالم الحقيقي وسيولة الحياة اليومية بما فيها من طبقات وفئات متنوعة ومتصارعة : اصحاب اعمال كبار ، باعة متجولين ، شرطة ومحتالين ، سيدات الطبقة البرجوازية والغانيات البائسات ... الخ .

والكوميديا الانسانية التي كتبها (بلزاك) هي فضح رائع وخطير لمجتمع المال البرجوازي الذي يجعل من كرامة الانسان قيمة قابلة للعرض والطلب والتحويل ، ومن الحرية شعارا خادعا لتغطية واقع حرية التجارة وتجارة الحرية بدل حرية الشعوب المضطهدة والطبقات الفقيرة « وبذلك استطاع المال ـ من خلال هذه الكوميديا الرائعة ـ أن يشتري النساء ، الغانيات والابناء والبنات ، الجمال والفن والفضيلة . وبذلك فقد تحول المجتمع البرجوازي الى مجتمع أناني حقود فاسد يرفع شعار (كل انسان لنفسه والويل للمغلوب) كما لاحظ فريغل (٦) » ، وتحولت فيه المحبة بين أفراد الاسرة الواحدة الى كراهية ومقت بسبب النزاعات القذرة الناشبة حول الارث والملكية . وخضع فيه الحب لاكياس المال ، واصبحت فيه البكر (راس مال) والزواج مضاربة . مجتمع ترى فيه صرامة الاغنياء وسرقاتهم المشروعة ، وجرائمهم التي لا تقع تحت طائلة العقاب ، متجلية في وضح النهار . وتحل فيه امتيازات على الامتيازات الملغاة . وتتحكم فيه جماعة من التجار والجشعين والوصوليين الذين يناوىء بعضهم بعضا من استغلال شعب يعيشون على كدحه . مجتمع

يسود فيه عنصر المال ، ويضطر فيه المثقف ان ينحي ضميره جانبا ليصعد في درجات السؤدد والغنى ، ويعاني فيه العالم والفنان الاهمال والاحتقار والتردي في هوة الشقاء ». هذا هو الواقع البرجوازي الذي كشف عنه بلزاك بعين موضوعية نافذة ناقدة ، وبذلك فقد ادى رسالته التاريخية كانسان واديب وفنان في آن معا ، واراح ضميره ايضا .

الفن شكل من اشكال الوعي والتعبير الطبقي

وهكذا نرى ، ونجد العديد من الشواهد التاريخية والثقافية ، ان الفن على مر العصور والمجتمعات الطبقية قد عبر ، بشكل او بآخر وبدرجات متفاوتة ، عن وعي طبقي معين وعن تعبير طبقي لصالح الفئات الحاكمة او الطبقات المحكومة .

ان الفنان ـ الاديب في المجتمع الطبقي يعيش ازمة حادة نتيجة لتقسيم العمل وتمركز الثروة بيد فئة صغيرة ، ونتيجة لرغبته في الافلات من قبضة الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي يعاني منه من جهة وخضوعه لمنطق الواقع من اجل تلبية حاجاته اليومية من جهة أخرى ، ونتيجة للتناقض الكامن بين ذاتيته الخلاقة وتقديسه لعمله الفني واعتباره بمثابة غاية في حد ذاته وبين تحول هذا العمل الى مجرد سلعة معروضة في السوق التجارية تتحدد قيمتها بالكم النقدي وليس بالكيف الفني والجمالي والانساني .

آفاق الفــن والادب

ولذا فان المجتمع الاشتراكي الحقيقي الخالي من القهر الطبقي والعبودية السياسية فمين بحل ازمة الفنان (حيث يصبح التطور الطليق لكل فرد شرطا لتطور الجميع . عندها تحل مشكلة الانسان العامة ومشكلة الفنان الخاصة ويعود الى فنــه صفاؤه ونقاؤه وقيمته المعنوية الانسانية ويتحرر من عبودية الحاجة ويتجاوب فيه الحس الانساني مع كل هذا الثراء الذي يرفل فيه الوجود الانساني ـ البيان الشيوعي) .

وعندها ايضا لا تكون الثقافة حكرا على طبقة معينة او نخبة من العباقرة الملهمين ، بــل تصبح حياة يمارسها كل الناس بما فيهم الطبقة العاملة ، وذلك لانعدام الفروق القائمة بين المدينة والريف ، بين العمل اليدوي والعمل الفكري ، ونتيجة لتحرر الفنان مــن

ضغط ظروف البيئة وقمع السلطة الطبقية ومن الخضوع للتخصص في فرع محدد ، ونتيجة لوفرة حاجات الاستهلاك اليومي والوقت اللازم للراحة والمطالعة والبحث وتحول الكتب الى غذاء يومي يستطيع تناوله بيسر وسهولة كل من يرغب في ذلك .

وقد لاحظ أحد رواد الاشتراكية العظام بان امكانيـة ضمان تفتح استعدادات الناس الجسدية والفكرية وممارستها ممارسة حرة كاملة : هذه الامكانية موجودة الآن ولاول مرة (انجلز ـ آنتي دوهرنغ) .

وبناء على ما تقدم فان الواقعية الاشتراكية لا تحارب الذات الخلاقة ،الفنان الفرد ، بل تحارب فوقية الفنان وعزلته عن حركة الواقع وقضايا مجتمعه واعتباره الفن مجرد وسيلة للربح أو التسلية وقتل الفراغ ... الخ ـ ولا ترى ايما تناقض بين الفرد والمجتمع ، وان تركيب ذاتية الفرد يتجاوب بالضرورة مع بنية ووحدة المجتمع ، وان السيطرة الحقيقية على الذات والواقع لا تتحقق في نطاق العوالم المغلقة التي يبتدعها الفنان البرجوازي لذاته المريضة او باعادة خلق العالم لحسابه الخاص كما يعتقد « كامو » مثلا ، بل في تعاون الفنان مع المجتمع نحو زيادة وتوسيع آفاق رؤية الانسان المعرفية والروحية وتوجيه هذه الرؤية لصالح الحساب العام .

لان الفن هو في التحليل الاخير ، شكل من اشكال الوعي الانساني والاجتماعي الهادف .

مهام المثقف العربي المعاصر

في هذه المرحلة التاريخية الخطيرة في مرحلة التحرر الوطني والقومي الشامل ، مرحلة نهوض الامة العربية من سباتها الطويل ، في مرحلة انتصار الاشتراكية يضعنا التاريخ كمثقفين أمام مفترق طرق : طريق العبودية السياسية والاقتصادية والخضوع الى ارادة القوى الاستعمارية والامبريالية وهو طريق تصفية الثقافة واضطهاد الفكر وانحطاط العلم والفن والادب ... أو طريق التحرر الوطني والقومي الذي يفتح آفاقا رحبة من التقدم والرقي بالغائه الطبقات والاستغلال الطبقي واشاعته الثقافة بين أوسع طبقات الجماهير العريضة .

الوقف التاريخي اذن هو المقياس الصحيح لحقيقة المثقف وصدق الثقافة ، فالثقافة لا يمكن ان تختزل الى مجرد معارف مكتبية ، انها وبالدرجة الاولى سلاح نقدي وموقف معاش ، والمثقف لا يمكن ان يكون مجرد الانسان القارض للكتب ، والسلوك الثقافي الصحيح ليس العدمية الفكرية او الاخلاقية والتعالي على الناس والعيش في صومعة فكرية او فنية واقتناص الرؤى الجمالية التجريبية الميتافيزيقية عبر دوخة الراس وابتذال الجسد الانساني - بل ان الثقافة الحقيقية هي الموقف السياسي الصائب ، هي الارتباط الجدلي مع الطبقات الوليدة التي ستصنع التاريخ ومع جماهيرها وقادتها المناضلين ، هي الرؤية الصائبة العلمية ..

والمثقف الحقيقي هو الذي يستطيع ان يدرك مهامه النضالية ويربطها بالاطار الصحيح للحركة الاجتماعية السائرة نحو الاستقلال والتحرر من الاستغلال وبناء العالم الجديد ،هو الذي يرتبط مع جماهير شعبه وامته في مقارعة الاستعمار والرجعية والتخلف ، الذي يتغلغل في صفوفها ويحيا حياتها ، مستكنها روحها ومحولا رصيده الثقافي الى قوة مادية خلاقة . وبهذا المعنى يكون المناضل الفلسطيني او الفيتنامي رجلا مثقفا ، لانه قد وعي ابعاد الوضع التاريخي لامته ومجتمعه وحدد موقعه الصحيح من الاطار العام لذلك الوضع .

تلك هي المهمة الاساسية للمثقف العربي . اما المهام الثانوية فانها تتحدد طبقا لتطوراساليب النضال القومي والوطني ، وطبقا لتبلور هذا الشعار الثوري ضمن مرحلة تاريخية محددة وتتناسب مع ديالكتيك الحركة الثورية .

وضمن هذه المهمة الاساسية يقع على عاتق المثقف العربي رفض حلول التسوية الاستسلامية التي تطرحها الانظمة العربية الاستسلامية والتي تسعى الى تصفية البؤرة الاساسية في الثورة العربية ، تصفية القضية الفلسطينية ، من اجل فتح البحيرة العربية النفطية امام الرساميل الامبريالية وسفن النهب الاقتصادي والاذلال القومي والثقافي !

ان ربط النضال الطبقي بالنضال القومي ، ربط مصالح اكثر الطبقات ثورية بتطلع غالبية الشعب العربي نحو التحرر من القهر الاستعماري ورفض التجزئة المصطنعة .. من المهام الاساسية الملقاة على عاتق المثقف العربي .

ولذا فانه مطالب بوعي جدلي لسيرورة التاريخ العام للانسانية ولامته المناضلة في آن واحد وعيا يحدد اهم مراحل التواصل بين الماضي والحاضر ، بين التراث والمعاصرة ، الاصالة

والاقتباس ، وعيا دياليكتيكيا ثوريا يستخلص من تاريخ الامة العربية وتراثها اكثر الجوانب القا واشراقا وتفجرا انسانيا وثوريا ليضيفه الى مستقبل الثورة العربية والعالمية .

الكائن وما ينبغي ان يكون : من الواقع الى الحلم

ولو اننا حاولنا ان نرصد ونقيم نتاج وموقف المثقف العربي ازاء هذه المهمات التاريخية المنوطة به فيحق لنا عندئذ ان نتساءل : (هل استطاع المثقف العربي ان ينهض بهذه المهمات ويرتفع الى مستوى الطموح ؟ هل استطاع ان يتمثل تاريخ الحضارات الانسانية والفكر التقدمي المعاصر ليدرس من خلالها تاريخ امته وشعبه دراسة علمية موضوعية ، ليكشف عن الجانب المادي والمتنور في تراث الحضارة العراقية والمصرية والعربية باعتبارها قد ولدت وترعرعت في هذه الارض وشكلت البنية التاريخية والحضارية والايديولوجية لهذه الامة ؟ هل استطاع المثقف العربي اليوم ان يربط بين تمثله الحضاري وتطوره الثقافي الراهن من اجل بلورة نظرية علمية تتلاءم مع ظروف المنطقة والمرحلة التاريخية التي نحيا في ظلها ؟هل حدد القوانين الاساسية التي تفصل مابين الخاص والعام ، بين المطلق والنسبي ، بين الكائن وماينبغي ان يكون عليه ؟) .

على الرغم من بعض الاستثناءات النادرة في هذا المضمار فان المثقف العربي لم يرتفع بعد الى مستوى الطموح والمهام الكبيرة الملقاة على عاتقه .

وحتى تلك الاستثناءات الجزئية جاءت كاعمال ثقافية من الخارج ، اغلبها مكتوب بالاصل بلغات اجنبية ذات صيغة ايديولوجية او وضعية علمية معقدة وليست كمساهمات علمية سياسية وجماهيرية تسعى لتوحيد طاقات الطبقات المستغلة ومنظماتها اليسارية الثورية من أجل تشكيل حركة تاريخية شاملة تتصدى لمنازعة الاستعمار القديم والحديث ، الاقتصادي والثقافي ، تحرر الاراضي المغتصبة وتلغي التجزئة ، تحقق مملكة الحرية الحقة في عالم المساواة والاشتراكية .

من اجل ابداع اصيل

ولو انتقلنا من المهام الكبرى الى المهام الاقل حيوية وخطورة ، من الفكر والسياسة الى الادب والفن ، دون ان ننسى بالطبع العلاقة العضوية الدياليكتيكية بين الطرفين والمهمتين ، بين

البنية المادية الحية وما ينهض عليها من صرح أيديولوجي وروحي ـ فمن حقنا أن نثير تساؤلات عديدة أيضا :

هل استطاع المبدع (قاصا كان أم شاعرا أم فنانا) أن يستقل حقا كنوز حضاراته العظيمة كتمثله للإبداع المعاصر ليجسد لنا نموذجا ابداعيا راقيا يحوي على نحو مدهش شمولية الرؤيا وعالية الطموح والاحساس بالجميل وخصوصية التعبير والاداء والمواقف في آن واحد هل استطاع المبدع ان يجسد حركة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ؟ يرسم لوحة صراع الطبقات والتحولات التاريخية ؟ يتابع تغير العلاقات الاجتماعية والاخلاقية نتيجة لتبدل الحياة المدينية والريفية على صعيد قوى الانتاج وعلاقات الانتاج في آن معا . يرصد نشوء أنماط وظواهر حياتية جديدة ، واندثار قيم واعراف ومواقف قديمة ؟ يفرز الملامح المأساوية عن الملامح المشرقة ، ويرصد القوانين الاساسية كما يتنبأ بالتحولات والنتائج القادمة في الوقت الذي يربي عند شعبه الروح الاجتماعية والاخلاقية والانسانية ، ويزيد من احساسه الحضاري والجمالي ويعمق وعيه السياسي ويوسع افق مداركه وطموحاته الانسانية . ؟

هل استطاع ان يقوم الفنان المبدع بهذه المهام ؟

هنا نجيب أيضا بالنفي ، ونؤكد على أن الاستثناءات نادرة على الرغم من النشاط الملحوظ في هذا المضمار والتي تبحث على التفاؤل الى حد ما .

آفاق النقد الادبي

اما على صعيد النقد الادبي ـ وهو مهمة حضارية ـ فليس هنالك ناقد كبير او جماعة نقدية او مدرسة نقدية استطاعت تغطية المرحلة التاريخية ومتابعة الابداعات الادبية متابعة شاملة ودقيقة : فرز الغث عن السمين والاهتمام بالبذرات الطيبة خاصة ، التحليل والرصد والكشف ثم الاستقراء والاستنباط فالاستنتاج والتعميم ، الكشف عن القوانين الخاصة والعامة في عمل كل مبدع وفي الحركة الابداعية عامة ان كانت شعرية او قصصية او مسرحية أو تشكيلية تأكيد قيم حضارية فكرية وفنية لا غنى للعمل الابداعي عنها ثم تعميق الوعي الايديولوجي والفني عند كل مبدع وتنمية مشاعره واحاسيسه الجمالية وتفجير طاقته الروحية التأثير على الحركة الابداعية ككل ورفعها الى مستوى الطموح الانساني وبالاتجاه

الحضاري التقدم الذي يلغي استثمار الانسان لاخيه الانسان كما يلغي الفروق بين العمل اليدوي والفكري ، بين المدينة والريف ، بين الرجل والمرأة ... الخ .

من خلال هذه المؤشرات والطموحات نستطيع ان نحاكم الناقد مثلما نتحاجج مع المبدع والمفكر لتنمية روح المسؤولية لاعادة الوجه الناصع لحضارة الشرق وابداعات الامة ، للقضاء على الهوة بين الماضي والحاضر ، بين الشرق والغرب ، بين الشعوب والامم ... من اجل خير الانسانية قاطبة .

مؤيد الطلال ـ بغداد

الهوامش والمراجع

١ ـ راجع حول هذا الموضوع كتاب (ارنولد هاوزر) ـ الفن والمجتمع عبر التاريخ ـ الجزء الاول ـ ترجمة د. فؤاد زكريا ـ القاهرة .

٢ ـ يوجد هنا تشابه بين النتائج التي توصل اليها (ارنست فيشر) مع النتائج التي كان قد توصل اليها (جورج طومسن) في كتابه [دراسات في المجتمع الاغريقي القديم ـ لندن ١٩٤٩ م دار النشر (Lawrence and Wishart)] ويعترف فيشر بهذه الحقيقة في صفحة (٣٥) من كتابه (ضرورة الفن ـ دار الحقيقة ـ بيروت) . ونحن نعتمد في دراستنا هذه على النتائج التي توصل اليها طومسن بالدرجة الاولى . راجع الفصل المترجم من كتاب طومسن المذكور بعنوان (الماركسية والشعر ـ ترجمة خالد القشطيني ص ٢٥ ـ دار بغداد ١٩٥٩ م) .

٣ ـ سدني فنكلشتين : الواقعية في الفن ـ ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ص ٣٩ .

٤ ـ جون فريفل ـ الادب والفن في ضوء الواقعية الاشتراكية ، ترجمة محمد مفيدالشوباني، دار الفكر العربي .

٥ ـ F - Engels : Dialectics of Nature (Moscow 1966/p : 21) .

٦و٧ ـ يلخص (فريفل) هنا ماورد في (البيان الشيوعي ـ ماركس انجلز) عن الواقع البرجوازي . راجع ص ١١٢ من كتاب فريفل المذكور انفا .

أثر العلم والتعليم
في التقدم الاقتصادي والاجتماعي
في الدول النامية

سميح عيسى

العالم من حولنا ـ الآن ـ يعيش انفجاراً علمياً وتعليمياً كبيراً ، هذا الانفجار يحدث تغيرات ومنعكسات متعددة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والصحية .

يقول الفين توفلر في كتابه (صدمة المستقبل (١)) .

« .. انه لو كانت الزراعة هي أولى مراحل التنمية الاقتصادية ، والتصنيع هو المرحلة الثانية ، فاننا نستطيع الآن أن نشهد مرحلة ثالثة اقبلت فجأة .. لقد سادت الزراعة المجتمعات البشرية لمدة عشرة آلاف سنة . واحتاجت هـذه المجتمعات الى قرن واحد أو قرنين لتحقيق تفوق الصناعة . والآن تنفتح أمام المجتمعات البشرية أبواب عصر جديد هو عصر بعد التصنيع ـ عصر العلم والالكترونيات وريادة الفضاء » .

ويمضي « توفلر » مبيناً آثار الانفجار العلمي والتعليمي في النظام التعليمي في الدول النامية عامـة وفي أقطار الوطن العربي على وجه الخصوص ، مقرراً :

« ان المدارس في هذه الدول تتراجع في اتجاه نظام يحتضر أكثر من اتجاهها نحو المجتمع الجديد الذي ينبثق .. وان طاقاتها الهائلة ما زالت موجهة لصياغة رجال من طراز عصر التصنيع (تقريباً) ، رجال مسلحين من اجل البقاء في ظل نظام سيموت هو ذاته قبل ان

---

(١) مجلة تعليم الجماهير ـ ايـلول ١٩٧٧ .

تدركهم الوفاة ... ومن أجل تفادي صدمة المستقبل يجب على هذه الدول أن تخلق نظام تعليم يناسب عصر مابعد التصنيع . وحتى تفعل ينبغي لها أن تبحث عن وسائلها وغاياتها التعليمية وغيرها في المستقبل بدلا من أن تبحث عنها في الماضي .. » .

وفي النهاية يستعير « توفلر » من عالم النفس « هربرت جيرجوي » عبارة له يقول فيها : ان التعليم الجديد يجب أن يعلم الفرد كيف يصنف ثم يعيد تصنيف المعلومات وكيف يقوم صحتها ، وكيف يغير من المقولات اذا لزم الامر ، وكيف ينتقل من الواقع الى المجرد وبالعكس ، وكيف ينظر الى المشكلات من زاوية جديدة .. كيف يعلم نفسه .

مما تقدم .. وفي ضوء مجموعة من الحقائق العلمية الاخرى التي نفرض وجودها في السنوات الاخيرة من هذا القرن ، يمكن القول ان التطور العلمي والتكنولوجي يسير بسرعة فائقة لدرجة انه أصبح من الضروري تطوير أساليب جديدة ، وايجاد مناهج متطورة في حقل التعليم والتدريب الاكاديمي والمهني والفني .

ولا مجال في المجتمعات الآخذة بالنمو الاكتفاء بالمستويات المحدودة من التعليم خاصة بعد أن أدركت تلك المجتمعات « على ضوء تجارب الدول المتقدمة » أن نقص المال لم يعد هو العائق الوحيد لعمليات التنمية الشاملة والتقدم ، وإنما هنالك عائق أهم وأخطر وهو نقص رأس المال البشري المؤهل والمتعلم .

لقد اختفت الفكرة القديمة في علم الاقتصاد والتي كانت تجعل رأس المال العنصر الاساسي والاهم في عملية التنمية والتقدم الاقتصادي والاجتماعي ، وأصبحت الاتجاهات الاقتصادية الحديثة تضع الانسان المتعلم بحق في موضعه الصحيح باعتباره العنصر الاهم والحاسم لاي نمو أو تقدم .

وقد لوحظ من الدراسات المقارنة التي أجريت على الدول المتقدمة منها والنامية ان نسبة مستوى الدخل القومي تتناسب تناسباً طردياً مع نسبة التعلم .

فالدول التي يزيد فيها الدخل القومي الفردي على ما يعادل ٥٠٠ دولار تبلغ فيها نسبة المتعلمين ٩٠٪ على حين أن الدخل القومي الفردي السنوي في الدول التي تبلغ فيها نسبة المتعلمين فقط ٤٠٪ يعادل ١٣١ دولاراً .

وتشير التجارب ونتائج البحوث والدراسات أيضاً التي أجريت لتقويم تأثير التعليم في

الانتاج الى أن التعليم البسيط الذي حصل عليه العامل في سنة واحدة الى جانب التدريب زاد من انتاجية عمله بنسبة ٣٠٪ في حين لم ترتفع انتاجية ومهارة العامل الامي الذي اكتفى بالتدريب دون التعلم الا بحوالي ١٦٪ .

والذين تعلموا في ٤ سنوات زاد انتاجهم على انتاجية الاميين بنسبة ٣٤٪ . والمتخرجون من الثانوية العامة تزيد انتاجيتهم على انتاجية الاميين بنسبة ١.٨ أما خريجو الجامعات فتزيد انتاجيتهم على انتاجية الاميين بنسبة ٣٠٠٪ من هنا .. بدت الصورة القائمة للتعليم بل مشكلة الامية بضخامتها في الدول النامية التي تزيد نسبتها العامة عن ٧٠٪ من مجموع السكان، كأكبر عائق للتقدم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، وبدا محوها شرطاً من شروط المواطنة الصالحة لاحقاً من حقوق الانسان فحسب ، بل أحد الشروط الاساسية او العوامل الرئيسية للتنمية التي تحقق زيادة في الانتاج ، وتلعب دوراً حاسماً في رفع مستوى الحياة على صعيد المجتمع والافراد مما يساعد على تحقيق انسانية الانسان .

ولكم حاولت الدول النامية أن تقفز الى مصاف الدول المتقدمة ، وكم نادت المؤتمرات الدولية (مؤتمر اديس أبابا عام ١٩٥٦ – مؤتمر جنيف للتجارة والتنمية عام ١٩٦٤) بضرورة زيادة الدخل القومي للدول النامية بمعدل ١٤٪ سنويا بدلا من ٤٪ كما هو عليه الآن حتى يمكن أن تلحق في نهاية الامر بالدول المتقدمة .

لكن لغة الارقام رغم دلالتها ومغزاها لا يمكن ان تغير واقع الدول النامية مهما حسنت النيات ما لم تترجم الى تدابير عملية أهمها القضاء على الامية ، ورفع المستويات المحدودة في التعليم العام والخاص لخلق الانسان الواعي القادر ذي الارادة القادر على التحسين والتطوير في المجتمع . والعلم والمعرفة والخبرة هي منبع الوعي والقدرة والوعي والقدرة هما الدافعان الاساسيان الفعالان للتحسين والتطور في المجتمع .

ويكفي هنا أن نتذكر كيف أطاحت الحرب العالمية الثانية بجزء كبير من البنيان المادي الذي قامت عليه الصناعة في اليابان ، كما اجهزت تلك الحرب بالكامل تقريبا على الاساس الصناعي لالمانيا . الا أن نوعية الانسان في كل من البيئتين (بمساعدات طفيفة نسبيا) أعادت اقامة البنيان في فترة زمنية قصيرة جدا لا تكاد تحسب في عمر الشعوب .

ان الدول النامية تسير على طريق التنمية والتقدم ولكن ببطء شديد نتيجة عدم استثمار

---

(١) مجلة تعليم الجماهير – مايس ١٩٧٧ ص ١٣

مواردها المالية الطبيعية والبشرية استثمارا صالحا في اطار المفهوم الصحيح للتنمية الشاملة في عصر الثورة العلمية التكنولوجية المعاصرة .. ونتيجة معاناتها الكبيرة من الامية ومن التخلف العلمي (١) .

أما الدول المتقدمة فتسير بسرعة متزايدة نتيجة الثورة العلمية والتكنولوجية وتطبيقاتها في مختلف المجالات . اضافة الى وجود القوى المتعلمة والمؤهلة والمدربه على أساس المستويات العلمية والفنية والمهنية في مواقع العمل والانتاج المتنوعة .

من هنا فان الفجوة بين الفريقين ما زالت كبيرة ، وان أمل الدول النامية في اللحاق بالدول المتقدمة (اقتصاديا) يبدو بعيد التحقيق في المستقبل القريب على اقل تقدير (٢) . ولعل بعض الحقائق التالية تلقي المزيد من الاضواء على ذلك .. وعلى اثر محو الامية والعلم والتعليم في مجال الزراعة والصناعة والاقتصاد بشكل عام .

وتبين مجموعة من المؤشرات الخطيرة التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار من قبل المعنيين في مجال التخطيط الاقتصادي والاجتماعي والعلمي والثقافي والسياسي في الدول النامية :

١ ـ « حولت الثورة الصناعية النشاط الاقتصادي في الدول المتقدمة بحيث أصبح يعتمد بالدرجة الاولى على الصناعة ، وتحول العاملون تدريجيا من الزراعة الى الصناعة التي أصبحت تستأثر بغالبية القوى العاملة .

وجاءت الثورة الصناعية الثانية لتدعم هذا الاتجاه في المجتمعات الصناعية ، كما جاءت مكننة وانمة الانتاج لتقلل من نسبة العاملين في قطاعات الانتاج ولتزيد من نسبة العاملين في قطاعات الخدمات .

---

(١) (٢) .. بلغ متوسط دخل الفرد سنة ١٩٦٨ في الولايات المتحدة الامريكية ٣٥٧٨ دولارا وفي كندا ٢٢٤٧ دولارا .. وفي فرنسا سنة ١٩٦٧ (١٧٢٨) دولارا وفي المملكة المتحدة (سنة ١٩٦٧) ـ ١٥٧٠ دولارا . بينما لم يتجاوز في الكونغو ومالاوي ٥٣ دولارا .. وفي مصر ١٥٦ دولارا ، وفي المغرب ١٨٥ دولارا (١٩٦٨) .
وفي سنة ٢٠٠٠ يتوقع أن يصل الانتاج القومي للفرد في افريقيا الى ٢٧٧ دولارا وفي آسيا ٥٧٧ دولارا . وفي أوربا ٥٠٥٥ دولارا وفي أمريكا الشمالية ٦٢٥٥ دولارا .
وفي سنة ٢٠٢٠ يتوقع ان يصل الانتاج القومي للفرد في أفريقيا الى ٤٠٧ دولارا ، وفي آسيا ١٤٣٦ دولارا . وفي أوربا وفي أمريكا الشمالية ١٠٢٨٠ دولارا .
المصدر : مجلة تعليم الجماهير ـ ايلول ١٩٧٧ ص ٦٨.

اما الدول النامية فلا تزال تعتمد في نشاطها الاقتصادي على الزراعة ، وخاصة الزراعة التقليدية غير الحديثة ، بكل ما يحمله هذا الاعتماد من نتائج اقتصادية واجتماعية وسياسية (١) .

٢ ـ فبينما تبلغ نسبة العاملين في قطاع الزراعة في مجموع الدول المتقدمة ١ر٢٩٪ من مجموع العاملين « في بريطانية ٤٪ (عام ١٩٦١) ـ في الولايات المتحدة الامريكية ٨٪ (عام ١٩٦٠) في فرنسا ٣٦٪ (عام ١٩٥٧) ـ في اليابان ٣٣٪ (عام ١٩٦١) .. »

تصل هذه النسبة في مجموعة الدول المنطلقة للنمو ٤ر٧٢٪ « في الهند ٨ر٧٣٪ (عام ١٩٦١) وفي الباكستان ٦ر٧٥٪ (عام ١٩٦١) .. وفي المكسيك ٦ر٥٤٪ (عام ١٩٦٠) وفي مصر ٦ر٥٠٪ (عام ١٩٦٧) .. » .

ومع قلة عدد العاملين في قطاع الزراعة في مجموع الدول المتقدمة فان انتاجية هذه الدول من المواد الزراعية في العالم تبلغ ٤٠٪ من مجمل هذا الانتاج . وهذا يعود الى استخدام المكننة الزراعية الحديثة وتطبيقات الثورة العلمية التكنولوجية المعاصرة في قطاع الزراعة بشكل جاد وفعال ، والى وجود القوى البشرية العاملة المتعلمة والمؤهلة .

ورغم سيادة الانتاج الزراعي واشتغال غالبية القوى العاملة فيه في الدول النامية فان انتاجية هذا القطاع تعتبر ضعيفة وضئيلة جدا ، والسبب في ذلك واضح جدا ، وهو عدم استخدام هذه الدول للتقنيات الحديثة استخداما صحيحا وفعالا (آلات ملائمة ـ بذور مؤهلة ـ اسمدة مناسبة ـ اساليب حديثة للتخزين والتوزيع .. الخ) .

بالاضافة الى سيطرة الامية على العاملين الزراعيين ، وعدم توفر الايدي العاملة المتخصصة المتعلمة ذات الكفاءة العالية القادرة على اتباع الاساليب الحديثة في التخطيط والتنفيذ والمتابعة واستثمار الوقت استثمارا صحيحا . ويلاحظ ان الفلاح او المزارع في معظم الدول النامية لا يعمل اكثر من ٨ ـ ٩ أسابيع في السنة في خدمة محاصيله المتنوعة المتسعة ، ويعتمد اعتمادا كليا على الاساليب والوسائل القديمة حتى اذا استعمل الآلات الحديثة فان مجال استعماله لها يبقى محدودا جدا وضمن مستويات فنية وعلمية محدودة ايضا .

لذا فليس من الغريب ابدا ان نجد اليوم هذه الدول التي كانت مراكز هامة لانتاج المواد

---

(١) ـ (٢) المصدر السابق نفسه .

الزراعية وتصديرها . لا تستطيع أن تنتج ما يكفيها من المواد الغذائية وتضطر الى الاستيراد من الدول المتقدمة ! .

٣ ـ اما القطاع الصناعي في الدول النامية فضعيف من الناحيتين الكمية والنوعية . ومن المؤشرات الدالة على ذلك قلة نسبة العاملين فيه الى مجموع العاملين في القطاعات الاخرى اذ تبلغ هذه النسبة في مجموع الدول المتقدمة ٣٤٫٦٪ وفي مجموع الدول النامية ١١٫٣٪ ـ !! اما من حيث صناعات هذه الدول النامية فهي من فئة الصناعات الخفيفة الاستهلاكية (الغزل والنسيج ـ الصناعات التحويلية ـ الصناعات الغذائية ـ) وهذا ايضا يعود الى انخفاض مستوى التعليم التقني المطلوب تكثيفه لتسيير الصناعات الثقيلة من جهة .. ولعدم توفر رؤوس الاموال الكبيرة) او لعدم توظيفها واستثمارها بشكل فعال وموضوعي في اطار التخطيط العلمي الهادف لتنفيذ المشروعات الصناعية المتكاملة ولايجاد صناعات متطورة حديثة .. اضافة الى ارتفاع نسبة الامية بين افراد القوى العاملة في القطاع الصناعي .

٤ ـ واخيرا فان اقتصاد الدول المتقدمة في ضوء المعطيات والحقائق السابقة سريع النمو وبمعدل يتراوح بين ٨ ـ ١٠٪ سنويا بينما لا يتجاوز في الدول النامية ٤٪ .

كما ان اقتصاد معظم الدول النامية مبني على انتاج مواد استهلاكية ومتواضعة ويتجه بشكل واضح الى الاكتفاء الذاتي في معظم الحالات .

فهي تصدر للدول المتقدمة المواد الخام ـ وهي المصدر الرئيسي للتصدير ـ وباثمان منخفضة جدا ومن ثم تستورد منها المواد المصنعة المتنوعة باثمان غالية .. وغالية جدا ! والمواد المصنعة هذه في الواقع مواد خام ، اضاف اليها الجهد والمهارة الانسانية قيمة جديدة ، وهذا يؤكد مرة اخرى أن العنصر البشري المؤهل المتعلم هو العامل الحاسم بين العوامل الاخرى في تفوق الدول المتقدمة وتخلف الدول النامية .

اثر التعليم على التقدم الاجتماعي

لا جدال في التنمية ليست مجزاة (كما كانت في السابق) الى تنمية اقتصادية وتنمية اجتماعية علمية تكنولوجية..انما هي كل شامل وموحد ومتكامل.وهي ايضا الى جانب كونها وسائل مادية وتكنولوجية ، موضوع انساني في الدرجة الاولى ، ذلك ان الانسان هو غايتها ووسيلتها ، وهو الذي يشكل قوتها وضعفها على السواء . فبقدر ما يكون

لقد اثبتت مجموعة من الدراسات والبحوث العلمية .. ان الفرد المتعلم الذي يعيش في مجتمع متقدم لا اثر فيه للامية نهائيا ، يصل اليه قدر من المعلومات تزيد مائة مرة عن الشخص الذي يعيش في مجتمع آخذ بالنمو وتتجاوز فيه نسبة الامية الـ ٥٠٪ .. وفي الوقت نفسه يكون الفرد المتعلم اكثر تفاعلا من الامي مع برامج التنمية والتطور والتقدم . وان دل هذا على شيء . فانما يدل على ان هناك ارتباطا قويا بين التعليم من ناحيـة وبين دخل الفرد ومستوى معيشته ووعيه السياسي ومدى تحمله للمسؤولية من جهة اخرى ، اضافة الى تقبله الحسن للمعلومات والتغيرات الاجتماعية والانتاجية . وقد تبين ان الوظائف والاعمال ذات المهارة والتخصص في اي مجتمع يجب ان يشغلها ذوو التعليم الجامعي والعالي . ومع تسلسل المراكز والمواقع من العليا الى الدنيا يقترن المستوى العلمي باهمية ومسؤولية طبيعة العمل في المؤسسات والدوائر الرسمية وغير الرسمية .

كما ان طابع المجتمع الحديث ـ وعلى وجه التحديد المدن والمؤسسات الاجتماعية والمهنية المتنوعة كالاسرة والمدرسة والنقابة والمنظمة والدوائر كافة ـ قد اصبح في عصر العلم والتقدم التكنولوجي الحالي يعتمد اعتمادا كبيرا على الخبرات والمهارات العلمية والتعليمية والمهنية ، وعلى الوسائل والاساليب والتطبيقات الفنية المتطورة ، وعلى الرموز المكتوبة ايضا سواء اكانت كلمات ام ارقاما . ويتجلى هذا في اسماء الشوارع وارقام البيوت ووسائل المواصلات العامة والسلكية واللاسلكية ، وفي المعدات والادوات الكهربائية والالكترونية داخل مواقع العمل والانتاج وفي المطبوعات والتجهيزات الكثيرة التي تستخدمها معظم الجهات في اداء وظائفها واهدافها المباشرة وغير المباشرة .

كما يتجلى ـ وهو الاهم ـ في العلاقات والتغيرات والاهداف الاجتماعية والتعليمية التي طرات على نطاق الفرد والمدرسة والاسرة والمجتمع .

ولعله من المفيد عقد المقارنة التالية :

لا شك ان الاسرة هي اللبنة الاولى في بناء المجتمع . ومن البديهي ان المدرسة لم تعد هي الجهة الاساسية المسؤولة عن التنشيء الجديد ، وانما اصبحت البيئة المنزلية (الاسرة) بامكاناتها المادية وباوضاعها الفكرية والثقافية والاجتماعية تلعب دورا حاسما وكبيرا في تربية وتحصين وتكوين الاطفال ، كما تؤثر سلبا او ايجابا في تنمية قدراتهم الفكرية والبدنية وغرس القيم والمثل العليا في نفوسهم ، مما يؤثر اكبر الاثر في سلوكهم وتصرفاتهم ، ويسهم في وضعهم الاجتماعي مستقبلا .

وتدل الملاحظات اليومية والدراسات الميدانية على ان البيئة المنزلية الواعية فكريا وعلميا والمتقدمة اجتماعيا لا يوجد فيها ادنى اثر لمعتقد قديم معوق لنمو الاطفال الفكري ، كما انها تمتلك القدرة على التواصل مع روح العصر ومواكبة التطور العلمي والتكنولوجي على جميع الاصعدة .

اما البيئة المنزلية غير المتعلمة والمتخلفة اجتماعيا فتفتقر الى القدرات والامكانات والوسائل المطلوبة في عصر الانفجار العلمي والمعرفي ، ويشيع فيها كثير من الخرافات والاعراف التي لا تتفق مع ما تحاول المدارس والمعاهد على اختلاف مستوياتها تاصيله في افكار التلاميذ ونفوسهم .

ومن هنا يقع الاطفال في اضطراب فكري ونفسي وتربوي بين ما يشاهدون ويسمعون في نطاق الاسرة ، وبين ماتحاول المدارس والمعاهد تزويدهم من طرق للتفكير والعمل وتفسير الاشياء والظواهر . ومن ثم ينعكس كل هذا وذاك على مستوى وامكانات الاسرة من جهة وعلى المدارس والمعاهد والمجتمع من جهة اخرى .

ازاء كل هذه الحقائق وبخاصة حقيقة اثر التعليم في التقدم الحضاري ركزت المجتمعات المتقدمة – ولا تزال – جهودها على الارتقاء بالمستوى التعليمي للسكان الى مستواه الافضل ، وعلى ان يكون التعليم العالي للمجتمع الحد الادنى الضروري تمشيا مع منطلقات الثورة العلمية وتطبيقاتها ومنعكساتها .

ونتيجة لهذه الجهود ، فقد برزت في هذه المجتمعات على مدار الاعوام السابقة مجموعة من الآثار الاجتماعية الكبيرة التي يمكن تحديدها في النقاط التالية :

١ – تغير في طبيعة العمل ، وفي طبيعة عملية الانتاج وبالتالي في مكانة ووظيفة الانسان داخل المواقع والمؤسسات الاجتماعية والانتاجية وخارجها .

٢ – تداخل او امتزاج المهن ووظائف العمل بحيث اصبح يطلب من الفرد اتقان اكثر من مهنة واحدة تمشيا مع روح العصر التي تتطلب حشد المهارات والخبرات والامكانات بمختلف انواعها في مواقع العمل كافة .

٣ – ارتفاع المستوى العلمي والفني للقوى البشرية العاملة ، والارتقاء بالتعليم على اختلاف مستوياته وفئاته .

٤ ـ التغيير في البناء والتركيب الاجتماعي ، وانهاء معظم المشكلات الاجتماعية لافراد المجتمع داخل مواقع العمل وخارجها ومنها المشكلات الشخصية الناجمة عن الجهل ، وعدم القدرة على تحمل المسؤولية وتقدير المواقف وسوء التكيف والتعامل مع الآخرين وعدم القدرة على موازنة الدخل بالمصروفات ، وايضا عدم الاهتمام بالتعليم وبخاصة تعليم الابناء .

اما بالنسبة الى المجتمعات النامية فان الامر مختلف الى درجة كبيرة وخطيرة ، فرغم ايمانها بان القوى البشرية المؤهلة والمتعلمة تشكل العنصر الاساسي في نجاح خطط وبرامج التعليم الشاملة ، فان هذه المجتمعات لا تزال تغفل هذا العنصر الاساسي ، وتغفل أيضا الارتقاء والسمو بالتعليم ومناهجه وطرقه واساليبه ، والقضاء نهائيا على الامية المعوقة لكل عمليات التغيير الحضاري .

وكما هو معروف فان نسبة الامية بين افراد القوى البشرية الفاعلة في برامج التنمية في الدول النامية عالية جدا . وحيثما تكون نسبة الامية عالية في اي موقع من مواقع الانشطة عامة ، يكون سلوك الافراد مرتبطا بالتقاليد والاعراف القديمة ، وتكون آفاق تفكيرهم ـ غالبا ـ محدودة في اطار الجماعات التي ينتمون اليها ، وبالتالي يكون التطور والتقدم بطيئا مما يؤدي الى مقاومة التغيير والحفاظ على تصاعد المشكلات الاجتماعية والانتاجية الخطيرة بدءا من الفرد ومرورا بالجماعة او الاسرة او المؤسسة وانتهاء بالمجتمع .. خاصة وان برامج التنمية واهدافها وطموحاتها تتضمن احداث تغييرات ايجابية فعالة ليس في نطاق العمل فحسب بل في مضمون الحياة الاسرية والاجتماعية والاقتصادية ، لذا لا يمكن بحال من الاحوال الارتقاء والتقدم والسمو في العلاقات والتغيرات الاجتماعية وفي المؤسسات الاجتماعية والانتاجية المتنوعة المنتشرة في ساحة المجتمعات النامية الا بالقضاء على الامية وكل قرائنها البائسة .

ومن البحوث الميدانية الشاملة التي تؤكد هذه الحقيقة ، ذلك البحث الذي قام به المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي بسرس الليان في جمهورية مصر العربية منذ عام ١٩٦٩ الى عام ١٩٧١ ودار حول اهمية محو الامية وآثره في تقدم المجتمع .

اما العاملون في الصناعة فقد كانوا موزعين كالتالي : ٩١ اميا و ٨٣ متعلما و ١٩٠ مشرفا صناعيا .

وفيما يلي أهم نتائج البحث :

اولا ـ فيما يتعلق بالاثار الاجتماعية والاقتصادية للامية .

يعرض الجدول رقم ـ ١ ـ اهم مشكلات الانتاج الناجمة عن الامية كما ذكرتها فئات البحث .

الجدول رقم ١

اهم مشكلات الانتاج الناجمة عن الامية

مشكلات الانتاج	الانتاج الزراعي			الانتاج الصناعي	
	عدد الاستجابات في فئة :			عدد الاستجابات في فئة :	
	الاميين	المتعلمين	المشرفين	المتعلمين	المشرفين
لايوجد في العمل مايحتاج الى القراءة والكتابة .	-	-	-	١٠	٣٥
عدم القدرة على الامضاء ومباشرة الاعمال التي تحتاج الى مهارات الاتصال .	٣١	-	-	-	-
الرغبة في ترك الفلاحة .	٢٤	-	-	-	-
عدم القدرة على اتباع تعليمات وارشادات الانتاج .	٢٠	٩٢	١٠٩	٦٥	١٣١
صعوبة التعامل مع الاخرين .	-	٩	١٦	١	-
عدم القدرة على تحمل المسؤولية وتقدير العواقب .	-	-	٥	-	١١
مزيج من كل او بعض ماتقدم	١٩	-	-	-	-
المجموع	٩٤	١٠١	١٣٠	٧٦	١٧٧

ويتضح من الجدول السابق ان اهم المشكلات التي يواجهها الفلاحون والعمال في اثناء مباشرة عملهم الزراعي او الصناعي هي :

أ ـ عدم القدرة على الامضاء او مباشرة الاعمال التي يتطلب اداؤها المام الشخص بمهارات الاتصال (القراءة والكتابة والحساب) .

ب ـ عدم القدرة على فهم وتنفيذ التعليمات والارشادات المتعلقة بالانتاج ، بالاضافة الى صعوبة التعامل مع الاخرين .

د ـ عدم القدرة على تحمل المسؤولية او تقدير العواقب .

ثانيا ـ فيما يتعلق باهم مشكلات الاميين من العمال والفلاحين خارج عملهم وآثار الامية على بعض جوانب السلوك اليومي .

يبين الجدول التالي رقم ٢ توزيع اجابات الفئات في القطاعين على انواع المشكلات في المجالات المختلفة خارج العمل .

الجدول رقم ٢

«استجابات المتعلمين من الفلاحين والعمال والمشرفين الزراعيين والصناعيين حول أهم مشكلات الاميين من العمال والفلاحين خارج مجال عملهم (١) .

مشكلات الاميين خارج مجال عملهم .	المتعلمــون من :ــ				المشرفون في : ــ			
	الفلاحين		العمال		الزراعــة		الصناعة	
	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪
مشكلات شخصية بسبب الجهل .	٦١	٦١ر٦	٣٣	٤٢ر٣	٤٠	٣١ر٧	٤٧	٢٨ر١
سوء التكيف + صعوبة التعامل مع الاخرين .	١٠	١٠ر١	٦	٧ر٧	٤٠	٣١ر٧	٣٨	٢٢ر٨
عدم القدرة على موازنة دخله بمصروفاته(٢)	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
عدم الاهتمام بتعليم الاولاد	١٤	١٤ر١	٥	٦ر٤	١١	٨ر٧	٤٢	٢٥ر١
مزيج من كل او بعض ما تقدم	١٤	١٤ر١	٣٤	٤٣ر٦	٣٥	٢٧ر٨	٤٠	٢٤ر٠
المجموع	٩٩	٩٩ر٩	٧٨	١٠٠ر٠	١٢٦	٩٩ر٩	١٦٧	١٠٠ر٠

(١) لم يجب عن هذا السؤال ٤ فلاحين و ٥ عمال و ٧ مشرفين زراعيين و ٢٢ مشرفا صناعيا.

(٢) ضمت مشكلة « عدم القدرة على موازنة الدخل » الى مشكلة « عدم الاهتمام بتعليم الاولاد » لان التكرارات المعبرة عن المشكلة الثانية كانت ضئيلة للغاية اذ بلغت فلاحا واحدا وعاملا واحدا و ٣ مشرفين زراعين و ١٠ مشرفين صناعيين .

ويتضح من الجدول السابق ان اهم مشكلات الاميين من العمال والفلاحين والتي تصادفهم خارج عملهم هي :

آ ـ المشكلات الشخصية الناشئة عن جهلهم ، أي بسبب عدم معرفتهم للقراءة والكتابة والحساب وعدم المامهم بالحد الادنى من الثقافة الاجتماعية الايجابية والثقافة العامة ، وهذه تمثل المكانة الاولى في اجابات كل شرائح البحث زراعية ام صناعية .

ب ـ مشكلات سوء التكيف وصعوبة التعامل مع الآخرين .

جـ ـ عدم القدرة على موازنة الدخل بالمصروفات وعدم الاهتمام بتعليم الاولاد .

كما يلاحظ ان اجابات بعض المستجوبين تجمع بين اكثر من مشكلة من المشكلات السابقة الناجمة عن الامية وقد وضعت هذه الاجابات تحت عنوان « مزيج من كل أو بعض ما تقدم ».

في ضوء كل ما تقدم ، يتبين بكل وضوح ان الامية بالنسبة الى الدول النامية ومنها الاقطار العربية ، ليست الجهل بالقراءة والكتابة والعمليات الحسابية الاربع والثقافة العامة المحدودة فحسب ، بل هي ايضا بعدم اهتمام هذه الدول المتطلعة للنمو اهتماما موضوعيا وجادا بالعلم والتعليم والتكنولوجيا ، والنظر الى التنمية العلمية التكنولوجية نظرة هامشية تقليدية دون اعطائها الاولوية اللازمة في خطط التنمية القومية الشاملة .

وهكذا نرى الامية ـ كما ذكرت سابقا ـ سرطانا متغلغلا في كل مرافق الحياة متحديا بعنفه انجازات الحضارة وركب التقدم ، شاهرا أسلحته الفتاكة ، يوزعها فقرا وجهلا ومرضا وتخلفا ، مسهما في اتساع الهوة القائمة بين الدول المتقدمة والدول النامية .

لذا ، لا يمكن باي حال سد هذه الهوة بالركون الى الاساليب السائدة حاليا وبالحفاظ على السوية العلمية والتعليمية القائمة وبالقضاء على الامية الابجدية فقط لايصال الاميين الى الحدود الدنيا من المهارات والمعلومات والمعارف البسيطة في مواد القراءة والكتابة والحساب والثقافة العامة والمهنية ، خاصة بعد أن تمكنت الدول المتقدمة ـ منذ سنوات طويلة ـ من هدم الجدار العالي الذي كان يفصل التعليم عن الحياة ، ويحافظ على اهداف التعليم التقليدي . وبعد ان استطاعت ايضا الدول المتقدمة ان تحل محل ذلك الجدار ، التربية المستمرة والتعليم المستمر مدى الحياة وتنوع المدارس التقليدية الرسمية واستخدام سلسلة كاملة من التجهيزات والمعدات التقنية من آلات التعليم القادرة على ارتجاع المعلومات الملقمة بالاضافة الى المختبرات اللغوية والالكترونية .. الخ .

ولابد من ان تهتم الدول النامية ومنها الاقطار العربية بالتالي :

١ ـ رغم ان تطبيق الثورة العلمية التكنولوجية يتسم بالتصنيع والتعليم ، فينبغي الا يقتصر ذلك بالنسبة الى الدول النامية على انتشار مصانع او مؤسسات حديثة او مكننة عمليات الانتاج واعداد الكادرات اللازمة لتشغيلها او تحديث الزراعة ورفع مستوى قطاعات محدودة « عمليا وتعليميا » فقط .

وانما ينبغي ان تكون اوسع واعمق من هذا كله بحيث تعمل على رفع المستوى العلمي التكنولوجي لمجموع قوى الشعب ، ولتكوين الانسان العصري القادر على موازنة عملية التفاعل ما بين العلم والعمل ، ثم ان تفيد الى اقصى حد ممكن من جهود وعقول ابنائها وان تحميهم وتحمي نفسها من نزيف هجرة العقول المستمرة .

وهذا يتطلب اعادة النظر في التربية والتعليم القائم (المناهج والخطط والوسائل والاساليب) ومن ثم الارتقاء بذلك تمشيا مع سرعة نمو المعرفة العلمية والتعليمية والوسائل التقنية المعاصرة والمستقبلية . والنظر ايضا الى التنمية نظرة شمولية متكاملة مع اعطاء اهمية خاصة واولوية للتنمية العلمية التكنولوجية في خطط التنمية العامة الشاملة .

٢ ـ كسر وتحطيم اهم القيود من قيود التخلف وهو الامية وذلك من خلال النظرة الحضارية الموضوعية لهذا القيد والقائلة ان مشكلة الامية وتعليم الكبار في الدول النامية هي مشكلة متكاملة الابعاد ، مشكلة موضوعية وتاريخية واجتماعية واقتصادية وتربوية وتعليمية وسياسية .

وينبغي ان تواجه مواجهة شاملة وحاسمة ، وعلى اساس عريض من المساهمة الشعبية في فترة زمنية محددة ، ووفق اسس وقواعد وبرامج علمية موضوعية للاقتراب بسرعة اكثر الى مصاف الدول المتقدمة .

الميثاق العالمي لحقوق الانسان والعنصرية الصهيونية

د . عبد المنعم زنابيلي

ادانت لجنة حقوق الانسان التابعة لهيئة الامم المتحدة الكيان الصهيوني ، واصدرت القرارين التاليين :

١ ـ مطالبة الكيان الصهيوني بالتوقف عن اقامة المستوطنات في الاراضي العربية المحتلة وبوضع حد لتعذيب العرب ومصادرة ممتلكاتهم وانتهاك حقوقهم الانسانية .

٢ ـ ضرورة الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره واستعادة جميع حقوقه وذلك وفقا لشرعة الامم المتحدة .

يحتفل العالم باسره في اواخر كل عام بذكرى الميثاق العالمي لحقوق الانسان الذي وافقت عليه الجمعية العامة للامم المتحدة بتاريخ العاشر من شهر كانون الاول لعام ١٩٤٨ .

ونحن نعتقد انه من واجبنا في هذا الظرف بالذات ، حيث تتطلع شعوب العالم الى اقامة السلام العادل والدائم في منطقة الشرق الاوسط بعيون حذرة ، ان نسلط الاضواء على عامل هام يحول دون تحقيق مثل هذا السلام ، الا وهو العنصرية الصهيونية التي لم تتقطع عن انتهاك ابسط المبادىء التي ينص عليها الميثاق .

وتجدر الملاحظة الى أن الصهيونية العالمية لم ولن تتراجع عن اطماعها في اقامة امبراطوريتها العظمى وان السلام الذي تنشده ما هو الا مرحلة من مراحل التقاط الانفاس لكي تعاود مسيرتها العدوانية وتؤكد مجددا على أنها عقيدة استعمارية عنصرية معادية للانسان وحقوقه.

ولضرورة البحث رأينا معالجة الموضوع على النحو التالي :

اولا ـ لمحة عن الميثاق العالمي لحقوق الانسان .

ثانيا ـ العنصرية والمرتكزات العنصرية للصهيونية .

ثالثا ـ الادعاءات العنصرية للصهيونية منذ نشأتها ولغاية عام ١٩٤٨ .

رابعا ـ الكيان الصهيوني وانتهاكاته لحقوق الانسان .

اولا ـ لمحة عن الميثاق العالمي لحقوق الانسان :

بعد انتهاء الحرب الكونية الثانية ونتيجة للشعور المتزايد لدى جميع شعوب العالم بان البشرية يجب ان تتخلص من قيود العبودية التي يفرضها الواقع المؤلم للانسان في مختلف بقاع العالم ، وضعت لجنة خاصة ، بتكليف من المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع لهيئة الامم المتحدة ، مشروع الميثاق الذي يحدد بشكل جلي حقوق الانسان في عصرنا الحاضر .

ويلاحظ ان الميثاق العالمي لحقوق الانسان يتألف من مقدمة ومن ثلاثين مادة تبين بشكل واضح وثابت الحقوق/والحريات التي تضمن للانسان انسانيته وتصون كرامته والتي يجب ان يتمتع بها كل فرد دون التعرض الى اي ضغط مهما كان مصدره ، ودون اي تمييز سواء من ناحية اللون او العرق او اللغة او الدين أو الجنس أو الاصل الاجتماعي او الميلاد او الرأي السياسي او الثروة .

ووفقا لذلك يجب ان يتمتع الانسان بحقه في الحرية ، وتتضمن حرية الرأي والعبادة والتفكير والتعبير ، وبحقه في الحياة الامان والضمان الاجتماعي والبراءة الى ان تثبت ادانته ، وبحقه في العمل والراحة والثقافة وفي العودة الى بلده وبحقه في ان يكون في منأى عن التعذيب والمعاملة القاسية والتوقيف التعسفي .

وهكذا فان الميثاق الذي يتضمن حقوقا مدنية وسياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية يعتبر المصدر الاعلى الذي يجب أن تستند اليه جميع القرارات والاتفاقيات الدولية والاقليمية المتعلقة بحقوق الانسان ، ويتميز عن غيره من الوثائق انه اهتم بحقوق الانسان الاقتصادية الى جانب حقوقه السياسية بالاضافة الى ذلك أكد الميثاق على أن احكامه يجب الا تعطي الحق لاية دولة او مجموعة او فرد في القيام باجراء او عمل يؤدي الى انتهاك الحقوق والحريات التي نص عليها .

مما لا شك فيه ان الميثاق العالمي لحقوق الانسان قد صدر في اعقاب الحرب العالمية الثانية لإدانة الاعمال الهمجية التي سادت العالم خلال الحرب ولتحذير الدول والشعوب من مغبة الانزلاق ثانية في مثل هذه الاعمال . ومما لا شك فيه ايضا ان المحاكمات الشهيرة التي جرت في مدينة نورمبورغ عام ١٩٤٦ قد ادانت الذين اعتبرتهم قد ارتكبوا اعمالا اجرامية بحق الانسان ، فما هي الاسباب التي تمنع من محاكمة الزعماء الصهيونيين العنصريين الذين سبقوا غيرهم في ارتكاب الجرائم ضد العرب في فلسطين والاراضي المحتلة ؟

واذا كانت العنصرية تتعارض مع المبادىء التي نص عليها الميثاق العالمي لحقوق الانسان فما هو مفهومها وما هي المرتكزات العنصرية للصهيونية ؟

ثانيا ـ العنصرية والمرتكزات العنصرية للصهيونية :

من الواضح جيدا ان الباحثين ، على مختلف مشاربهم ، لم يتوصلوا الى تحديد تعريف علمي لمفهوم العنصرية ، وهو امر طبيعي لان هذا المفهوم لا يرتكز الى أسس علمية بحتة . ومن الواضح ايضا ان التمييز العنصري ليس الا سلوكا عاما تستخدمه بعض الفئات لتبرير مواقفها اللاانسانية مستخدمة في ذلك التباينات البيولوجية والسيكولوجية والثقافية . وذلك يعني ان التمييز العنصري هو عبارة عن تقييم لهذه العناصر التي يعتقد البعض انه يتمتع بها دون غيره . وهو مفهوم يستخدمه المعتدي لتبرير موقفه العدائي ضد ضحيته .

وقد حاول بعض انصار العنصرية امثال بوفون / ٨٨ ـ ١٧٠٧ / ولينيه / ٧٨ ـ ١٧٠٧ / وغوبيو / ٨٢ ـ ١٨١٦ / الاعتماد على المقارنة بين الاجسام البشرية ، وبشكل خاص على تباين تركيب الدماغ البشري للتأكيد على ان بعض الاجناس البشرية تتميز عن غيرها بالتفوق المطلق . وذلك مما دعا الطبقات الحاكمة في اوربا في نهاية القرن التاسع عشر الى الاعتقاد ان البشرية تنقسم الى اجناس متفوقة واخرى غير متفوقة .

وقد انتشر هذا المفهوم في مختلف البلاد الاوربية كالمانيا وفرنسا وانكلترا وتبنته احزاب سياسية مختلفة كالنازية في المانيا والفاشية في ايطاليا . ويلاحظ ان جميع النظريات العنصرية قد اتفقت على نظرية تفوق العرق النقي لتبرر تصرفات مجموعة بشرية معينة ضد المجموعات الاخرى ولتؤكد على حقها في استخدام جميع الوسائل الممكنة ، بما فيها العنف والإبادة ، لخدمة مصالحها .

ومن الواضح ايضا ان هذه النظرية لا تعتمد على اسس علمية بحتة وانما تعتمد على عوامل حب الذات والسيطرة والمنفعة . ومن الجدير بالذكر :

١ ـ ان العرق النقي ليس له اي وجود فعلي .

٢ ـ ان الربط بين نقاء العرق والتفوق ما هو الا مجرد وهم وخيال تنسجه بعض المجموعات البشرية لتؤكد سيطرتها .

٣ ـ ان التفاوت بين المجموعات العرقية أو بين الشعوب والامم ، في حيال وجوده ، لا يبرر شرعية السلوك السياسي الذي يعتمد في تصرفاته على العناصر العرقية والثقافية .

٤ ـ ان تحيز وشهوة العنصريين وضراوتهم ، بالاضافة الى تناقضاتهم ، تؤكد على ان مفهوم العنصرية لا يعتمد على المنطق وانما على الانفعال والمنفعة .

٥ ـ ان مفهوم العنصرية مملوء بالتناقضات ، فهو يعتمد تارة على تركيب الدماغ ، وتارة على عناصر بسيكولوجية وتارة اخرى على قسمات الوجه ، وينتقل في حكمه من الخاص الى العام حينا ومن العام الى الخاص حينا اخر حسب ما تقتضيه المصلحة .

٦ ـ ان السلوك العنصري يعتمد على عاملين متكاملين هما التأكيد على النفس وازدراء الاخرين ، وذلك يؤدي حتما الى الحقد من كرامتهم وحرمانهم من العدالة . كما ان السلوك العنصري الذي يعتمد على المنفعة وحب السيطرة سوف يؤدي الى العدوان واستخدام القوة .

٧ ـ وهكذا نلاحظ أن العنصرية كانت الفلسفة التي استخدمت لتبرير تجارة الرقيق والاستعمار الاستيطاني في القارتين الاميركية والافريقية ولتبرير المواقف المختلفة للرأسمالية العالمية ، وخاصة ما يتعلق منها بالحصول على اليد العاملة الرخيصة .

٨ ـ ومن المضحكات المبكيات أن الصهيونية العالمية اعتمدت في فلسفتها العنصرية على عدد من العوامل كالتفوق العرقي والعنصر البيولوجي وفكرة الشعب المختار ، هذه العوامل التي استخدمتها النازية للاحقة اليهود .

الا ان مبتدعي الصهيونية هم على مستوى عال من الذكاء والدهاء لانهم توصلوا خلال حقبة قصيرة من الزمن الى كسب العطف العالمي لمرتكزاتهم العنصرية وتمكنوا من تطويرها

على مر الزمن وفقاً لمصلحتهم واهدافهم الهدامة ، دون اثارة الرأي العام العالمي ضدهم فما هي هذه المرتكزات ؟ هذه المرتكزات هي :

١ - الوعد الإلهي للشعب اليهودي باحتلال فلسطين وتشريد سكانها .

٢ - الشعب المختار الذي اصطفاه الله وميزه عن بقية الشعوب لإقامة دولة تمهد له السيطرة على العالم باكمله . وتعتمد هذه الفكرة على وعد إلهي من جهة ، وعلى الميزات العديدة التي يتمتع بها الفرد اليهودي كصفاء العرق والدين والتفوق المادي والمعنوي من جهة اخرى .

٣ - فكرة اللاسامية ، اي معاداة اليهود ، وهي سلاح ذو حدين يساعد الصهيونية على توحيد اليهود وراءها لخدمة اغراضها من جهة وعلى كسب العطف العالمي وتاييده لاهدافها من جهة اخرى .

٤ - فكرة القومية اليهودية ، وهي قومية لا تستند الى اي اساس علمي ، ولكنها تمهد لليهودي الحصول على قوميتين مختلفتين - اسرائيلية وغير اسرائيلية - وتؤدي في النهاية الى خدمة الكيان الصهيوني من قبل الرعايا اليهود المنتشرين في جميع بلاد العالم ، ولو كان ذلك يتعارض مع مصالح هذه البلاد .

٥ - جعل اللغة العبرية رسمية ضمن الكيان الصهيوني ووسيلة للتخاطب بين يهود العالم.

٦ - تنظيم اليهودية على الصعيد العالمي وإقامة منظمات دولية ومحلية لخدمة اغراض الصهيونية وإحكام قبضتها على المقدرات العالمية .

٧ - اقامة كيان صهيوني في فلسطين وانشاء دولة عظمى تمهد للصهيونية استعمار منطقة الشرق الاوسط باكملها واستغلال ثرواتها وربط مصيرها بمصير الاستعمار العالمي .

٨ - إزالة جميع الحواجز التي تقف في وجه هذا الكيان ولو ادى ذلك الى التخريب والإبادة الجماعية .

واستنادا الى هذه المنطلقات كيف تمكنت الصهيونية العنصرية من تحقيق اطماعها خلال السنوات الاخيرة وما هي الخطوات والشعارات التي طرحتها للوصول الى اهدافها قبل قيام الكيان العنصري الدخيل وبعده ؟ وما هي الادعاءات العنصرية التي لجأت اليها وما هو مدى تعارضها مع الميثاق العالمي لحقوق الانسان ؟

ثالثا ـ الادعاءات العنصرية للصهيونية منذ نشأتها ولغاية عام ١٩٤٨ :

كلمة « الصهيونية » مشتقة من لفظة صهيون ، وهي رابية في مدينة القدس ، ومن المؤكد أن هذه اللفظة كنعانية وليست عبرية . وتسمية « الصهيونية » اطلقت في الماضي على منظمة ارهابية اسسها يهود روسيا وانتمى اليها عدد كبير من البارزين منهم . وما لبثت هذه المنظمة ان اصبحت هيئة سياسية استعمارية اتخذت من اضطهاد اليهود في اوربا ذريعة لها وحجة تبرر بها اهدافها واطماعها في اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين معتمدة في ذلك على مغالطات دينية وتاريخية لتثبيت حق اليهود في احتلالها . وقد انبثقت نتيجة المساعي الدولية المبذولة المنظمة الصهيونية العالمية في أواخر القرن الثالث . ففي شهر آب من عام ١٨٩٧ عقد اول مؤتمر صهيوني في مدينة بال ـ سويسرا ـ حضره ما يقارب ثلاثمائة يهودي وادى في النهاية الى انتخاب تيودور هرتزل رئيسا له والى اعتماد عدد من الاهداف الاستعمارية العنصرية .

وقد حاولت الصهيونية منذ نشأتها ودون أي تردد ربط مصيرها بالدول الاستعمارية على مختلف مشاربها وعرضت خدماتها دون استثناء عليها وخاصة خلال الحرب الكونية الاولى . واخيرا قررت بريطانيا احتضان الصهيونية ولبنى مشروعها الاستعماري في اقامة وطن قومي صهيوني في فلسطين .

ولتحقيق اهداف الاستعمار ، الذي كان يعمل على تجزئة الوطن العربي من جهة ، وعلى فصل الجزء الافريقي عن الجزء الاسيوي ، عن طريق اقامة حاجز بشري قوي وقريب من جهة اخرى ، تم تنفيذ وعد بلفور واقامة المخططات السياسية وتقسيم المنطقة الى اجزاء متعددة ومنع اية محاولة ترمي الى تحقيق الوحدة بينها .

وقد جرت قبل ذلك عدة محاولات لاعطاء وطن قومي لليهود في اوغندة والموزامبيق والكونغو وتشاد الا ان الصهيونية العالمية كانت دائما تصر على فلسطين لتحقيق اغراضها الاستعمارية . وتلاحقت الاحداث منذ فتح الباب على مصراعيه للهجرة اليهودية بعد احتلال الحلفاء لفلسطين ، واصبح وعد بلفور بعد قبوله في مؤتمر سان ريمو لعام ١٩٢٠ الهدف الاول للسياسة البريطانية ، وخاصة منذ ان اقر مجلس عصبة الامم بتاريخ ٢٤ تموز من عام ١٩٢٢ انتداب بريطانيا على فلسطين . وارتفع عدد اليهود فيها من / ٤٠ / الفا الى / ٥٥ / الف عام ١٩١٩ والى / ١٠٨ / آلاف عام ١٩٢٥ والى / ٣٠٠ / الف

عام ١٩٣٥ والى / ٦٥٠ / الف عام ١٩٤٨ . واصبحت الفرقة اليهودية التي قاتلت الى جانب الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية نواة جيش الكيان الصهيوني الذي طرد خلال أقل من عام واحد حوالي مليون عربي من وطنه معتمدا في ذلك على الاسلحة البريطانية من جهة وعلى الادعاءات الكاذبة من جهـة أخرى .

وفي اثناء ذلك كانت الصهيونية العالمية قد نقلت مركزها من بريطانيا الى الولايات المتحدة الامريكيـة وقامت باتصالات عديدة مع اعضاء الحزبين الرئيسيين فيهـا ، الجمهوري والديموقراطي ، وباتحادات نقابات العمال وعملت على السيطرة على قنوات الدعاية كالصحف والمجلات والاذاعات ولم « يات عام ١٩٤٤ حتى كانت برلمانات ٣٣ ولاية قد أصدرت توصيات تؤيد فيها مطالب الصهيونية التي تحولت نشاطاتها فيما بعد الى كسب تاييد الكونغرس الامريكي لها » .

ومن جهة أخرى ، كانت الصهيونية العالمية تعمل على وضع خططها في فلسطين وعلى تحريض اليهود العرب في مختلف الاقطار العربية ، وفي ذلك قال ألفرد ليلينتال : « لقد نجم عن زخم الصهيونية أن دمرت علاقات التعايش السلمي التي كان اليهود يتمتعون بها بين إخوانهم العرب منذ ألف سنة ، اذ تمكنت الوكالات اليهودية عن طريق إثارة الخوف من الاضطهاد وغيرها من اسلحة الدعاية ، أن تسحب / ٦٥٠ / الف يهودي من العراق واليمن وسورية ومصر وتونس والجزائر ومراكش » وقد اغري هؤلاء اليهود الشرقيون بالمجيء الى فلسطين ليعمروا الاراضي التي تركها العرب خالية وذلك كما قال موشيه سينوهن : « اذن لا تكون هجرتهم قد تمت في الدرجة الاولى بقصد انقاذهم وانما لمواجهة متطلبات اسرائيل من مال وأيد عاملة وقوى عسكرية » .

ومن جهة ثالثة ، كانت الصهيونية تعمل على الدعوة الى قومية يهودية مخالفة في ذلك المقومات الجوهرية للقومية وهي اللغة الواحدة والثقافة الواحدة والوطن الواحد ، علما بأن الدين هو عقيدة يعتنقها الفرد أو المجتمع دون اشتراط التكلم بلغة واحـدة والانتماء الى ثقافة واحدة أو عرق أو وطن واحد . الا أن الصهيونية اصرت على ان تخلق من الدين اليهودي قومية ، علما بأن اليهود المنتشرين في مختلف أرجاء العالم لا يكونون عنصرا واحدا او شعبا واحدا وانما ينتمون الى قوميات متعددة ، وان تجعل من اضطهاد اليهود قومية يهودية عن طريق ربط يهود العالم بعجلة المصير الواحد والولاء للكيان الصهيوني .

ومن جهة رابعة كانت الصهيونية تستغل فكرة المعاداة للسامية التي تنطوي على كثير من التناقضات لفرض مغالطاتها على العالم ، خاصة وانها تستدر عطف الشعوب مـن جهـة وتكرس العزلة والعدوانية اليهودية في المجتمعات الاخرى من جهة ثانية . وقد أدت هذه العدوانية الى توحد اليهود داخل العديد من المجتمعات لممارسة التخريب فيها والى استمرار دعمهم للكيان الصهيوني المنشود لان العداء لا يمكن له ان يستمر الا عن طريق اثارة الخوف والتهديد بالحرب .

ان القيادات الصهيونية كانت وما زالت تحاول صهر يهود العالم من مختلف القوميات والاجناس في قومية يهودية مستندة في ذلك على الدين واللغة . ولذلك فقد عمدت الى إقامة المعسكرات التثقيفية لتعليم اليهود اللغة العبرية وتلقينهم المبادىء الصهيونية الهدامة . وهكذا يتضح أن اليهودية عقيدة دينية بحتة وهي ، على عكس الصهيونية التي تمثل حركة عنصرية استعمارية متطرفة ، تدعي القومية وتستغل الدين في سبيل صهر جميع اليهود من مختلف الاجناس والقوميات بالضغط والتهديد واحلالهم محل العرب في فلسطين بعد طردهم بالقوة . وهي تعمل ايضا على ربط الصهيونية بالديانة اليهودية كما قال حاييم وايزمان « ان يهوديتنا وصهيونيتنا متلازمتان متلاحقتان ، ولا يمكن تدمير الصهيونية بدون تدمير اليهودية » .

ومن بين المغالطات التي أوردها مدونو التوراة مغالطات تاريخية خطيرة نسبت الى رب اليهود يهوه وهي منح بلاد كنعان لابراهيم ولنسله من بعده وصدور أمر من الله يقضي بإبادة سكان كنعان من غير تمييز بين رجل وامرأة وبين شيخ وطفل واحراق مدنهم واحلال بني اسرائيل محلهم . ان هذه الوعود المشروطة بالإبادة والقتل الجماعي هي مجرد افتراء لأن الديانات السماوية لا يمكن أن تسمح بإبادة الانسان وقتل النفس البريئة . واستنادا الى ذلك أخذ بعض علماء اللاهوت المسيحيين بالدعوة الى عدم اعتراف المسيحية بكتاب العهد القديم ككتاب ديني وككتاب تاريخي وثائقي « لأن المسيحية بدأت بالمسيح وحده وبه تنتهي » .

ومن جهـة خامسة كانت الصهيونية تضحي بعدد من يهود العـالم لتحقيق أهدافهـا السـياسية ، وقد ثبت بشكل واضح ، على سبيل المثال ، انها كانت على علم باضطهاد اليهود في العهد النازي وكانت تفاوض النازيين في نفس الوقت لخدمة أغراضها السـياسية الاستعمارية في فلسطين . وكانت هذه الاهداف تتطلب خلق جو من الارهاب وعدم الاستقرار

في البلاد التي كانت تستهدفها وخاصة عن طريق تدبير حوادث انفجار في اماكن العبادة اليهودية .

ومن جهة سادسة لا يخفى على احد ان السياسة التي اتبعتها الصهيونية العالمية في موضوع الهجرة تعتمد على الاولويات التالية :

١ - تحريض يهود أوربا الشرقية على الهجرة الى فلسطين ، هؤلاء اليهود الذين يحق لهم وحدهم الانتماء الى الطبقة الحاكمة في الكيان الصهيوني ، ولتحقيق اغراضها كانت الصهيونية تدعي ان الدول الاشتراكية تضطهد اليهود وتطالبها بتطبيق المبادىء الواردة في الميثاق العالمي لحقوق الانسان وبالسماح لليهود فيها بالهجرة الى الكيان الصهيوني .

٢ - تشجيع يهود أوربا الغربية والولايات المتحدة سواء على الهجرة الى فلسطين او على التبرع للكيان الصهيوني واقامة مختلف المنشآت الصناعية والاقتصادية لربط الاقتصاد الصهيوني بعجلة الاقتصاد العالمي وخلق طبقة اقتصادية تصبح كهمزة الوصل فيما بينهما .

٣ - تحريض اليهود الشرقيين ، وخاصة العرب منهم ، على النزوح الى فلسطين لاثارة المشاكل في البلاد العربية عن طريق الادعاء باضطهاد اليهود فيها من جهة وللحصول على اليد العاملة الرخيصة للاقتصاد الصهيوني من جهة ثانية . الا ان اليهود الشرقيين أصبحوا، بعد استيطانهم ، مشكلة معقدة بالنسبة للكيان الصهيوني لانهم يتعرضون الى الازدراء من قبل الطبقة الحاكمة ((لان التفرقة والتعصب ضدهم ينعكسان على احوالهم المادية والاجتماعية، وهم أدنى درجات السلم الاجتماعي في اسرائيل)) . خاصة وان الطبقة الحاكمة تعتبرهم مختلفين عن كل من يهود أوربا الشرقية ويهود أوربا الغربية من الناحيتين الحضارية والتكنولوجية . وما ظهور حركة ((الفهود السود)) الا تعبير صارخ عن الظلم الاجتماعي والتفرقة العنصرية اللذين يشعر بهما اليهود الشرقيون .

٤ - السماح لليهود السود الاميركيين بالهجرة الى فلسطين . وكانت الصهيونية تبتغي من ذلك المزيد من الدعاية على الصعيدين العالمي والافريقي ، وقد ساعدها ذلك سابقا على بناء جسور عديدة بين الكيان الصهيوني ومختلف الدول الافريقية ، الا ان روح العنصرية المتأججة ضدهم قد اضطرت السلطات الصهيونية الى اتخاذ قرار ((بطرد بعض المجموعات السوداء ومنع مجموعات أخرى من الوصول الى اسرائيل خوفا من تزايد عدد اليهود السود وخلق مشاكل عنصرية في المجتمع الاسرائيلي)) .

وتجدر اللاحظة ، استنادا الى ماتقدم ، ان الصهيونية العنصرية :

١ ـ اعتمدت جميع الوسائل الاعلامية المحلية العالمية وروجت الادعاءات الكاذبة واختلقت وزورت الكتب التاريخية والمقدسة لتدعيم اغراضها .

٢ ـ مدت يدها الى جميع الدول الاستعمارية والعنصرية ، وبلا استثناء ، خاصة وانها تشاركها في وحدة الهدف والمصير .

٣ ـ استخدمت جميع ممارسات التمييز العنصري اللا انساني ، على جميع المستويات وفي مختلف المناطق بما في ذلك الكيان الصهيوني ، مادام ذلك يخدم اطماعها في التوسع والابادة الجماعية .

ولكن ترى هل تمكنت هذه الصهيونية من كبح جماحها بعدما توصلت الى انشاء الكيان الدخيل ، وهل خففت من غلوائها لعلها في ذلك تعمل على المساهمة في اقامة السلام العادل والدائم في منطقة الشرق الاوسط ؟

رابعا ـ الكيان الصهيوني وانتهاكاته لحقوق الانسان :

في نفس اليوم الذي صوتت فيه الامم المتحدة على تقسيم فلسطين واقامة الكيان الصهيوني في تشرين الثاني لعام ١٩٤٧ ، كتب حاييم وايزمان « انني واثق من ان العالم سوف يحكم على الدولة اليهودية انطلاقا مما سوف تفعله مع العرب » فماذا حصل بعد هذا التاريخ وكيف حكم العالم على العنصرية الصهيونية ؟

مما لاشك فيه ان الادانات الدولية وعلى مختلف الاصعدة كثيرة ودامغة . ومما لاشك فيه أيضا ان وسائل الدعاية والاعلام تتناقل الاخبار عن انتهاك الحريات في مناطق مختلفة من العالم وعن وقوع اعتقالات مجحفة واعمال قمعية من قبل السلطات الحاكمة في عدد من البلاد ضد المناوئين السياسيين . الا انه من المؤسف حقا أن تدعي هذه السلطات ، وفي طليعتها السلطات الصهيونية ، الانسانية والبراءة والديموقراطية والحرية . وكثيرا ماتعتبر الطبقة الصهيونية الحاكمة المعلومات الواردة حول اجراءاتها التعسفية في فلسطين والاراضي المحتلة تحريفا واختلافا ومعاداة للسامية ، وتحاول وتنجح الى حد كبير ، منع نشر مثل هذه المواضيع في الصحف الاوربية الامريكية . كما انها ، لتغطية اعمالها الاجرامية تعمل على اختلاق روايات عديدة حول اضطهاد اليهود في الاتحاد السوفيتي أو اي بلد اخر وحول

معاداة السامية وانتهاك حقوق الانسان ، قلنا منها بان « ذلك سيكون بمثابة ستار دخان يحجب بظله الاعمال الاثمة التي يقوم بها المحققون في مراكز التحقيق المختلفة » .

ورغم كل هذا نرى ان بعض الاصوات الحرة تعالى ، ومن بينها أصوات يهودية لادانة العنصرية الصهيونية كاصوات ألفرد ليننتال وفيلسيا لانغر ، المحامية في الارض المحتلة وصحيفة الصانداي تايمز التي ادانت الكيان الصهيوني عن طريق نشرها تحقيقات دامغة بتاريخ ١٩ حزيران لعام ١٩٧٧ .

ان الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة بقي كيانا صهيونيا عنصريا يريد أن يحكم مايعادل مليوني عربي في ظل الاحتلال العسكري ، علما بان معظم اليهود الصهيونيين لا يرون بديلا عن استمرار هذا الاحتلال منطلقين من وهم حق اليهود التاريخي في الارض . لقد عمل هذا الكيان ، انسجاما مع عنصريته ، على هدم البيوت وابعاد العرب الفلسطينيين واعتقالهم وتعذيبهم . وقد أكد المحامون الذين يقومون بالدفاع عن المتهمين ان المحاكم العسكرية تتواطؤ وتخفي عن قصد استخدام التعذيب وان معظم الاحكام تبنى على أساس اعترافات المتهم المنتزعة عن طريق اساءة المعاملة والقسر . ومن جهة أخرى تمتنع السلطات الصهيونية عن ابلاغ الصليب الاحمر عن الاعتقالات التي تقوم بها وتمنعه من ارسال مندوبيه لزيارة السجون ومراكز الشرطة أو المعسكرات الحربية ، مدعية بان ميثاق جنيف لاينطبق على الاراضي العربية المحتلة .

ولتبرير المواقف الاجرامية تحاول الوسائل الاعلامية المختلفة للكيان الصهيوني التشكيك بصدق المعتقلين ووصفهم بالارهابيين القائمين للدعاء ، علما بان أكثرية الضحايا متهمون اداريون ولم توجه لهم التهم ابدا ، ومنهم من أعرب عن استعداده للتعايش السلمي مع الفئات الاخرى في فلسطين شريطة « حصول شعبهم على حقوقه » .

ومن التحقيق الذي أجرته الصانداي تايمز اللندنية بتاريخ ١٩ حزيران لعام ١٩٧٧ يستخلص : « ان تعذيب السجناء العرب واسع الانتشار ومنهجي بحيث لايمكن نفيه واعتباره من فعل رجال الشرطة القساة الذين يتجاوزون الاوامر ، وان التعذيب أصبح سياسة متعمدة ومجازة » .

كما ان الاستنتاجات التي وصل اليها تحقيق الصحيفة المذكورة تؤكد :

أ ــ ان مصلحة الامن والاستخبارات الصهيونية تسيء معاملة المعتقلين العرب .

٢ ـ أن نوعاً من اساءة المعاملة بدائي ، كالضرب المتواصل مثلاً ، ولكـن بعض الاساليب المتقنة هي أيضاً قيد الاستعمال ، بما في ذلك التعذيب والصدمات الكهربائية .

٣ ـ ان التعذيب يجري في ستة مراكز على الاقل : في سجون نابلس ورام الله والخليـل وغزة وفي مراكز التوقيف بالقدس وفي قاعدة التموين العسكرية قرب مطار اللد .

٤ ـ ان جميع أجهزة الامن متورطة وان التعذيب يستخدم لاغراض ثلاثة :

الاول هو لانتزاع المعلومات ، والثاني هو لاجبار الاشخاص على الاعتراف بجرائم أمنية يحتمل أن يكونوا متورطين فيها أو غير متورطين ، والثالث هو لاقناع العرب في الاراضي المحتلة أن المسلك غير الفعال سيكون أقل ايلاماً بالنسبة اليهم .

وأخيراً وانطلاقاً مما تقدم اليس لنا الحق في أن نتساءل كيف يسمح النظام المصري لنفسه بعقد صلح مع كيان عنصري استخف بابسط المبادىء الانسانية وانتهك اقدس الحرمات والشعائر الدينية وضرب عرض الحائط الحقوق المشروعة لشعب اصبح مشرداً من أرضه ودياره ، وتعاظمت أطماعه ليبلع جميع الاراضي العربية المحتلة ويبسط هيمنته على المقدرات العربية بأكملها ، وذلك كله لكي يستعيد الرئيس المصري سيادته الشكلية على سيناء ولكي يقيم معه ، وفقاً لرغبات الاستعمار ، أحسن العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافيـــة ؟ .

الم يقتنع الرئيس المصري بتقرير وزارة الخارجية الاميركية ، الذي نشرته جريدة واشنطون بوست ، والذي أعدته الآنسة جونسون الموظفة في القنصلية الاميركية في الكيان الصهيوني وتحدثت فيه عن الممارسات اللاانسانية واللااخلاقية للكيان الصهيوني فكلفها ذلك مستقبلها ووظيفتها ؟ ألم يسمع بالاصداء العالية وبالضجة الكبرى التي آثارتها الصهيونية في الولايات المتحدة وخارجها ، مدعية بان الآنسة المذكورة كانت على علاقة غرامية بشـاب فلسطيني وأن تقريرها ما هو الا نسيج من الافتراء والخيال ؟

الم يقتنع بما صدر اخيراً عن لجنة حقوق الانسان التابعة لهيئة الامم المتحدة التي أدانت الممارسات العنصرية للصهيونية ، هذه الممارسات التي تهدف الى تحقيق اطماعها في الاحتلال والاستيطان والتوسع تحت ستار شعارات وادعاءات واهية وبعيدة عن الصلح والسلام في المنطقـة .

كما أن هذه الممارسات في الواقع ، تجد فلسفتها في الادعاءات المغرضة التي تطلقها أجهزة

الصهيونية من فترة لاخرى وفقا لاهدافها واغراضها الاجرامية . فقد أطلقت سابقا شعارات الشعب المختار ومعاداة السامية وهجرة اليهود خوفا من الاضطهاد ، ثم اخذت تطلق شعارات جديدة زائفة كنظرية الحدود الآمنة ، والحكم الذاتي في الضفة والقطاع ، والتنقيب عن الآثار ، ومكافحة الآفات الزراعية ، والقضاء على التخريب وغيرها من الادعاءات الكاذبة لتحقيق مآربها العدوانية مخالفة بذلك أبسط مبادىء الحقوق الانسانية . وهكذا نلاحظ :

١ ـ ان نظرية الحدود الآمنة والمعترف بها التي اطلقتها بعد حرب حزيران لعام ١٩٦٧ كانت تهدف منها التوسع واكتساب الاراضي الجديدة على حساب الغير . وهذه النظرية مستمدة من المفهوم النازي القائل بوجوب الحصول على « الارض والتربة من اجل تغذية الرايخ » .

٢ ـ ان نظرية الحكم الذاتي تهدف منها بسط سيادتها على الضفة والقطاع واقامة المستوطنات الجديدة وتشريد وطرد السكان الاصليين فيها .

٣ ـ ان الادعاء بالتنقيب عن الآثار ما هو الا محاولة لتغيير المعالم الاثرية والسكنية والسكانية في الاراضي العربية المحتلة وذلك عن طريق نسف القرى وهدم الاحياء والمساكن ومصادرة الاملاك وطرد السكان العرب . وما افتعال حادثة حرق المسجد الاقصى ومحاولة اليهود للاستيلاء على الجامع الابراهيمي في الخليل والتدخل في حرية العبادة وانتهاك الحرمات المقدسة الا اثباتات دامغة على انتهاك المبادىء الاساسية التي وردت في الميثاق العالمي لحقوق الانسان .

٤ ـ ان الادعاء بمكافحة الآفات الزراعية في الاراضي المحتلة ، ما هي الا عملية تهدف الى افساد المحاصيل الزراعية والى افقار سكانها وتجويعهم .

٥ ـ ان القضاء على التخريب والمخربين ما هو الا ذريعة لزج السكان العرب في السجون وفرض العقوبات الجماعية بحقهم ونهب مواردهم وتعذيبهم .

وقد ادت هذه الممارسات الى العديد من الادانات على صعيد اللجان المختصة المتعددة وعلى صعيد هيئة الامم المتحدة وغيرها من المحافل الدولية . وهكذا يحق لنا ان نتساءل عن المبادىء الانسانية التي لم تعمل الصهيونية على انتهاكها وعن القرارات الدولية التي عمل الكيان الصهيوني على تنفيذها ؟ ان هذا الكيان بالطبع لم يلتزم مطلقا بأي قرار دولي ، كما أنه لم يحترم ابدا المبادىء الواردة في الميثاق . لقد كانت وما زالت اغراضه واهدافه وممارساته انتهاكا صارخا لجميع القيم الانسانية ولجميع المبادىء التي نصت عليها حقوق الانسان :

فهي انتهاك للمبادىء التي نصت عليها المقدمة وهي الكرامة الانسانية وحرية الرأي والتعبير والعقيدة والتحرر من الخوف والفاقة وتنمية العلاقات الاخوية بين الامم والمساواة والتقدم الاجتماعي .

كما انها انتهاك صارخ لحق الفرد في الحياة والحرية والسلامة الشخصية / المادة ٣ / ولحقه في التحرر من جميع أشكال التبعية والعبودية (المادة ٤) وعدم التعرض للتعذيب وللعقوبات والمعاملات القاسية الوحشية (المادة ٥).

وهي انتهاك أيضا للحقوق القضائية (٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١١) والحقوق السياسية (المواد ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١) المتعلقة بحرية التنقل ومغادرة البلاد والعودة اليها ، وبحق اللجوء السياسي وحق المحافظة على الجنسية ، وحرية الرأي وحرية التجمع والمساهمة في الامور العامة ، بالاضافة الى الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية (المواد ١٧ ـ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧) .

وختاما اريد أن أكرر كلاما يقال منذ ثلاثين عاما ، على المنابر الدولية ، ومنها منبر الجمعية العامة للامم المتحدة : أنطالب بصيانة حقوق الانسان وحرياته من جهة ، ونعمل على تشريد شعب بريء طمعت بأرضه المحافل الاستعمارية والصهيونية العنصرية التي أعمت وسائل اعلامها أبصار غالبية البشر عن رؤية اهدافها الاجرامية وممارستها الظلم بشتى أنواعه وذلك بحجة توطين اللاجئين اليهود ؟

ولا عجب في ذلك لان المنظمة الدولية التي كانت تسيطر عليها آنذاك الدول الاستعمارية ، قد وافقت عام ١٩٤٩ ، بناء على توصية من مجلس الامن ، على قبول الكيان الصهيوني ، الذي طرد بأقل من سنة واحدة مليون عربي من بلدهم بالقوة وجعل منهم لاجئين يعيشون على التسول والمساعدات المختلفة ، كعضو من أعضاء الامم المتحدة !

ولا عجب في ذلك أيضا لان الكيان الصهيوني عنصري وقوميته عنصرية وفلسفته عنصرية ويقوم على أسس عنصرية بحتة ، وهو بذلك يخالف المادة الثلاثين من ميثاق حقوق الانسان التي تحرم على أية دولة أو مجموعة أو فرد القيام بنشاطات او أعمال تؤدي الى القضاء على الحريات والحقوق التي نص عليها . ولا عجب كذلك أن نرى في طليعة قياداته حكاما أمعنوا في الاجرام وأكدوا على سياستهم الغاشمة في التوسع والاحتلال فحازوا بذلك على جائزة نوبل للسلام .

واخيرا أليست الادانات الدولية وعلى مختلف الاصعدة كالصليب الاحمر الدولي واللجان الخاصة التابعة للامم المتحدة ومؤتمرات عدم الانحياز وخاصة الجمعية العامة للمنظمة الدولية التي أصدرت قرارها لعام ١٩٧٥ وكذلك قراراتها الاخرى لعام ١٩٧٧ و ١٩٧٨ باعتبار الصهيونية شكلا من اشكال العنصرية اثباتات دامغة وصريحة ؟

حول نظرة جديدة في تاريخ الطب العربي

د . سلمان قطاية

في عام ١٩٧٥ صدر باللغة الالمانية كتاب بعنوان « تاريخ الطب » من دار فيرلاغ الشهيرة بالمانية الغربيــة .

نال الكتاب شهرة واسعة مما دعى دار النشر فايان في باريس الى تكليف السـيد دونيز مونيه الى ترجمته الى الفرنسية ونشر عام ١٩٧٨ .

ولقد علق كثيرون على الكتاب واجمعت الآراء على انه كتاب يمتاز بالموضوعية والشمولية . ومؤلف الكتاب هو الدكتور الطبيب شارل ليشتانتيلر استاذ تاريخ الطب في كل من جامعتي لوزان في سويسرا ، وهامبورغ في المانيا .

يقع الكتاب في ٦١٢ صفحة من القطع الكبير ويحتوي على عشرين محاضرة ، والكتاب عبارة عن مجموعة محاضرات الاستاذ المذكور ، وعصارة عمل دام اكثر من خمسين عاما .

ولدى قراءة المحاضرة الاولى والثانية تتبدى الميزات الرائعة للكتاب ومؤلفه معاً . فالكتاب ولا شك يتمتع بثقافة عالية موسوعية . اذ استطاع ان يحيط وبعمق بكل مراحل الطب منذ فجر التاريـخ حتى القرن العشرين . ويتمتـع بنظرة شمولية انسانية ، تنظر الى الانسان من الداخل ، ولا تكتفي باطلاق الاحكام المسبقة ، والانجراف مع التيار الشـوفيني أو العنصري .

موضوعية دقيقة ، ونظرة الطبيب المتفحص المدقق لمريض يحبه ويجله ويقدر فيه انسانيته قبل كل شيء .

ولقد اعتدت كلما قرأت كتابا عن تاريخ الطب ، بقلم كاتب غربي ، ولكي امتحن موضوعيته، انتقل مباشرة الى القسم المكرس للطب العربي .

فمؤلف امثال جاريسون لا يكرس الا صفحات قليلة من كتابه الضخم ، وكينيث ووكر يكرس له صفحتين فقط يصف فيهما ابن سينا على انه شاعر اهتم بالطب ، والرازي الذي وصف الجدري فقط .

ولكن وقبل ان اصل الى المحاضرة العاشرة من الكتاب ، وهي المكرسة لتاريخ الطب العربي ، كنت ارى ملامح النظرة الموضوعية الحقيقية .

فهو ينكر ان العرب احرقوا مكتبة الاسكندرية[1] ، ويؤكد ان من قام بها هم المسيحيون المتعصبون الذين رأوا في كتبها افكارا وثنية ، ويلفت الانظار الى ان الكثير من المخطوطات العربية لا يزال يرقد في مكتبات الجوامع الاسلامية في الشرق[2] ويحتاج الى أجيال من الباحثين الجديين كي يكشفوا عن اسرارها وعندئذ فقط يحق لنا ان نطلق حكما نهائيا على الطب العربي .

الا ان افكاره عن الاسلام والعرب تتجلى بوضوح في الفصل المكرس للطب العربي . ولقد كانت دهشتي كبيرة لانني وجدت فيه انفتاحا وتفهما عميقا للحضارة العربية والفلسفة الاسلامية ، ومحاولة جادة مخلصة للحكم على الطب العربي حكما عادلا منصفا .

كل هذا زاد من اعجابي بالمؤلف ، خاصة وانني كنت قد انهيت كتابا بعنوان « الطب الاسلامي » لمؤلفه مانفريد اولمان ، عالم لغات سامية ، الماني يعمل في توبنجن ، والكتاب صادر باللغة الانجليزية وفي العام نفسه أي ١٩٧٨ . ينكر اولمان على الطب عروبته وذلك لان بعضا من العلماء ذو اصل فارسي .

وخلال كتابه نخلص الى نتيجة غير جديدة علينا ، الا وهي ان العرب نقلة ، اخذوا عن اليونان كل شيء ولم يبدعوا سوى القليل .

(١) ص : ١٩٤

(٢) ص : ١٦٧

والغريب ان المؤلف هذا هو مستشار علمي لاحدى كبريات مجلاتنا العربية المختصة بتاريخ التراث العربي في القطر ، واسمه يتصدر صفحاتها الاولى .

فالمعلوم أن القرن التاسع عشر عرف مستشرقين اهتموا بالطب العربي وانصفوه وعلى رأسهم الفرنسي لوسيان لوكلير صاحب كتاب « تاريخ الطب العربي » الذي لم يكتب له مثيل حتى الان في هذا الموضوع من حيث الشمولية والدقة والموضوعية .

ولكن ومع بداية الحركة الصهيونية ثم خلق اسرائيل كثرت الاقلام التي تجرح وتحطم التراث العربي .

لذا كان ظهور مثل هذا الكتاب وفي المانيا بالذات امرا يستدعي الاهتمام . ولقد وجدت من الضروري ان اترجم الفصل كلية ، وان اقدمه لقراء اللغة العربية ، وللمهتمين بالتراث عامة والطبي خاصة . وذلك بعد ان سمح لي المؤلف نفسه بالترجمة .

ورغم ان الموضوع يحتوي على الكثير من الحقائق والروح العلمية الا انني وجدت بعض النقاط التي تستحق المناقشة ، والتي رجاني المؤلف في رسالة له ان اناقشها .

ولكنني اترك القارىء في البداية يقرأ الموضوع ومن ثم انتقل الى المناقشة .

المحاضـرة العاشـرة

الطب العربي

للدكتور الطبيب الاستاذ : شارل ليشتانتيلر

---

١ ـ مدخل : قفزة في اللامعقول

نذكر في بداية هذه المحاضرة ، ببعض التواريخ . فعلى عكس ما يظنه البعض بتحول الطب عن تعاليم ابقراط بعد وفاته ، ومضى خلال عصور عديدة يتفتت أكثر فأكثر . ثم بدت « الظاهرة » الجالينوسية التي عارضت ولوحدها التعصب والتميز المنحل في عصره .

واصبح عامل المفاجأة هذا ، المحير و « المزعج » في التطور التاريخي ، اكثر ادهاشا ايضا خلال الفترة البيزنطية بسبب ظهور « الرحمة » المسيحية

والثورة الفكرية والروحية المتعلقة بها . ولم يكن بالاستطاعة التنبؤ بأي واحد من هذه الامور .

والآن فقط بعد مرور كل ذلك الزمن نستطيع ان نفهم معناه وتسلسله وعندئذ يستولي علينا العجب ولا يتركنا بعد ذلك قط .

هل كل شيء ممكن في التاريخ ؟ قد يداخلنا هذا الاعتقاد اذا ما عدنا الى القرن السابع بعد الميلاد : كان الغرب في تلك الفترة منطويا على اوربا ، وسقط في هوة الجهل . وتوج شارلمان امبراطورا على روما في عام ٨٠٠، وكان يقرأ ويكتب وبصعوبة بالغة (يالها من سقطة هائلة منذ عصر بيراكليس) وكيف كان الطب والعلوم الطبيعية والفلسفة ؟ لقد كانت ، رغم كل هذا ، مستمرة في الحياة ، وفي النمو والتطور . ولكن أين نجد الشروط الضرورية لتجديدها ؟ في الشرق ، في بلاد الاسلام .

يجب علينا بادىء الامر ان نعود انفسنا نوبات التشوش التاريخي ، كما اعتاد معاصرو الاحداث ذلك ، فلا الرؤية الهلنستية ، ولا الرؤية الحديثة بامكانهما ان يفسراه بل ان ظروف العصر التي سجلها اولا في المشرق العربي هي وحدها بامكانها ذلك فقط .

بعد مضي ثلاثة قرون على تأسيس القسطنطينية نجد انفسنا امام حادث لا يمكن تصديقه : لقد اخذ العرب بأيديهم شعلة العلم اليوناني (في اوسع معنى له) ، كان وريث الغرب اليوناني هو اولا : المشرق الاسلامي وقبل الجميع .

يقول اتيينى جيلسون: « عندما نتحدث بفخر عن فتوحات الثقافة الغربية، دون ان تكون محقين تماما ، يجب علينا الا ننسى قطعا المساهمة التي قدمها الشرق ... لم تصل الفلسفة اليونانية الى اوروبا الوسيطية مباشرة بل بطريق غير مباشر ، بوساطة علماء سوريين ، وفرس ، وعرب » .

ونجد الشيء نفسه بالنسبة للعلوم الطبيعية، والطب الابقراطي الجالينوسي . ولكن خلف هذه الوقائع الهامة ، تختفي مشكلة : كيف استقبل المشرق هذا العلم وتمثله : بحماسة ، ام بتردد ، كلية ام جزئيا ؟ نلمس هنا نقطة

أخرى هامة من هذه المحاضرة . سيبدو ، في الواقع ، ان توترا خطيرا قد بدى بين الهيلينستية والعقلية الاسلامية ، وان العلم والدين ظلا ، في البلاد الاسلامية ، عدوين لدودين . ولكن قبل ان ندرس هذه الاعتبارات التاريخية الثقافية الهامة بعمق ، يجب ان نتعود قليلا على نمو الطب العربي وصفاته الخاصة . فلندرس في البدء اطاره التاريخي والجغرافي والثقافي . ان ظهور الاسلام يتناسب مع « المرحلة القائمة » للدولة البيزنطية (اي حوالي عام ٦٥٨ أو ٦٥٠) و اضطراباتها السياسية والدينية . فقد قامت نزاعات دموية مزقت كل الشرق الروماني . طردت فرقا مسيحية ، كالنسطوريين والموحدين ، وهم الذين تحولوا الى مبشرين متحمسين ، ينشرون ثقافتهم حتى في الشرق الاقصى وافريقيا . فقد دخل سكان الحبشة مثلا منذ ذلك الوقت ، في الاعتقاد التوحيدي ، وظلوا مخلصين له حتى ايامنا هذه . ويوجد اليوم نسطوريون ايضا في ايران والولايات المتحدة . لقد ولد الاسلام كالمسيحية ، في ذلك الجو ، جو الازمة والانهيار .

ولكن يجب ان نشير الى ان هذا ، لا يظهر الا بعد مرور فترة زمنية . فاليوم فقط نعرف ان محمدا قد دعى الاسلام الى الحياة ، ولم يكن باستطاعة احد ان يتنبأ بذلك في بداية القرن السابع .

كان كريستوفر داوسون اول مـن القى الضوء على التوازي التاريخي الاساسي بين انتشار الاسلام في الشرق وهجمات القبائل الجرمانية في الغرب .

وكان الاثنان يمثلان خطرا قاتلا للامبراطورية الرومانية . كان الغرب واعيا للخطر القادم من الغرب وذلك قبل بضعة قرون ــ قام كل الاباطرة الرومان بمحاربة الجرمان تقريبا ــ اما الخطر القادم من الشرق فقد كان مجهولا تماما ومفاجئا ، لذا فقد نزل كالصاعقة . رجل واحد « مرسل » ، هو في الوقت نفسه زعيم ديني وسياسي ، وذو همة لا تقاوم ، أسس الاسلام وجعل منه قوة عالمية : انه محمد .

ان الاصل والمصدر الروحي جعلا منه دينا جديدا ، ظهر ، كما هي الحال

عند اليهود والمسيحيين ، الذين سادفهم محمد كثيرا في بلاد العرب ، وكلمة « اسلام » تعني « الاعتماد على الله » . وهكذا يرى المسلم في الله ، الاله الواحد القادر ، ويمضي حياته الفانية وعيناه مركزتان على الآخرة . اما مبادؤه الاخلاقية فهي بسيطة مثل فلسفته الدينية . كل المؤمنون اخوة ، دون تفريق بين الاعراق ، والقبائل ، والدرجة الاجتماعية . واول وصية هي : التضامن . ثم يأتي بعدها الترفع والرحمة .

اما الطقوس فهي الوحيدة المذكورة بالتفصيل : صلوات يومية ، وقراءة القرآن ، وايام الصوم ، والحج الى مكة .

حماسة دينية متطرفة ، وايمان بالآخرة ، وبساطة ورعة ، واخوة ، وروح التضحية : كل هذه الفضائل كانت مصدر النجاح العظيم السياسي والعسكري للاسلام .

كان كل فرد مشدودا ، منجرفا ، بالحركة الجديدة ، فتوقفت النزاعات المحلية حالا ، وتنظمت الفتوحات وانطلقت في كل الجهات . وبعد فترة من الزمن ، بدا العالم المسيحي ضئيلا الى جانب العالم الذي يسيطر عليه الاسلام . وانها لمعجزة اننا لم نصبح جميعا مسلمين !

سوف نحدد بواسطة بعض التواريخ المراحل الثلاثة الاساسية لهذا الامتداد الديني والسياسي الذي لم يسبق له مثيل . ولد محمد عام ٥٧٠ في مكة . وكانت سنة ٦٢٢ حاسمة بالنسبة اليه ، فبعد ان طرد من قبل العرب الوثنيين ، هرب مع بعض المؤمنين ، واحتمى في يثرب ، وهي اليوم: المدينة ، وحددت هذه الهجرة بداية التاريخ الاسلامي . وفي عام ٦٣٠ ، استولت جيوش محمد على مكة . وبعد عامين ، واثناء وفاته ، كانت كل بلاد العرب تدين له ، واستطاع خلفاؤه ان يستولوا على بلاد كثيرة الواحدة تلو الاخرى : سوريا ، وبلاد فارس ، وافريقيا الشمالية واسبانيا .

وامتدت هذه « الفترات البطولية » حتى القرن الثامن . وانقطعت وحدة العالم المتوسطي ، وتخلت الثقافة الهيلنستية عن مكانها للثقافة الاسلامية . ولم يبق من الامبراطورية المسيحية سوى الانقاض . ويعتبر هنري بيرين

ظهور الاسلام منطلقا تاريخيا حقيقيا لتاريخ العالم ، ما بين العالم القديم والعصور الوسطى ، وهو محق في ذلك .

ثم جاء الازدهار بعد الفترات البطولية . ورغم انقسام العالم الاسلامي الى امارات عديدة ، فلم تعد له تلك الوحدة السياسية ، فلقد عرفت الثقافة العربية خلال القرن التاسع عصرا ذهبيا حقيقيا ، في الطب أيضا .

واعتبارا من القرن الثالث عشر فقط ابتدأ عصر الانحطاط . فاستولى الكاثوليكيون على اسبانيا ، شيئا فشيئا . وكان على العرب أن يحاربوا الصليبيين في الشرق ويقاوموا هجمات الاقوام الآسيوية . وفي عام ١٢٥٨ استولى المغول على بغداد . ومن المؤكد اننا نجد في تلك الحقبة أيضا علماء في سورية ، ومصر وجنوب اسبانيا . ولكن وحتى هذه الدول بدأت تقع شيئا فشيئا في نوم عميق ، يستيقظ العرب الآن منه فقط وسط عالم مختلف تماما .

٢ ــ المراحل الثلاثة الكبرى للطب العربي

يمتد تاريخ الامبراطورية الاسلامية اكثر من خمسمئة سنة فكيف كان مصير الطب في ذلك الاطار التاريخي والجغرافي ؟ ومن جديد نميز ثلاثة مراحل تتناسب تماما مع المراحل التي عرفها تاريخ الاسلام . وفي هذا الميدان أيضا ظهرت فتوحات منتصرة ، ثم قمة ، ثم انحطاط مليء بالانتفاضات .

اما الفترة الاولى فتتميز بما يسمى عن حق « حمى الترجمة » . كان العرب قبل الحضارة الاسلامية يعيشون على هامش الحضارة ، ولم تظهر اعمالهم الفنية الجميلة الا بعد تلك الفترة بزمن طويل . وكان خلفاء محمد ، ومنذ ذلك الحين ، وبنظرة عريضة ، تدعو للاعجاب ، يحاولون الاستيلاء على حضارة البلاد التي سيطروا عليها . ولم يكن من وسيلة بالنسبة للطب افضل من الترجمة .

ويبدو نقل نص ما من لغة الى اخرى اليوم شيئا عاديا ، ولكن نقل الادب اليوناني الى العربية كان حادثا ذا اهمية بالغة في ذلك الزمان . وبهذه

الطريقة انتقل التراث الكلاسيكي الى منطقة ثقافية مخالفة . وبدأ هذا العمل قبل تأسيس الامبراطورية الاسلامية ، ولم يتوقف قبل سقوط هذه ، وفي القرن الثالث عشر فقط بدأ اجدادنا بترجمة الكتب العربية الى اللاتينية .

بدأ المسيحيون وخاصة النسطوريون بترجمة الكتب اليونانية الى السريانية منذ القرن الخامس . وكان مركز هذا النشاط المدينة السورية « اورفة » مع مدارسها الكبرى . ولكن النسطوريين اضطروا في عام ٤٨٩ الى الهجرة الى فارس لاسباب دينية ، وهكذا ظهرت اولى الترجمات الى الفارسية وخاصة في مدينة نصيبين وجنديسابور . وعرفت هذه الاخيرة بانها كانت مركزا طبيا مهما ، مع مستشفيات وتعليم سريري . وسميت « الاكاديمية البقراطية » كما سميت سالرنو فيما بعد في جنوب ايطاليا « بالمدينة البقراطية » .

ودخل العرب هذه المناطق في القرن السابع ، ولكنهم لم يتأخروا في خلق مراكزهم الخاصة للترجمة ، في دمشق ، وانطاكية وبغداد عاصمة الخلفاء . وحوالي عام ٩٠٠ كان الطب البقراطي ، والجالينوسي ، والبيزنطي قد نقل الى العربية . ووصلتنا اسماء بعض المترجمين مثل النسطوري حنين بن اسحق (٨٩٠ ــ ٨٧٣) الذي ترجم المئات من المخطوطات الطبية بدقة متناهية اثارت اعجاب ماير هوف وهو العالم المطلع . وساهم يهود في هذا العمل ، وظهرت بعض المؤلفات اليونانية باللغة العبرية ، وهذا مهم ، لاننا نجد ، بعد عدة قرون ، يهودا يترجمون المؤلفات العربية الى اللاتينية .

ماهي اهمية هذا الاقبال على الترجمة ؟

انها تؤكد اولا ابوة الطب اليوناني القديم ، الذي لم يكتف بالسيطرة أيام الاباطرة الرومان ولكنه سيطر ايضا في الفترات اللاحقة ، فلقد ترجمت مؤلفاته الى السريانية والفارسية والعربية . واستمر في اثناء الفترة الهلينستية وامبراطورية روما . وبالامكان ان نتخيل بسهولة الطريق الذي سلكه للوصول الى اوروبا الوسيطية . كانت الترجمة المباشرة من اليونانية الى اللاتينية نادرة . فلقد اكتشف الغرب الطب اليوناني في

النصوص التي قامت بتلك « الرحلة اللغوية » ، فقبل اللاتينية كانت اليونانية والسريانية (او الفارسية أو العبرية) والعربية . وهذا ما يفسر لنا شيئين :

اولا : حماسة المترجمين المدرسيين الاوائل الذين وجدوا انفسم فجاة امام تيار جارف مـن العلوم القديمة ، والشيء الثاني : الرغبة العارمة للانسانيين المتأخرين الذين ظهروا ثلاثة او اربعة قرون بعد ذلـك ، في العودة الى المنابع الصافية والاساسية .

ثانيا : المرحلة الثانية للطب العربي ، وهي مرحلة ابداعية بدات في القرن العاشر . ولكن قبـلا يجب ان نسـرد بعض الملاحظات والمقدمات التي ستساعدنا على تفهم اكبر للمؤلفين والمؤلفات خلال تلك الفترة . اصبحت العربية اللغة العلمية الغالبة ، رغم ان الاطباء الكبار الذين كانوا يتكلمون العربية لم ياتوا كلهم من بلاد العرب ، بل من فارس ايضا مثل الرازي (حوالي ٨٦٥ ــ ٩٢٥) وعلي بن عباس (توفي عام ٩٩٤) وابن سينا (٩٨٠. ١٠٣٣) او مـن سوريا ، ومصر ، واسبانيا . وثمـة نقطة اخرى يجب الاهتمام بها : كـان الاطباء « العرب » يعرفون عـن ظهر قلب ابقراط وجالينوس . فقد كان الطب اليوناني بالنسبة لهم ، كما كانت بالنسبة لجالينوس والبيزنطيين ، اساس الاساس نظريا وعمليا . ومن اراد اليوم ان يفهم الطب العربي فعليه ان يتتلمذ في مدرستهم وهي صعبة (لهذا نجد مستعربين جديين قلائل في هذا الميدان) . وبالاضافة الى ذلك ، توجد مصادر اخرى للطب العربي ، ضمن الجو الاسلامي ، كالفارسية والهندية والمصرية . ولهذا كان للطب العربي صفته العالمية التي اتصفت بها الهيلينستية ، وكما كان جالينوس ، فان معظم الممارسين المشهورين كانوا في الوقت نفسه فلاسفة وعلماء لغة . ومن الخطأ التام والمضاد للتاريخ الا نضع في المقام الاول الا اكتشافاتهم وابتكاراتهم فقط .

ان ما حققه العرب بشكله النموذجي له صفات تارة هيلينستية واخرى بيزنطية . (ولم يبد الاتجاه الاسلامي المحض في فعاليتهم الا بعد فترة) . فقد اخذوا عـن البيزنطيين ، ولولا اوريباسيوس ومن خلفه لـما كتب الرازي ، الحاوي ، وعلي بن عباس المجوسي الكتاب الملكي ، وابن سينا

كتابه الشهير القانون . ومكانة جالينوس في هذه الكتب في المركز دوما ، ولكنها اوسع واكمل من الكتب البيزنطية ، وتحتوي على الكثير من المعارف الجديدة . وكما فعل البيزنطيون فقد قام العرب بتجميع معارفهم وذلك لتسهيل فهمها على الاطباء المارسين ، مهما ظهر هذا غريبا على اطباء اليوم . وكان « كل شيء » يجب ان يكون في مكانه الحسن وفي كل الكتب والمراجع . وكما كانت الحال مع المؤلفات البيزنطية ، فقد كانت مؤلفاتهم ابنية علمية حقيقية . فكتاب ابن سينا لم يكن الانجيل الطبي للعرب فقط بل كان ايضا لكل مؤلفينا القدماء ، طبع ثلاثة عشر مرة حتى في القرن السادس عشر ، قرن بارا سيلز وفيزال . وظهرت آخر طبعة له باللغة اللاتينية عام ١٦٠٨ .

لم يكتف زملاؤنا العرب باخذ وسحب وتصنيف (او شرح) الكتابات القديمة ، وفي اي كتاب كان ، بل كانوا يراقبون ويبحثون هم انفسهم . وكان نموذجهم الذي يحتذونه : الهيلينستية ، وجالينوس من جديد . لقد اعيد النظر في العديد من الاشياء . وميز بعضها واكمل وللمرة الاولى. كانت الجالينوسية العربية اكثر ابداعا من زميلتها البيزنطية .

ولقد سند نمو النظام العربي الجديد للمشافي ، هذه الموجة الجديدة للبحث . ولم يكن للطبيب فيها دور ثانوي ، كما كانت الحال في مؤسساتنا الوسيطية ، بل على العكس ، كان الطبيب هو المدير المسؤول . كان ثمة طبيب رئيس ومساعدوه . وكانوا يعودون المرضى بانتظام ، بينما كان المصابون بالامراض العقلية يعالجون في اقسام متخصصة . وكانت للمشافي صيدليات ومكتبات خاصة بها . كان التعليم الطبي في بغداد منظما قبل الف عام من بوهرهاف عالم مدينة ليد ، وفي المدن العربية الاخرى كذلك . وما قدمه العرب من اعمال اصيلة ، والتي سندرسها بعد قليل ، دليل على تلك الدفعة التي حدثت للتقاليد البقراطية الجالينوسية .

اكتشف الرازي مرضين : الجدري والحصبة ، ووصفهما حسب نموذج « الاوبئة » البقراطية لمدينة ارتيه . ولدينا من الرازي سلسلة من « المشاهدات » الطبية ، ومن المهم جدا مقارنتها من حيث الشكل والعمق

مع مثيلاتها البقراطية، عندئذ تكتشف وبشكل مذهل ان التقاليد البقراطية الجالينوسية قد سجلت هي ايضا تقدما علميا حقيقيا . كان الرازي يعرف اشياء كثيرة لم يكن معلم قوس (ابقراط) يعلم عنها شيئا .

وبما ان الامراض العينية كانت من الاصابات المنتشرة في البلاد العربية ، لذا فليس من المستغرب ان نجد ، وبشكل خاص ، في هذا الميدان معلومات فيزيولوجية ، وتشاخيص ومعالجات جديدة . راقب الرازي ارتكاس الحدقة على الضوء . واستند مفهوم ابن الهيثم العالم الرياضي والفيزيائي، عن البصر ، على انكسار الضوء ، فاسس بذلك علم الضوء الفيزيولوجي . وحوالي عام ١٠٠٠ ميلادية ، وللمرة الاولى ، سحبت البلورة خلال عملية للساد . وهو تقدم هائل بالنسبة للطريقة القديمة التي كانت تنص على ادخال البلورة الكثيفة في السائل الزجاجي . واتخذ علم الصيدلة انطلاقة اخرى . وكما كانت الحال في الفترة الهيلنيستية ، كانت الادوية تنهال من البلاد الاكثر اختلافا . الكافور والشيلم مثلا دواءان في صيدلياتنا حاليا هما من اصل عربي . ولقد ابتكرت طرق جديدة كيميائية لتحضير الادوية، كالتقطير، والتصعيد، والبلورة . نحن هنا اذن في مهد الكيمياء والصيدلة. تخلفت الجراحة فقط ، الشيء الذي يمكن تفسيره بتحفظ الاطباء الديني والاخلاقي ، وبسبب نفور الشعب ايضا من المداخلات الجراحية الدامية. اما الكتاب الجراحي العربي الوحيد المعروف فهو كتاب ابي القاسم (الزهراوي) المولود في اسبانيا . لقد قراه اطباء الغرب الوسيطون اكثر مما فعل العرب . اما الفكرة المنتشرة عامة من ان رسم الجسد الانساني محرم على المسلمين فهي خاطئة تماما . فعلى العكس : كثيرة هي اللوحات المرسومة من اجل دروس التشريح ، والجراحة ، والتوليد ، وعلى كل حال فان البعض منها قد وصل الينا . واخيرا ، فقد حدث تغير اساسي في معالجة الامراض العقلية . بعكس الاعتقاد ان المجانين قد تقمصتهم الشياطين ، فقد كانوا يلاقون العناية بلطف واهتمام في اقسام مخصصة. ومن المعالجات المختلفة نجد . الرقص ، والموسيقى ، والمسرح ، وذلك لتسلية هؤلاء المرضى .

يقدم لنا هذا العرض الموجز ، المستوى العالي الذي وصل اليه الطب

العربي حوالي عام ١٠٠٠ ميلادية . استمر العرب في العمل التركيبي للبيزنطيين بـل وتحسن . ولم يكن فضول العرب العلمي ، وتذوقهم للبحث ، وكثرة الفرق لديهم باقل من اطباء مدرسة الاسكندرية . ولقد حماهم النظام الموجود في الجالينوسية . وهكذا حقق الطب قمة جديدة في فن المعالجة الغربية ... في الشرق .

■ ■ ■

بدا الانحطاط اعتبارا من القرن الثاني عشر . ظل القانون ، وكتب طبية اخرى ، نظرية وعلاجية ، هي المعتمدة وظل الامر على هذا المنوال حتى العصر الحديث ، تنقل هذه الكتب وتذكر دوما . الا أننا نجد خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر وجوها اخرى هامة . كابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨) المولود في قرطبة ، من بين كتبه : « الكليات » وهو كتاب طبي كان المدرسيون القدماء يقرؤونه بكثرة . ولكن تاثيره في الفلاسفة ورجال اللاهوت كان اكبر ، وذلك بسبب كتاباته عن ارسطو . كان ابن رشد الشارح بالنسبة للقديس توما الاكويني ، بينما كان ارسطو الفيلسوف .

وفي القرن الثالث عشر بدات « الابن رشدية » وكانها الارسطالية المضادة للمسيحية ، وانهيار الفلسفة المسيحية ، وحتى بعد بضعة قرون كان المدافعون عن هذه النظرية وبسبب دراساتهم الفيزيائية كرواد مناهضين لجاليليو . أما اليهودي ابن ميمون (١١٣٥ ـ ١٢٠٤ اسبانيا ، مصر) فكان طبيبا ، ورجل دين ، وفيلسوفا ، وكان لا يقل تقديرا من قبل رجال الدين المسيحي الوسيطيين . وكطبيب فقد كان جالينوسيا بحتا ، وكفيلسوف فقد كان يحاول أن يوحد بين الايمان والعقـل ، متمشيا بذلك مع الخطة التي كانت تتبعها الفلسفة المسيحية في زمانه .

وفي القرن الثالث عشر ، كان ابن ابي أصيبعة (١٢٠٣ ـ ١٢٧٣) يقص حياة واعمال الاطباء السوريين ، والعرب ، والهنود . وقبل هـذا « المؤرخ الطبي » ببضع سنوات كان عبد اللطيف (البغدادي) (١١٦٢ ـ ١٢٣١ سوريا ، مصر) طبيبا ، وعالما طبيعيا ، وفيلسوفا ، يصلح اخطاء جالينوس في تشريح جسم الانسان بفضل ملاحظاته الشخصية .

كان الفك السفلي بالنسبة لجالينوس مؤلفا من قطعتين متفرقتين ، متمفصلتين بقوة عند الذقن . وكما فعل في حالات اخرى ، فقد اعتبر ما وجده عند الحيوانات مماثلا لما هو عند الانسان . ولكن عبد اللطيف برهن على ان فكنا السفلي قطعة واحدة ، فميّز تماما ، بفضل المراقبة الموضوعية ، الخطأ الجالينوسي ، فهو يؤكد بجراة ان البراهين تعتمد على حواسنا الخاصة ، وان قيمة هذه تجاوز قيمة الذين يعتمدون على سمعتهم فقط . وبعد نصف قرن كان البير الكبير وتلميذه القديس توما الاكويني يدافعان عن وجهة النظر نفسها .

ولكن اكبر اكتشاف في الفيزيولوجيا كان للطبيب وعالم اللغة والفيلسوف الفقيه الذي ظهر بعد ذلك ، انه ابن النفيس (١٢١٠ ــ ١٢٨٨ ، دمشق، القاهرة) .

فقد كان الاول ، اي ثلاثة قرون قبل ميشيل سيرفيه وعلماء التشريح الذين ظهروا خلال النهضة الاوروبية ، في وصف الدورة الدموية الصغرى خلال شرحه لتشريح القانون لابن سينا ، والذي يبدؤه بالابتهال الى الله والانبياء والرسل . ورغم انه يمدح جالينوس كثيرا ، ولكنه لا يعترف به كمصدر غير قابل للخطأ . ويؤكد انه لاسباب دينية وانسانية ، لم يقم بالتشريح ، ولكن ملاحظاته التشريحية نفسها تبدو كانها تكذّب هذا القول . ففي « شرحه » يرفض العقيدة الجالينوسية التي تقول بأن بين البطينين توجد فتحات كثيرة فيقول « بالعكس ، ان الجدار مصمت وسميك » ويشعر المرء بوضوح انه ولا بد قد تلمّس بيده هذا الجدار . وبحدس العبقري ، يصل الى القرار بأن الدم لا يمكن ان يمر من البطين الايمن الى الايسر الا بعد ان يمر عبر الرئتين حيث يتنقى ويحمل بالهواء البارد . ويثور ايضا ضد آراء ابن سينا الذي كان يقول بأن القلب يتغذى من البطين الايمن . كلا ، ان هذه النتيجة قد حصلت بفضل اوعية خاصة تنفذ في جرم القلب (ربما كانت ما نسميه اليوم : الاوعية التاجية) . وعالم ذو ملاحظة كهذه لابد وانه شرّح سرا .

ولم تكن المصادفة حتما هي التي جعلت من الاطباء العرب المتاخرين امثال عبد اللطيف وابن النفيس ، يعارضون وينتصرون على جالينوس .

لقد كان للاجيال الاولى مهمات اخرى : جمع وتمثل التقاليد البقراطية الجالينوسية ، و « تحمل مسؤوليتها » كما يقال اليوم . ولقد اتموها ببعض المعلومات الجديدة ، دون تصحيحها بشكل كبير (ولكن الرازي ، كما أوضح ذلك جوندولف كيل منذ فترة قريبة ، كانت له دوما مواقف معارضة وناقدة) . اما الاجيال اللاحقة فقد اصبح الطب اليوناني بالنسبة اليها شيئا ممتادا ، فقد كانوا اكثر حرية في التصرف نحوها .

وبالمناسبة فان المدرسيين الاوروبيين القدماء وعلماء عصر النهضة قاموا بالشيء نفسه . فالاولون « تحملوا مسؤوليـة » الطب اليوناني ضمن مظاهره العربية ، والآخرون (ثلاثة قرون من بعدهم) حرروا الفكر . وظل ابقراط واريسطو وجالينوس مالهين الا ان اخطاءهم بدات تظهر . ولا يمكن القول بأن « عصرا » ما افضل او اسوا من غيره ، كما يدعي بعض المتحمسين . فكل عصر يتجاوب مع احتياجاته التاريخية ، وقام حسب امكاناته ، بمهمته التاريخية . ففي المرحلة الاولى يحاول العالم ان يجد نفسه في العلمـاء الذين يعجب بهم ؛ وفي المرحلة الثانية يبدأ بمحاورتهم ويبحث في اعمالهم لكي يكتشف وينمي طاقاته الخاصة .

وتتاكد كلمة ليوبولد فون رانك العميقة هنا مرة اخرى اذ يقول : « ان كل عصر هو في مباشرية الله » .

٣ ــ التوتر الذي لا يمكن تفاديه بين الطب العربي والعقلية الاسلامية

مع مراحلـه الثلاثة : صعود ، وقمة ، وانحطاط ، اتبع الطب العربي دورة النمو النموذجية . واذا نظرنا اليها من بعيد ، واليوم ، نجدهـا كأنها نموذج للوحدة والانسجام . ولكن لهذه اللوحـة مساوئها ، كما تبدي ذلك الحوادث التالية : فقد نقل ، مثلا ، ان العالم المترجم حنين ابن اسحق قد هوجم من قبل جمهور غاضب ، وان الرازي جلده احد الامراء . ويقال ايضا ان الفارابي (٨٧٠ ــ ٩٥٠) اكبر فيلسوف عربي تدين له العصور الوسطى بالتفريق الاساسي بين الجوهر والوجود ، قد تعرض للاضطهاد ، على ما يقال . ونعلم من مصادر موثوقة ان ابن رشد

قد نفي فترة من الزمن ، وكان متقدماً في السن ، بأمر من الخليفة المغربي . وتركه تلامذته ، وشتمه الناس ، ولم يصلنا بعض من مؤلفاته الفلسفية الا عن طريق الترجمات اللاتينية .

اذن ، ولكي نكون منصفين تجاه الطب العربي يجب ان نعتبر عاملين : من جهة : الاطباء المارسين انفسهم مع مؤلفاتهم الطبية والفلسفية ، ومن جهة اخرى : الوسط الاسلامي . كان الجالينوسيون مجبرين على تاطير افكارهم واعمالهم ضمن معتقداتهم . فاذا كانوا لا يهتمون بالحلقات الدينية ، فقد كان باستطاعة هؤلاء ان يؤذوهم . ومصدر هذا التوتر هو في الفروق الاساسية ، الجذرية ، بين الفلسفة اليونانية العقلانية ، والدين الاسلامي المنزّل . كان ينقص الشرق الاسلامي رجل مثل توما الاكويني الذي استطاع ان يوحد بين عقيدتين : الارسطاطالية–الافلاطونية الجديدة ، والعقيدة الدينية . وكانت النتيجة ان الاسلام الوسيطي تحمل مسؤولية العلوم الطبيعية والطب ، ولكنه لم يستطع أن يفعل الشيء نفسه مع الفلسفة اليونانية . ان تاريخ فلسفته اللاهوتية ، المحددة بالقرآن بدقة ، هي في اعتبار عريض ، الدفاع عن شخصيته ضد الفلسفة الوثنية (ج بيبر) كان المسلمون المؤمنون ومن لف لفهم يعتقدون ان الاطباء ، والاطباء الفلاسفة ملحدين ، وحتى بعض الامراء « المتفتحين » كانوا ضحية هذا التعصب ، وكانوا التخلص منه يخفون آراءهم الحقيقية ، ويعاقبون فلاسفتهم المفضلين من آن الى آخر للخدعة (د . غوتيه) .

لقد كان للطب ، اذن ، مفهومان في الجو الاسلامي : عقيدة وفن ، وكانا بنموان جسديا ولكن وفي الوقت نفسه ينمو كجسم أجنبي . والمظهر الثاني هذا لفت انظار المؤرخين كثيراً حتى يومنا هذا . ولسوف نتفحص المواقف الثلاثة المتعلقة بها ، ونصنفها بشكل مبسط : نظرية ، ونظرية معاكسة ، وتركيب .

الاولى : هو موقف مؤرخي الطب « الحديثين » . بالنسبة اليهم كل شيء بسيط : بعد ان اخذ العرب العلوم الطبية عن اليونانيين ، اكملوها في مبادىء شتى ، ثم اعادوها الى الغرب حوالي العام ١٠٠٠ . وبكلمة

واحدة : كانوا بالنسبة لمن سبقنا ، « وسطاء » . ومفاهيمهم عن هـذا تفاؤلية تماما : فيقدمون محمدا على انه المثل اللامع للتسامح ، ويرون في الطب والدين علمان اساسيان ، ولم يكن يتورع عن ان يعالج نفسه من قبل طبيب « كافر » . وكان الخلفاء حماة العلماء المتفهمين ، فاذا ما ذكر تعذيبهم للعلماء ، فيكون ذلك بعجالة ، كأنها اشياء مثيرة للفضول. ولم يميز المؤرخ الحديث مشكلة العلاقات بين الطب العربي والثقافة العربية ، او انه صمت عنها .

ونظرية كهذه ، لا بد ان تستدعي ظهور نظرية معاكسة ، وبالضرورة . وجاءت هذه من قبل المستعربين . شعر علماء اللغة هؤلاء ، والمجلوبين نحو الثقافة العربية بشكل خاص ، ان من واجبهم ان يجدوا طبيعتها الحقيقية . وبالنسبة اليهم فان الصورة « الحديثة » تصور الطب العربي بشكل كاريكاتوري . وبسبب ذلك كانوا يصفون الاطباء العرب تارة كخلفاء لليونانيين ، وتارة اخرى كمربين للغرب الوسيطي ، ولكن ليسوا عربا مسلمين كما كانوا قبل كل شيء . ان الاضطهاد يبرهن وحده بشكل لا يقبل النقض ان العلم اليوناني وقع في المشرق على ارض غريبة عنه تماما .

ان استقلال الشرق العربي الثقافي يبدو من ثلاثة وقائع لا تقبل المناقشة. اولا : ان العرب لم يأخذوا الا اقساما مما يسمى بالتراث اليوناني . فلم تترجم اعمال هوميروس ، او الملاحم ، ولا مؤلفات المؤرخين (هيرودوت ، وتوسيديد) قطعا . لم يكتف المسلمون بالاختيار ، بل ان اختيارهم كان جزئيا في رأينا ومقصودا . (ج . كرامير) . لذا فمن الخطأ تسميتهم جملة : « وريثي اليونان » .

ثانيا : لم يأخذوا فقط من المصادر اليونانية . وبامكاننا بسهولة ان نكتشف تأثير الفرس ، والهنود ، والمصريين ، بل حتى الصينيين ، في الطب والثقافة (ج . رال) .

واخيرا وثالثا : لم يأخذوا فقط الاشياء العلمية بل اخذوا ايضا المبادىء الخفية والتأملات الصوفية . ولم يكن اصل كلمة « سيميا » عربيا

صدفة . لقد كان تواجد وامتزاج العلوم والتأملات واللامعقول بالنسبة للاسلام صفة مميزة كما كانت بالنسبة للهيلنيستية .

لم يكن العرب اذن مجرد « وسطاء » بين اليونان والعصر الوسيط الاوروبي . ان موقفهم من الثقافات الاخرى يحمل طابعا اصيلا لا يقبل الجدل . اذن : فلا اليونان ولا الغرب الوسيطي يسمحان بفهم الطبيعة الخاصة بالطب العربي .. ولكن دراسة الثقافة الاسلامية نفسها ولوحدها .

هذا الموقف الثاني ، او النظرية المعاكسة ، هو دون شك اكثر عدلا من النظرية . ويتميز المستعربون بصفة ، تبدو نسبيا ، كانها تنقص « الحديثين » الا وهي : الوعي التاريخي (و . ديلتي) ؛ ولكن واخيرا ، فان النظرية المعاكسة لا تتناسب هي ايضا مع الواقع التاريخي تماما . ان الطب العلمي العربي هو في الدرجة الاولى ذو اصل يوناني . الم نتحدث منذ البداية عن جالينوسية عربية ؟

فاذا ما تأملنا طويلا في الثقافة العربية ، فلسوف نفقد العنصر اليوناني الذي لا يقبل الجدل ، وبهذا نشوه من جديد وجه التاريخ ، وننتقل من طرف الى آخر .

لذلك سنحاول ، في الموقف الثالث ، او التركيب ، ان نكون منصفين نحو المصدرين الاساسيين للطب العربي . ولنبدأ بالمظهر اليوناني ولنعارض به المستعربين : اذا كان هذا واقعا لا يقبل المناقشة ، فذلك لان العرب اخذوا ونموا الطب اليوناني في فكر يوناني . ان الرازي بقراطي صرف عندما يصف الجدري والحصبة ، ولكن الملاحظات التشريحية لكل من عبد اللطيف وابن النفيس تذكر بشكل لا يقاوم بعلماء مدرسة الاسكندرية امثال هيروفيل وايرازيسترات في القرن الثالث قبل الميلاد . هنا يبدو الاطباء العرب وريثي الطب اليوناني فعلا ، ورواد الطب الغربي . وفي هذا الميدان يظهرون كأنهم « ماغرقون » تماما . اذن : ان نظرية « الحديثين » ليست خاطئة تماما .

وخطأها كامن في ثغراتها . لانها تهمل الحدث التاريخي بأن الطب اليوناني

عند العرب تطور في احضان ثقافة مختلفة جذريا عن ثقافته . كان لليونان والرومان دين دولة كما كانت لهم طقوس منزلية ، الى جانب تظاهرات اجتماعية دينية . اما الثقافة العربية فهي مرتبطة بدين جديد منزّل . لذا كان من الضروري ان تؤثر في هذا الطب « المستورد » .

وسنقدم بعض الامثلة . يتميز العربي على اليوناني بلغته الدقيقة رغم انها تعتمد على الصور بشكل مدهش . لذا فهو يفكر بشكل مخالف له ، حتى ولو كان ذلك في أشياء متشابهة . بالاضافة الى ان الاسلام ، ككل الثقافات ، ذو مظاهر سلبية .

لقد منع .. او انه على الاقل عرقل نموا علميا كان جيدا وضروريا اذا ما نظرنا اليه بموضوعية . وتحت تأثير نفوذه لم يتقدم التشريح ، ولا الجراحة ، ولا التوليد ، ولم تستطع الفلسفة التقدم الا بعد صعوبات فادحة . رغم ان مساهمة الاسلام في الطب ليست بالقليلة . كان أدبه اساسا للاخلاق الطبية ، وللحميات ، ولعلم صحة جديد . ومنها دليل نموذجي الا وهو المعالجة الانسانية للمصابين بالامراض العقلية . ونتعرف هنا على الصفات الاسلامية الجالينوسية العربية ، وهذا ما يقودنا للقول بان ثمة جالينوسية عربية .

مع الموقف الاخير هذا فقط يختفي كل تحيز . باخذ التركيب بعين الاعتبار عنصرين : الطب اليوناني الذي تابع تطوره في المشرق حسب تقاليده الخاصة ، ومنهجيته العلمية الخاصة ، المستقلة عن الشروط التاريخية الجديدة ، والجغرافية والثقافية ، والثقافة العربية التي تؤثر عليه سلبيا وايجابيا على السواء . ولا يحذف قطب منهما الآخر . يجب علينا فقط ان نتعلم ان « نفكر فيهما سوية » ، كما فعل العرب هم انفسهم . وهنا ، ليس باستطاعة اية عقلانية تبسيطية على شكل « أو / أو » ان تساعد على الفهم . لقد كان جورج كريمر محقا عندما يشدد في قوله : عند العرب ، مثل اليونان قبلهم ، مقدرة غير محددة تقريبا على توحيد الاضداد .

٤ ـ نتائج

تاكيد تاريخي ـ جالينوسية ـ طب وثقافة

يقدم الطب العربي ، اذن ، اكثر بكثير من تعاليم جالينوس المزينة ببعض المعلومات الجديدة . انه واقع معقد ، حاولنا قدر الامكان ان نعيد له حقه ، وذلك بثلاثة طرق مختلفة .

اولا : حددنا الاصول والامتداد التاريخي لشيء مثير للفضول الا وهو : « الفاصل الشرقي » خلال تطور الطب الغربي . ثم سلطنا النور على تطور ونجـاح الطب الغربي ، واخيـرا اظهرنا كيف كان وضع التراث الفكري اليوناني في الجو العربي . وسننهي الموضوع ببعض الملاحظات على هذه المواضيع .

فلنعد وخلال بضع لحظات الى القرن السابع ميلادي بينما كان الطب الغربي المتقدم يتحول الى الشرق العربي . ولكننا لا نجد في تاريخ الطب اي حادث يشير بوضوح الى قيود الحتمية التاريخية في مثل هـذه الظاهرة . في بداية هذا العصر الحرج ، كان مثل هـذا الانتقال شيئا لا يمكن التنبؤ به ابدا ، بل وغير مقبول .

وهـذا لا يعني انه يجب الشك في وجود حتمية تاريخية ، اي علاقـة سببية عامة بين الحوادث . تتجه مختلف مراحـل تاريخ الطب نحو اهداف ومثل مختلفـة ، كل واحد منهـا « محدد » باسباب داخليـة وخارجية . تتوالى هذه المراحل وتخضع لعوامل مسببة الى حد ما : زمن المبدا المثالي والمبدا المادي ، العقل واللاعقلانية « المستشرقة » تتوالى كلها بانتظام . ونعرف بالاضافة الى ذلك قوانين تاريخية ، فكل مراحل التقدم الكبيرة كانت ذات اتجاه واحد ، والتفكير الطبي الزائد عن الحد يقود الى ارتكاسات متشككة احتياطيـة . وتتكرر الحوادث نفسهـا ، ضمن الشروط نفسها ، ولقد عرف ذلك توسيديد منذ زمن بعيد . ولا يقوم الطبيب وحده بوضع الانذارات ، بل المؤرخ يفعل ذلك ايضا .

ولكن يوجد شيء واحد لا يستطيع المؤرخ ان يقوم به ، حتى ولو كان

متنبئًا متفوقـا وثاقبا للفكر : فلا يستطيع ان يحـدد الصفات المميزة لمرحلة ما اعتبارا من مرحلة سابقة . لأن كل منها ، مثل مراحل التطور البيولوجي ، تنحو الى اخذ شكل خـاص لا يمكن تبديله . ولا يفهمها كمرحلة تاريخية الا اذا وجدت وعاشت واتخذت ذلك الشكل . ولا دليل على هـذا اقوى من المغامرة العربيـة الاسلاميـة في الطب . فلم يكن باستطاعة بيزنطـة في بدايتها ان تتنبأ بصفات هـذه الاخيرة حتى ولا بوجودها . ولم نصبح اليوم اكثر ذكاء . ويجب ان نحذر علماء المستقبل اي هؤلاء الذين يرسـمون المستقبل بثقة بدائية ، على انه تضخم الحاضر : تضخم التقنية ، وتضخم التنظيم ، انهم يفتقرون الى الخيال . اذن : فللحتمية التاريخية حدودها ، ويجب ان نأخذ ذلك بعين الاعتبار كما نأخذ الحدود ايضا بعين الاعتبار . ويوجـد عـر تنبؤ تاريخي ايضا . وتحليل الطب العربي يقربنا من جوهر الجالينوسية ويظهر المدافعون عنها في التاريخ المختص ، وبشكل عام ، وكانهم اشباح مكللة بالغبار . وتتناسب هذه الرؤية مع المرحلة النهائية ، اي مع التقاليد البقراطية الجالينوسية في نهايـة القرن السابع والثامن عشر ، ولكن ثمـة ايضا وبشكل لا ينكر جالينوسية ابداعية ، ويقدم الطب العربي مثلا مقنعا على ذلك بابتكاراته العديدة . وبالتالي فان جالينوسيي عصر النهضة امثال : فيزال ، وهارفي وتلامذتهما ، ليسوا أقل غنى واستيحاء . يجب علينا ان ننظر الى الجالينوسية نظرة جديدة . ونكون قد عاكسنا التاريخ اذا ما حكمنا على تيـار فكري ما حسب اخطائـه وضياعـه في اثناء عصر انحطاطه ، فقط . ان تاريخ الجالينوسية يحتاج الى كتابة من جديد . وتبدو أهميتها بشكل كاف عندما نتذكر بأنها سيطرت على الطب خلال خمسة عشر قرنا ، اي نصف او اكثر من نصف عمر الطب في الغرب .

وآخر ملاحظاتنا تدور حول موضوع هذه المحاضرة المشوق : العلاقات بين الطب والثقافة . يعتبر الاسلام ، بحق ، كجواب متأخر من قبـل الشرق على فتوحات اسكندر الاكبر . كتب كريستوفر داوسون يقول : « كان محمد رد الشرق علـى تحدي الاسكندر » لذلك ، وضمن هـذه الشروط ، كان على الجالينوسيين العرب أن يصطدموا اجباريا ومنـذ الانطلاق بالتناقض . كانوا يقدمون ارفع شكل للمعرفة الطبية ، ولكن

الشروط الاولية الفلسفية لهذه المعرفة كانت تتعاكس مباشرة مع العقيدة الاسلامية : فلا يوجد وحي عند افلاطون وارسطو . لذا كان التوتر بين هذين القطبين لا يمكن تجنبه .

اذن ، العلم والثقافة في فترة ما لا تنسجم اجباريا مع بعضها البعض . ويبدو هذا من امثلة اخرى ايضا . ففي عهد بيريكليس اضطر الفيزيولوجي اناكزا جور الى الهجرة من اثينا لانه كان يعلّم الطلاب بأن الشمس ليست الهابل كتلة صخرية متوقدة .

وفي القرن الثالث عشر ، منع البابوات الفلاسفة وعلماء الدين من شرح كتب ارسطو غير التقليدية والترجمة منذ فترة من العربية ، وذلك لفترة مامن الزمن . « وقضية جاليلو » اثناء عصر النهضة ، تقع ايضا في الموضوع نفسه . وفي القرن التاسع عشر ايضا ، ظلت الاكاديمية الفرنسية موصدة الابواب في وجه العالم الشهير (والاخصائي بابقراط) اميل لتريه ، لان افكاره الايجابية لم تكن تعجب الكنيسة . والتوتر بين العلم والثقافة بالنسبة لعرب اليوم ، لايقل الا بشيء بسيط عما كان عليه بالنسبة لاجدادهم عام ۱۰۰۰ . فالبنية التحتية الميتافيزيقية للعلوم الطبيعية والطب الحديث ، لا تنسجم مع القرآن ، كما كانت حال مبادىء الفلسفة الارسطالية الافلاطونية الجديدة للجالينوسية العربية . ولقد ظهر صدام عنيف بين المحافظين على التقاليد ومحبذي التقدم .

ستقولون : ان هذا النوع من الصعوبات لايوجد في الغرب المعاصر . لقد ولد العلم الذي نطبقه ، في اليونان وهو في تقدم مستمر دون هوادة . اذن ، فنحن اكثر غربية مما كنا عليه قبلا . ولكن الاشياء ليست بهذه البساطة . يسيطر العلم والتقنية في الوقت الحاضر على كل فروع الثقافة الاخرى ، واحتمالات وجودها هي نفسها لم تعد متوازنة ، فاحتمالات التقنية هي الغالبة . وكل من يعتبر العلم شكلا لتامل الكون وبحثا عن الحقيقة بدون مصلحة ، هو في نظر الناس رجعي . ابشع من ذلك ايضا يخضع العلم والتقنية اكثر فاكثر لخدمة المصالح الاقتصادية والسياسية ، وهكذا فقد اصبحت اسلحة في ايدي السلطة . وخلال

هذا الوقت يشعر الانسان اكثر فأكثر بالتغريب ؛ وهو الذي اهتز التطور الصناعي من اجله (كارل ماركس) : فقد حط من قدره حتى وصل الى منزله آلة عمل بسيطة ومجرد مستهلك . وحتى عندما ينتهي من العمل ، فلا يعرف الراحة فعلا : فالضجة في الشارع والهواء ، والناس ، ينزعون عنه كل راحة فكرية ممكنـة ، وحتى في بيته فيستمر بالشعور وكأنه يفرغ من شخصيته . وقد قيل عن هذا الموضوع ، وبحق كبير ، انه التعجرف العلمي. العلم والغرب ليسا كلمتين مترادفتين. فرغم الفتوحات الفكرية وفوائدها العملية ، فانها تتحول امام اعيننا الى بؤرة مرضية قاتلة .

وبالنسبة لنا ايضا نحن الغربيون ، تنشق امامنا هوة بين العلم والثقافة . والوقت الذي سنفهم فيه بشكل اسهل عذاب المسلمين المؤمنين ليس بالبعيد . فلنأمل اذن ان يتكاثر عدد الاخصائيين الجديين في الطب العربي.

المناقشة

لابد ان نتوقف امام عدة افكار يطرحها المؤلف بالحاح .

اولها : التوتر ما بين العقلية الاسلامية والعلم اليوناني .

فهو لا يجد اي انسجام بينهما بل على العكس تضاد تاريخي واضح ، ويعلل ذلك بان الاسلام يعني « الاعتماد على الله » ، وربما كان يشير الى « التواكلية » التي طالما عير بها الغرب الدين الاسلامي . فبما ان المسلم يعيش « وعيناه مثبتتان » على العالم الآخر ، فكيف يهتم اذن بالحياة الدنيا ؟ هذا الاهتمام الذي يدفعه الى البحث العلمي . الواقع ان الاسلام لم يدفع بالمسلم الى هذا الاعتقاد . فلقد ظهر في العهود المتأخرة تحت تأثير التعاليم الصوفية المستوحاة هي نفسها من التعاليم المسيحية .

فلقد قال الرسول : لارهبانية في الاسلام . وقال عمر : اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا واعمل لآخرتك كانك تموت غدا . وقال (صلعم) : ان لجسدك عليك حقا ..

اي ان الاسلام حض المؤمن في اثناء حياته على ايجاد التوازن بين الجسدي والروحي ، ولذلك كان الحديث : العلم علمان علم الابدان وعلم الاديان . وهذا لايعني ، كما يفهم

من كلام الاستاذ المؤلف انشقاق بين العلمين وتضاد وتعاكس بل اعتراف بهما أولا ثم محاولة لايجاد توازن وانسجام بينهمـا . ودليلنا ان الكثيرين مـن الاطباء كانوا فقهاء وفلاسفة . واكبر مثل هو ابن النفيس الذي ذكره المؤلف نفسه فلقد كان من كبـار الفقهاء الشافعيين وله مؤلفات كثيرة في الموضوع ولكنه في الوقت نفسه كان عالما موضوعيا عقلانيا وذلك يبدو في كل كتاباته ، منها الجملة التي يقول فيها : « الارواح ، ولا نعني بها النفس كما يراد بها في الكتب الالهية ، بل نعني جسما لطيفا بخاريا يتكون مـن لطافة الاخلاط لتكون الاعضاء من كثافتها » .

وذلك لان بعض العلماء حاول الربط بين كلمة الروح هنا والروح النفسانية ولكن ابن النفيس رفض ذلك ووضع النقاط على الحروف بشكل لا يقبل الجدل . وهو في هذا ، وفي رأينا ، لم يخرج عن سنة الرسول عندما حاول البعض من الصحابة الربط بين خسوف الشمس ووفاة ابنه قاسم ، فما كان من الرسول الا ان نقض ذلك .

لقد استطاع امثال ابن النفيس وابن سينا القيام بما قام به القديس توما الاكويني من الربط بين : الفيزياء والميتافيزيقي ، بين الجسد والروح ، بين الدنيـا والآخـرة ، بين الفكر الثائر وفكر السلطات .

ولكن التوتر لابد أن يقوم ليس فقط للتضاد الكائن بين هذه العناصر . بل أيضا بين القديم المعروف المستتب ، والحديث المناهض والناقد . وذلك في كل العصور والبيئات. ألم يحكم على سقراط بالموت في ظل الفكر اليوناني العقلاني ؟. ثم نفذ فيه . ألم يحرق توفليا توزي بامر من البابا لانه قام باول عملية تجميل أنف في بولونيا بايطاليا ؟ وفي القرن العشرين ألم يحاكم اوبنها يمر وغيره من العلماء والمفكرين من قبل الماكارثية في اميركا ؟

الم يتهم كثير من العلماء والفنانين السوفييت ثم زجوا في السجون أو في مستشفيات الامراض العقلية ؟

ان هذا العراك دائم أزلي وليس مـن خصائص الاسلام او تناقض لتعاليمه مـع الفكر اليوناني .

اما القول بان القديس توما الاكويني حل المشكلة وان الاسلام يفتقر الى رجل مثله ، ففيه الكثير من المبالغة .

نعتقد ان الغرب لم يتقدم بفضل تعاليم الاكويني ، بل بسبب فصل الدين عن الدولة وعزل الكنيسة .

وهكذا ففي عاصمة النهضة الاوروبية فلورانسا قام سافونا رولا يهاجم الفكر الناهض في ذلك الزمان ... وتوقفت عجلة التقدم ، حتى اخذت السلطة الراهب هذا واحرقته في المكان نفسه الذي كان يلقي بها حممه على النهضة ورجالاتها ، ومن ثم اندفعت العجلة قدما الى الامام .

بل حتى في عصرنا هذا . ألم يتدخل البابا فامر بمنع الحبوب المانعة للحمل ؟ ولكن اوروبا الغربية لم تستمع اليه ومضت في تنظيم مجتمعاتها حسب « الفكر اليوناني » . أما الذي استمع الى « الفكر الاكويني » فهي بلاد أمريكا الجنوبية الغارقة في مشكلات التخلف وعلى رأسها ازدياد عدد السكان بشكل مضطرد .

ان الاسلام متهم بريء . وكما قال الاستاذ نفسه فلا يجوز الحكم على حضارة ما من خلال عصر انحطاطها ، والتواكلية الاستسلامية هي من الظواهر البارزة للانحطاط .

ولقد اعجبني كثيرا ماذكره الاستاذ حول نظرية « الحديثين » القائلة بان العرب « نقلة » أو « وسطاء » بين اليونان والغرب .

وتلك نظرية قديمة زاد الصهاينة ومن لف لفهم من جدتها ... ونزيد على كلام المؤلف بضع نقاط :

اولا : اخذت النظرية البقراطية جذورها من مصادر آشورية ، وهندية ومصرية . ولقد ثبت ذلك بالبراهين الدامغة وستزداد كلما تقدمت البحوث والاكتشافات .

ثانيا : وكما يقول الاستاذ توجد آلاف المخطوطات الراقدة في المكتبات المختلفة تنتظر الباحث الجاد ليكشف عنها ، وما كشف من « ابتكارات » (كالدورة الدموية لابن النفيس ، وتشريح الفلك للبغدادي ، والرشح التحسسي للرازي الذي نسي المؤلف ان يذكره) لم يكن سوى وليد المصادفة ، وليس البحث الجاد المنظم . وهو الذي يفتقره الطب العربي ، والعلوم الاخرى ، حتى نستطيع اطلاق الحكم الاخير على الطب العربي .

ثالثا : لا يضير العرب ان لا تكون لهم نظرية طبية خاصة ، فان العلم

الحديث يفتقر الى نظرية مماثلة تضم شمل الطب كله ، فمنذ ان نقض النظرية البقراطية فهو يعيش بلا نظرية .

ولفت نظري استشهاد المؤلف بقول لكريستوفر داوسون « كان محمد رد الشرق على تحدي الاسكندر » .

وهنا تكمن ايضا فكرة خاطئة في رأينا . لقد هاجم الاسكندر الشرق حبا في المغامرة ، وطمعا في المال والسلطة والمجد والخلود ، شأنه شأن الكثيرين من الغزاة في التاريخ .

وهاجمت جيوش الفتح الاسلامية وهدفها الاول نشر عقيدة انسانية تضم شمل الامم جميعا تحت لواء العدالة ، والأخوة ، والانسانية ، والحياة السعيدة في الدنيا والآخرة .

لذلك ما ان انحسرت جيوش الاسكندر حتى انهار كل ما فعله ، بينما لا يزال الاسلام يعيش في تلك البلاد مزدهرا .

ثم ان الاسكندر حاول توحيد الامم عن طريق المصاهرة فزوّج ضباطه وجنوده من هنديات وفارسيات وسوريات . ولكن الحل الذي طرحه الرسول هو ان توحيد الامم لا يكون الا عن طريق الايمان بعقيدة واحدة .

وهذا هو الحل نفسه الذي استقرت عليه الامم في القرن التاسع عشر اذ اختارت طريق الديموقراطية وفي القرن العشرين اذ دعت بعض الامم الى الايمان بالعقيدة الماركسية . اي انها عادت الى الحل الذي طرحه الرسول العربي منذ اكثر من الف وثلاثمئة عام .

ان الوحدة الفكرية ، على الاقل ، التي تشد المسلمين في العالم كله اقوى من الوحدة التي تشد مسيحيي اوروبا الغربية ، رغم ما قد يبدو هذا غريبا ومتناقضا ، ولكنه واقع لا يمكن انكاره .

ثم ان الغرب بسعيه اللامتناهي وراء المادية الراسمالية افقد الانسان انسانيته ، و « فرّغه » منها كما يقول المؤلف وجعل منه « آلة للانتاج » و « جهازا للاستهلاك » ، فهل وجد الإنسان الاوروبي سعادته في ذلك ؟ لا اظن ... واعتقد ان النظرة العربية الاسلامية الى العقلية اليونانية في

أوج عصرها الذهبي كانت أفضل بكثير لانها « أكثر تلوينا وتنوعا » كما. ذكر المؤلف في احدى رسائله الي ، وهي سبب الهوة التي سقط فيها الغرب الحديث ، هي في راينا ، اذ يقول : « ان العرب ايضا وبصورة عامة هم وريثو اليونان في طريقة تفكيرهم ايضا المنوعة كثيرا ، والتي باستطاعتها التقاط الواقع بأشكال عديدة ، بعكس العقلانية الاوروبية التي تلجم الواقع التاريخي وذلك بحصره في نماذج منطقية جامدة جدا » .

اما اعتماد المؤلف على قصص الاضطهاد لدعم نظريته في التوتر بين العقلية العربية الاسلامية والعلم اليوناني ، فتحتاج الى مناقشة .

فلقد احيط العلماء العرب بوابل من القصص والاساطير ، وتداخلت عناصر كثيرة في الموضوع لتزيد من تفاقمه كالعنصرية (مؤلف فارسي يقدم صورة مختلفة عن مؤلف عربي مثلا) او ديني (مؤلف يهودي يرجع كل ابتكار الى اليهود) الخ ..

اما بالنسبة لحنين بن إسحق ، فاضطهاده (ان صح) كان مرجعه الحسد والغيرة التي شعر بها زملاؤه في ايامه ، لما بلغه من حظوة وشأن وغنى . فلقد كان يتميز بذكاء نادر وحيوية فائقة جعلته يترجم اكثر من مئتي كتاب من عدة لغات وبشكل جيد ، وكان المأمون يزن كتبه ذهبا وينقده اياه ، لذا فقد كان على ما يقول البعض ، يكتب على ورق ثقيل ويكبر الكلمات ليزيد الوزن .

وهكذا فلم تكن اسباب محن ابن اسحاق فكرية ، بل عاطفية مادية . ولم يكن ذلك ممكنا في ايام المأمون الذي كان يحترم عقيدة المعتزلة وهي عقيدة عقلانية صرفة .

اما قصة تعذيب الرازي فهي تقول بأن نوح بن منصور استدعى الرازي وكان هذا قد اهداه كتابا في الكيمياء ، فأمره ان يقوم بالتجارب المذكورة في الكتاب واحضر له كل ما يلزم لذلك ، لكن الرازي فشل ؛ عندئذ امر نوح بضرب راس الرازي بالكتاب حتى يتمزق . وهكذا كان . وتدعي الاسطورة هذه ان هذا هو السبب في ضعف بصر الرازي في اواخر ايامه ، مع ان الرازي اصيب بالساد شأن معظم الشيوخ المسنين وان بينه وبين

نوح ما لا يقل عن مئة عام من الفارق الزمني . والقصة ملفقة حتماً من قبل الحساد والاعداء .

والملاحظ ان المؤرخين في هذا المجال يكررون هذه الاخبار دون تمحيص وتدقيق فيكررونها حتى تصبح حقيقة ، حسب المنطق المكيافيلي (اكذب اكذب حتى يصدق الناس اكذوبتك) .

من هذه الحقائق الميكيافيلية ادعاء كل من ابي اصيبعة والقفطي وابن العبري نقلا عن ابن جلجل ، ان اسحق بن حنين تتلمذ على الخليل بن احمد النحوي . مع ان حنينا ولد عام ١٩٤هـ اي بعد موت الخليل بنحو عشرين سنة .

ومن هذه « المحن الميكيافيلية » القصة التي تروى عن ابن الجزار القيرواني: خرج الملك المعز في رحلة وكان الطقس شتاء قارسا ، وثلجا هاطلا . فهلك بعض من معه . واصيب الملك بداء (وهو في الاربعين من العمر) فعالجه سليمان بن اسحق الاسرائيلي فلم يشف فطلب في طبيب آخر ، فجيء بطبيب شاب (هو ابن الجزار على ما تدعي الاسطورة) فوصف له اعشابا توضع في قنينة توضع هي نفسها على النار ، ليتنشق منها .. ففعل فمات . فجاء الاسرائيلي واتهم ابن الجزار بقتله بسبب جهله لانه وضع دواء منوما (كذا) فشمه فمات .. وكاد ابن الجزار ان يقتل لولا ان تدخل الاسرائيلي (وكان استاذه) فقال انه خطأ شائع عند الاطباء ، وانقذ تلميذه (كذا) . والقصة في رأينا ملفقة ، فلدى دراستنا كل الاعشاب المعروفة في ذلك الزمان لم نجد منها ما يخدّر بواسطة تبخيره . ولدى مراجعة الكتب الطبية القديمة تبين ان معالجة الزكام (ولا تزال) تعتمد على استعمال التبخيرات الملطفة . ومن التحليل العلمي للقصة يتبين ان الملك كان مصابا بالتهاب رئة وقصبات حاد اختلط باصابة قلبية أودت بحياة الملك .

والواقع ان في تاريخنا العلمي الكثير من امثال هذه القصص التي يجدر بالباحثين اعادة النظر فيها من جديد .

● ● ●

وخلاصة القول ان بحث الاستاذ الدكتور ليشتاتيتلر جدير بالقراءة والتمحيص ، بل كل الكتاب .

والجدير اكثر هو مناقشة آرائه . والباب مفتوح لكل من يود ذلك ، وهذا بناء على رغبة المؤلف نفسه .

ماهو علم النفس ؟

جان بياجيه
ترجمة : بلال الجيوسي

لقد تشرفت للغاية بالثقة التي عبرتم عنها بمنحي جائزة « ادوارد لي ثورندايك » عن عام ١٩٧٧ . كما تأثرت بالاستثناء الذي سمحتم لي فيه بتكليف شخص آخر بالقاء هذه الكلمة(١). لان مشقة السفر خارج اوروبا أخذت تزداد ـ بالنسبة الي ـ باستمرار . ان امتيازي الاساسي هو انني محاط بمعاونين من ارفع مستوى ، كما ان الكتب التي الفتها خلال السنين الماضية قد شارك فيها آخرون ، أسهموا في مادتها الرئيسية ، بدءا من « ب . انهيلدر » .

واذا كنت قد اعطيت كلمة اليوم عنوانا واسعا ، فان هذا يعودُ ـ جزئيا ـ الى ان العامة لاتعرف تماما التطورات المذهلة التي حدثت في علم النفس منذ بداية هذا القرن . لقد انهى المؤتمر الدولي الثامن عشر لعلم النفس ـ الذي انعقد في موسكو عام ١٩٦٦ وشارك فيه ٦٠٠٠ شخص ـ اعماله بكلمة وجهها بول فريس وكان ـ عندئذ ـ الرئيس الجديد للاتحاد الجديد الدولي لعلم النفس العلمي . وفي هذه الكلمة لخص « فريس » انطباعاته

---

(١) هذه المقالة هي كلمة لجان بياجيه موجهة الى المؤتمر السنوي للرابطة السايكولوجية الامريكية APA ، الذي انعقد في سان فرانسيسكو ، في آب ١٩٧٧ . وقد منحت اللجنة الخامسة عشرة في هذا المؤتمر (لجنة علم النفس التعليمي) بياجيه جائزة « ادوارد لي ثورندايك » عن هذا العام لمساهمته السايكولوجية الممتازة في ميدان التربية . وقد ترجم المقالة الى الانكليزية ، والقاها ـ امام المؤتمر ـ نيابة عن بياجيه « كونستانس كامي » :

بعبارة مدهشة : « لم يعد هناك موضوع محرم على علم النفس » . ولنسق مثالا واحدا عما يعنيه . فمنذ عرف علم النفس على انه علم للسلوك وليس الشعور فقط ، فقد انتابنا قلق من انه سيهمل الشعور ، وقد حدث هذا ـ بالفعل ـ عند بعض المتطرفين . ولكن مشكلة الشعور عادت ـ على أية حال ـ الى واجهة علم النفس مع اعمال بعض علماء النفس العصبي حول اليقظة او الانتباه ، ومع دراسة النمو . والجميع الآن يهتمون بالشعور بما في ذلك علماء النفس الروس بغض النظر عن فلسفتهم .

ولي خمس ملاحظات اقدمها حول علم النفس :

الاولى ، قد تكون واضحة ولكن ليس للجميع . وهي ان علم النفس ليس علم الفرد وحسب ، ولكنه علم الانسان بشكل عام ، خصوصا علم « الذات » بالمعنى الواسع ، قد يهتم علم النفس التطبيقي ـ بالتأكيد ـ في حالات معينة ـ بحالات فردية . وتمثل الدراسة التجريبية والنظرية للحالات الفردية فصلا هاما يدعى « علم النفس الفرقي » (أو « علم نفس الفروق الفردية ») . ولكن حتى في علم النفس التطبيقي فان الذات ـ بشكل عام ـ تتدخل بالضرورة . واذا اردنا اصلاح تدريس الرياضيات والفيزياء ، فاننا لا نستطيع أن نهتم فقط بتخلف بعض التلاميذ الافراد أو الصعوبات التي يلاقونها ، ذلك ان المشكلة تتكون أولا من وضع معرفة الرياضيات أو الفيزياء ، او أي علم آخر في الاطار الكلي لعملية الذكاء وتطورها ، وهي مشكلة تتصل بالذكاء الانساني في كليته وترتبط بمشكلات عامة في المعرفة ، ساعود اليها بعد قليل .

أما ملاحظتي الثانية فتستدعي تعليقا اوفى . علم النفس هو علم طبيعي ، واذا كان هذا الامر مفهوما الآن في معظم البلدان ، فانه يسرني أن اشير الى ان هذا الوضع لعلم النفس في تصنيف ميادين المعرفة قد كان موجودا بالفعل منذ وقت طويل في تقليد « جنيف » العريق منذ ١٨٩٠ عندما اسس المنصب الذي تشرفت بتوليه حتى تقاعدي عام ١٩٧١ . وقد اراد « ت . فلورنوي » أن يضع هذا المنصب في كلية العلوم ، وغالبا ما يضرب هذا مثالا . لكن هذا الوضع يكون ـ في بعض الاحيان ـ مصدر سوء فهم حقيقي عندما يعارض بعض الفلاسفة (هوسرل والفنومنولوجيا وغيره) ما هو طبيعي بما هو متعال ، كي يؤكدوا عدم كفاية النزعة الطبيعية Naturalism ولنتذكر ان المتعالي ـ كما يراه الفلاسفة ـ يشير الى شروط سابقة للمعرفة ، والى أدوات للمعرفة توجد قبل التجربة ، بمعنى منطقي أكثر منه زماني ، وأعني بها الادوات (المعرفية) الضرورية لجعل التجربة ممكنة . فاذا

استخدمت مصطلح « المتعالي » هنا (وانا لا أستخدمه غالبا) فاني افعل ذلك ـ ببساطة ـ للاشارة الى ما يأتي ـ في المعرفة ـ من البنى التي تنشئها الذات ، لا من الموضوع . وساعود الى هذه النقطة قريبا فيما يتصل بمناقشة الافعال .

وقد تسبب بعض العلماء أيضا ـ كبعض الفلاسفة ـ في حالات سوء الفهم هذه . وينبغي علينا أن ننشد مصدر سوء الفهم هذا في « الوضعية » التي اعطت صورة محدودة جدا للطبيعة خصوصا في العلوم الطبيعية ، فجعلت من نفسها هدفا سهلا لا يتطلب حتى تسديدا دقيقا . ان الوضعية هي نظرية حدود العلم ، وقد اراد الوضعيون تحديد العلم في مشكلات معينة ، واعتبار مشكلات أخرى « ميتافيزيقية » (ومن هنا ظهر اغراء اقامة علم نفس علمي ، وعلم نفس « فلسفي ») .

لكننا نعرف أن هذه الحدود انتهكت باستمرار . لقد حرم أوغست كونت « التفسيرات العلية » لصالح البحث عن « قوانين » فقط ، ولكن العلماء في الواقع لا يكتفون بوصف الظواهر ، ولا يكفون عن البحث عن تفسيرات .

لقد ادان « كونت » حساب الاحتمالات ، ودراسة الفيزياء الفلكية ، واستخدام الجبر . كما حرم الوضعيون الذين اقتفوا أثره دراسة الذرة عندما تكون نتيجة للبحث عن الاسباب . ونحن نعرف ما حدث لكل هذه المعتقدات . ومن المفيد أن نتذكر هذه الوقائع من وقت الى آخر لان هذا يسمح لنا بالحكم على تحريمات أو حدود معينة لا يرغب احد اليوم في فرضها على العلم .

فلا العلم ولا علم النفس وضعيان . انهما « منفتحان » لمشكلات جديدة دون حدود ، ويعيشان على الازمات والثورات مثلما يعيشان على الاستمرار والتقليد (انظر كوهن ، ١٩٧٠) . وهما يخضعان لكل الحقائق الجديدة ، وينبغي عليهما أن يفحصا مبادئهما ومناهجهما باستمرار . وهما يقران بالمبدأين الاساسيين اللذين وضعهما « فلورنوي » لنفسه منذ فترة طويلة : ١ ـ كل شيء ممكن (« فهناك أشياء كثيرة في السماء وفي الارض .... ») ، ولكن ٢ ـ يجب أن تتناسب قوة البرهان مع غرابة الوقائع أو جدتها .

وانطلاقا من هذه الرؤية فان « النزعة الطبيعية » بالمعنى التقليدي (وبالمعنى الذي اراد « هوسول » أن يعارضه) ليست دعوى خرافة وهذا صحيح لسببين : الاول هو أن الطبيعة لا يمكن استنفادها ، ويمكننا أن نعرفها فقط عن طريق التقريب المتتابع . ولقد كان خطر النزعة الطبيعية ـ كما نفهمها من خلال الوضعية ـ يكمن في الاختزال **Reduction**

للمفاهيم ذات المستوى الاعلى الى مفاهيم من مستوى أدنى ، كما يتمثل هذا في الاختزال البالغ فيه لميكانيزمات معينة ذات مستوى أعلى الى المنعكسات الشرطية . ولكن الذين آمنوا بهذا الخطر لم يرتابوا في امكانية وجود صور للفكر كتلك الموجودة في التيارات الجدلية المعاصرة . ونحن عندما نحاول - في الواقع - أن نختزل المفاهيم ذات المستوى الاعلى الى مستوى أدنى ، فان الاختزال ظاهري فقط ، لان المفاهيم « ذات المستوى الادنى » ستثرى - عاجلا أم اجلا - بمفاهيم من المستوى الاعلى . وهذا ما رأيناه عند « اينشتاين » عندما اختزلت الجاذبية النيوتونية الى الهندسة . كما أثرى علم النفس الحيواني البيولوجيا بالفعل عندما فسر بعض الباحثين مثل « ج . ج . سمبسون » علم النفس الحيواني كعامل في التطور .

أما السبب الثاني فهو أن المعرفة أو علوم الطبيعة تخضع باستمرار لعملية اعادة تنظيم . وما من علم في الواقع يمكن أن يحدد مستوى واحد ، فكل علم من هذه العلوم يتضمن مستويات معرفية متعددة ومتميزة . لذلك تتضمن كل علوم الطبيعة جوانب متعالية بالمعنى الذي عرفناه سابقا ، أي الادوات الضرورية للبناء ، وهي جوانب متعالية كامنة في البحث ذاته ، وتكون في حركة وبناء دائبين يندان عن الصياغة الجامدة والنهائية . ويوجد هنا - في الواقع - تقدم التكامل في العلوم (لا ننفصل عن توسعها) ، وهو يتألف من التخطيط المستمر للشروط الجديدة للمعقولية ، وهي شروط متعالية بالنسبة الى مضمون الخبرة القادمة . والعمل في الفيزياء أو البيولوجيا - على سبيل المثال - يستلزم الرياضيات والمنطق ، وهذان المجالان الاخيران لا يقومان على الوقائع ولكن على الانشاء الانساني اللامحدود وتآزر افعالنا ذاته في مواجهة الواقع .

غالبا ما تسبب هذه الفكرة عن افعال « الذات » سوء فهم لأن هناك نزعة لرد الافعال الى مجرد افعال مادية ، في حين انها يمكن أن تستدخل في صورة « عمليات عقلية » ، والعمليات ذاتها يمكن (بل وحتى يجب) أن تتآزر في « بنى » كالتسلسل والتصنيف والتعداد . هذه البنى التي ينشئها الاطفال بانفسهم (ولا يتلقونها من الخارج) تنجم عن افعالهم . تتكون البنى مما « يمكن » للاطفال أن يفعلوه في مواقف معينة ، وليس مما يفكرون فيه (فوعيهم بما يفعلونه يبقى ناقصا دوما) . وفي الحقيقة ، فان الافعال الاولية تبدأ مادية (تحريك الاشياء ، جذبها ، دفعها ، قلبها ... الخ) ولكن حتى على المستوى الحسي الحركي فانها تصبح متآزرة فيما بينها في بنى مثل المجموعة « العملية » للازاحات . وفيما بعد ، فان هذه الحركات نفسها وغيرها أخرى كثيرة ومعقدة سوف تنفذ على نحو

عقلي ، ولكنها ستبقى أفعالا تثري الواقع بجملة من التحولات الممكنة ، أي ببنى تنشئها الذات ، وبدونها تستحيل معرفة الموضوعات .

واذا بقينا في مجال الامثلة المكانية ، فان المرء يمكن ان يضرب مثالا بحالة الانظمة المرجعية أو الاحداثيات التي تتيح للاطفال من سن ٧ ـ ٨ سنوات ان يفهموا أن تحديد وضع نقطة على سطح يتطلب وجود احداثيين : الاول عمودي والآخر أفقي . ويعتقد الاطفال الاصغر سنا أنه يكفي استعمال خط واحد مائل يبدأ من احدى زوايا السطح . وهؤلاء الاطفال لا يدركون انهم اذا فعلوا هذا فان هناك مواضع كثيرة ممكنة غير محددة ، وذلك وفقا لزاوية الخط المائل . وهذا مثال حسن لافعال لم تصبح بعد ذات طبيعة متصلة بالعمليات ، ولم تتوصل ـ بعد ـ ايضا الى « بنية » . والبنية التي ينشئها الاطفال فيما بعد ، تعبر عن معرفتهم لكيفية ما يفعلونه ، وما يفهمونه بوسائلهم الخاصة .

وبالمثل ، في حالة بنية منطقية كالسلسلة : أ ب ح د .... ن . فالاطفال من سن ٧ ـ ٨ سنوات يفهمون ويستنبطون مباشرة أن هناك عدة عناصر أكبر من أ (أي من ب .... ن) . كما أن هناك عناصر أصغر من ن (أي من أ الى ن ـ ١) . والاطفال الاصغر سنا أي من ٥ ـ ٦ سنوات ـ من ناحية أخرى يحتاجون الى عد العناصر في كلا الاتجاهين للاجابة عن السؤال .

وهكذا نرى بوضوح ـ في هذه الحالة ـ أنه عندما ينشىء الاطفال بانفسهم بنية من الافعال والعمليات (ونحن نعرف جيدا المراحل المتعاقبة والشاقة لانشاء هذه السلسلة) فان هذا يمنحهم « قوى » جديدة تثري معرفتهم بالموضوعات .

يجب ان تضاف الى هذه البنى المكانية والحسابية المنطقية بنى سببية (أو مادية) تستند ايضا الى استنباطات منطقية . فالاطفال الصغار ـ على سبيل المثال ـ يعرفون ان ثقلا ما يحدث ضغطا على قطعة من المطاط لانهم يرون الثقل يضغط عليها . ولكنهم يعتقدون ان الموضوع نفسه ليس لـه أي ثقل على المنضدة لأنهم لا « يرون » الظاهرة نفسها . ويستنتج الاطفال ـ فيما بعد ـ انه اذا كان لموضوع ما ثقل على قطعة المطاط ، فان له الثقل نفسه على المنضدة ، ولكن المنضدة تقاوم الضغط . وفيما بعد ، أي عندما يكون لهم من العمر ١١ ـ ١٢ سنة تقريبا فان الاطفال يستنتجون انه اذا نجح الجسم الذي يتعرض لفعل الضغط عليه في مقاومة هذا الضغط ، فان هذا يعود ايضا الى انه يعمل أيضا ، ولكن في الاتجاه المعاكس . وعلى هـذا النحو يمكن للاطفال ـ دون تعليم

مقصود ــ استنتاج قانون نيوتن الثالث عن الفعل ورد الفعل . هذا مثال جميل عن بنية سببية مؤسسة على عمليات ؛ ولكن على الرغم من أن الاطفال هم الذين انشاوا هذه العمليات فانها « تعزى » الى الموضوعات ذاتها التي تدرك ــ في هذه الحالة ــ كعناصر « عاملـة » .

ولنلاحظ أيضا الاهمية الخاصة لهذه البنى المتنوعة بالنسبة لنظرية الذكاء او المعرفة . ونحن ــ على اية حال ــ نستطيع استخدامها كادوات تحليلية في ملاحظتنا للاطفال ــ فالبنى ــ بخلاف الاختبارات التي تقيس الاداء فقط ــ تسمح لنا ان نرى كيف يفكر مفحوص ما ؛ وبالتالي ماذا نتوقع منه أو منها في المستقبل . ولهذا الغرض فمن المهم متابعة الاطفال في تلقائيتهم وعدم تحويل منهج الاسئلة الاجرائية الى اختبار مقنن .

أعود الآن الى علم النفس بملاحظة ثالثة تكمل الملاحظة السابقة : يفترض علم النفس وجود علوم طبيعية أخرى ، وهو ــ في الواقع ــ مشتق منها (من علم وظائف الاعضاء وعلم الحياة الى الكيمياء الفيزيائية والرياضيات) ، ولكن هناك حقيقة أساسية في تفسير هذه العلاقات وهي ان علم النفس يفسر ــ بدوره ــ الافكار والعمليات المستخدمة في هذه العلوم . فعلم النفس هو الذي يمكننا من فهم بناء العدد (وكيف أن الحلول التي قدمها مؤلفا « مبادىء الرياضيات » هي في الواقع غير ملائمة[1]) ، كما يمكننا من فهم البنى الجبرية (وعلم نفس الطفل يرينا كيف ان « البنى المصفوفة » عند « بورباكي » طبيعية وتعود الى ذكاء الانسان ، والبنى الهندسية (ولماذا تسبق البنى التوبولوجية الاطر الاقليدية والاسقاطية) والافكار الحركية الاولية (ومن بينها العلاقة بين الزمن والسرعة)، والبنى المنطقية بشكل عام .... الخ . وقد كرست لهذا النوع من البحث أكثر من ٥٠ عاما .

يشغل علم النفس ــ على هذا النحو ــ موقعا اساسيا ، كما تصبح متضمناته واضحة بازدياد . والسبب البسيط لهذا هو انه اذا كانت علوم الطبيعة تفسر الانسان ، فان الانسان ــ بدوره ــ يفسر علوم الطبيعة . ومهمة علم النفس هي أن يرينا كيف يحدث هذا . ويمثل علم النفس ــ في الواقع ــ صلة وصل بين اتجاهين متضادين في التفكير

---

(١) يفسر راسل ووايتهد ــ في الواقع ــ تشكيل العدد على اساس مطابقة دقيقة بين عناصر الفئات المتماثلة . وهذه المطابقة الدقيقة على اية حال تستلزم العدد ، ومن ثمة فهناك دور فاسد واضح .

العلمي ومتكاملين جدليا . وينجم عن هذا أن نظام العلوم لا يمكن ترتيبه ، كما حاول عدة مفكرين بدءا من أوغست كونت أن يفعلوا على نحو نمطي . ذلك أن الشكل الذي يميز نظام العلوم هو الدائرة ، أو ـ على نحو أكثر دقة ـ اللولب الذي يكبر باستمرار . ان الموضوعات ـ في الواقع ـ لا تعرف الا من خلال الذات ، والذات ـ ذكرا كان أم انثى ـ لا تستطيع التعرف على نفسها الا بالعمل على موضوعات على نحو عقلي أو مادي . والحق انه اذا كانت الموضوعات لا حصر لها ، وكان العلم متنوعا دون حدود ، فان كل معرفة الذات تعيدنا الى علم النفس : علم الذات وأفعالها .

الملاحظة الرابعة : قد يقول الناس إني ـ على هذا النحو ـ اعمل في الفلسفة أو نظرية المعرفة ، لا في علم النفس العلمي ، ولكن من المستحيل ـ في مجال البحث الذي نشتغل فيه ـ أن نفصل علم النفس عن نظرية المعرفة . وفي الحقيقة فاننا اذا درسنا مستوى واحدا من النمو (مستوى الراشد أو المراهق على سبيل المثال) فمن السهل أن نميز بين مشكلات الخبرة السايكولوجية والانفعالات والذكاء ووظائفه ... الخ ، من جهة ، وبين مشكلات المعرفة العامة (نظرية المعرفة) ... الخ ، من جهة اخرى . ولكننا اذا رغبنا في دراسة الوظائف المعرفية ، ومتابعة وجهة نظر نمائية كي نبحث تكوين الذكاء الانساني وتحولاته (وهو ما تخصصت في علم نفس الطفل من اجله) فان المشكلات يجب أن تصاغ ـ عندئذ ـ على نحو مختلف تماما : كيف تتحصل المعرفة ، كيف تزداد ، وكيف تصبح منظمة او كيف يعاد تنظيمها ؟ هذه هي ـ على وجه التحديد ـ الاسئلة التي تبتغي الاجابة عنها . ولكن الاجابات التي نجدها هنا ـ والتي يمكن أن نختار منها عن طريق تنقيحها الى حد كبير أو صغير ـ هي ، بالضرورة ، من الانماط الثلاثة التالية : اما أن المعرفة تاتي ـ حصرا ـ من الموضوع ، أو انها تنشأ بواسطة الذات فقط ، أو انها نتاج تفاعلات عديدة بين الذات والموضوع . ولكن ما هي هذه التفاعلات ، وعلى اي صور تتم ؟ اننا نلاحظ فورا أن هذه الحلول ـ في الواقع ـ حلول ابستمولوجية تنبع من الاختبارية والقبلية والتفاعلية المتنوعة . وهي حلول سكونية أو جدلية بدرجات متفاوتة . وباختصار ، فمن المستحيل تجنب المشكلات الابستمولوجية في هذا الضرب من البحث ، مشكلات ابستمولوجية تتصل بنظرية المعرفة في حركتها ، في تشوئيتها .

من هنا تصدر ملاحظتي الخامسة والاخيرة . يمكن أن يعيش علم النفس ـ مثل باقي العلوم ـ ويزدهر فقط في جو متداخل الميادين . والعلاقات المتداخلة موجودة حقا ولكنها لا تزال غير كافية . ففي علم الكائنات الانسانية ، من الواضح ـ على سبيل المثال ـ ان

دراسة الذكاء تستدعي مشكلة العلاقة بين الفكر واللغة ، ومن ثمة ، تعاونا بين علم النفس واللغويات . والعمل الذي يجري حاليا في ميدان اللغويات عن النحو التحويلي والبنية اللغوية بشكل عام ، هو عمل واعد جدا بالنسبة الى المقارنات الممكنة مع الصفة الاجرائية للذكاء . ولكن هذا الميدان واسع ويجب تغطيته ، وما زال التعاون في بدايته فقط . وبالمثل ، توجد علاقات عديدة بين معطيات علم الاقتصاد وعلم مسالك الظواهر الاقتصادية وبين نظرية اللعبة أو « القرار » ، قام الاقتصاديون بتوسيعها ، وهي بشكل أداة مفيدة لتحليل « استراتيجيات السلوك » . ولكن التعاون هنا أيضا ما زال في بدايته . والعلاقة بين علم النفس وعلم الاجتماع واضحة ولكنها لم توسع بعد على نحو كاف خصوصا في مجال النمو . أما فيما يتعلق بعلوم الحياة فان الصلات بين علم النفس والفيزيولوجيا وعلم النفس العصبي وثيقة ، ولكن هناك علاقات عديدة ـ ما زالت تفتقر الى البحث ـ بين علم الحياة وبين نظرية الذكاء . وهناك ـ في الواقع ـ عدة مجالات للتعاون لا يمكن الاستغناء عنها أيضا ، وهي ما زالت في بدايتها مع المنطق أو الجبر العام ، ومع ابستمولوجيا الرياضيات والفيزياء على سبيل المثال .

يعود كل ما استطعت أن أفعله خلال عشرين عاما من البحث المتداخل الميادين الى التعاون مع مختصين من كل هذه الفروع . وقد تأسس « المركز الدولي لنظرية المعرفة التشوئية » ـ الذي فتحت له كلية علم النفس أبوابها ـ عام ١٩٥٥ لتسهيل التعاون بين الميادين المتداخلة على وجه التحديد . وسوف يكون من المؤسف ومن سوء النظر ان نترك مثل هذا التعاون ـ في الوضع الحالي ـ للقاءات المصادفات أو المبادرات الفردية . فالتعاون بين الميادين المختلفة ضروري وينبغي تنظيمه . وأكثر من عشرين عاما من الخبرة والكتابات الكثيرة التي تمت نتيجة لهذا التبادل بين الباحثين الذين وجدوا صعوبة في أول الامر في فهم بعضهم ، أظهرت لنا ازديادا وخصوبة غير متوقعين لهذه الاتصالات التي تتوثق يوما بعد يوم . وإني آمل متابعة عمل المركز الدولي لنظرية المعرفة التشوئية على النحو التداخلي نفسه بين الميادين المختلفة .

« ألف ليلة وليلتان »
رواية العطالة غير الفنية

محي الدين صبحي

نحن بإزاء مشكلة فنية خطيرة في هذه الرواية ، تتعلق بصميم العلاقة بين الخيال والحقيقة الواقعية ؛ او بالاصح بين فن التخييل والواقع من جهة ، وبين الرواية والتاريخ من جهة أخرى .

فما يتعلق بالصلة بين فن التخييل والواقع ، تطرح علينا الرواية الحق في التساؤل التالي: اذا كان واقع ما ، فردي ــ اجتماعي ، تافها ، فهل يحق للروائي أن يصدر رواية تافهة ؟ واذا كانت مجموعة أفراد ــ شريحة من طبقة ــ سخيفة ومضللة وكسيحة فكريا وعمليا ، فهل يقضي الالتزام بالواقع اصدار رواية تكون نسخة طبق الاصل عن هذه المجموعة ــ الشريحة ؟ بعبارة أكثر تجريدا ، الى أي حد يفرض المذهب الواقعي على الروائي أن يكون أمينا للواقع ويظل فنانا (أي دون أن يقع في السخف وتحصيل الحاصل !) ؟

تلك هي مشكلة الناقد إزاء رواية هاني الراهب « الف ليلة وليلتان »* . فهذه الرواية تسجل حوار القاهي على جولات النرد ، وحوارات نوربي القاهي ، ومساومات المرأة الامية الفلسطينية ــ أم خلف ــ مع بائع البامية ، وطريقة السلطة في تطبيق اتحاد العمال للموافقة على قانون يعتبره البعض ضد مصالح العمال ، وطريقة طهي البامياء ، ومغازلات الجيل الصاعد ؛ وأساليب خطبة العروس من قبل أم العريس مرة ، ومن قبل العريس مرة أخرى .

(*) هاني الراهب ، « الف ليلة وليلتان » ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٧

كما نقرأ في الرواية افتتاحيات الصحف المحلية التي تبشر بالثورة والتقدم . وتنقل لنا الرواية تعليقات الاذاعة وعناوين الصحف خلال حرب حزيران ، والتبريرات العقائدية للهزيمة وانعكاسها على ايمان المؤمنين ... وبالاختصار فهي رواية تسعى الى ان تكون صورة طبق الاصل عن الواقع التافه المهان الضائع ، في الصحو والسكر والنوم والاحلام ونشوة المضاجعة ، وحمية الشتائم ، وخطب الزعماء .

أبطالها ، نجد وصفهم في الرواية على النحو التالي :

« شخصيات لاهي مريضة ولا هي سوية ، لاهي استثنائية ولا هي تافهة ، لا نبيلة ولا وضيعة ، انما مرتبطة بشرطها الاجتماعي . كل منها يأكل وينام ويتزوج ويموت . له مسرات صغيرة وامجاد اصغر ، وله عنعنات ومخازي صغيرة ، مخازي صوابها بحذف الياء ؛ ويتطلع لمشاكل الامة العربية » . ص ٢٤٤ .

بطبيعة الحال ، تنتهي جهود هؤلاء « الابطال » بهزيمة حزيران ١٩٦٧ ــ على أساس اعتقاد الكاتب ان هؤلاء « الرجال الجوف » لابد من أن ينتهوا الى هذا السياق التاريخي المخزي . فالروائي هو الرواية الذي وسع علمه كل شيء Dmnicient ، يعرف كيف يتحرك هؤلاء الناس ، وكيف يفكرون وماذا ينوون .

بل انه يطل على تاريخهم من ألف عام فيتحدث عنهم بصوت العلي القدير :

« الشرق القديم الدالخ يقدمه المتدروش بشعاع الشمس المهترىء في الزمن المسخ بحريمه الكبير بموائده المستنقع صبابة الجاف ريحا الممسوس عقلا الصدىء سيفا المثلوم كرامة المهدور انسانية المتشقق المتعفن المتهدل الممسوخ المنخوس المقوّر المهور المهجن الخلاسي » . ص ٢١ .

(النص في الاصل جملة واحدة ، بلا فواصل ولا نقاط) .

وكما أن المؤلف كلي العلم فهو كلي الحضور Omnipresent موجود في الغرف والمقاهي والشوارع ، وفي فيتنام والبيت الابيض واسرائيل ، بل يعرف كيف تدار الالعاب العالمية ومن يحرك خيوطها وكيف :

« يقول الرئيس جونسون لجلسائه اللطيفين : « أرى ان الديمقراطية في اليونان لم تعد شيئا مربحا كما هي في بلاد العم سام . ما رأيك يا سي . آي . إي ؟ » .

يقول سي . آي . إي .... : « أعتقد اذا جرت الانتخابات ، أن المعادين للديمقراطية

الحقيقية سيفوزون بعدد لا بأس به من المقاعد . وهناك خطر مؤكد في ذلك على العالم الحر . » .

يقول الرئيس جونسون : « ... مشروعاتنا المقبلة في الشرق الاوسط تتطلب أن يكون اليونان دولة مسالمة خالية من المشاغبين . في رأيك اذن ان مصلحة اليونان تقتضي تغيير نظام الحكم ؟ » ...

يقول وزير الخارجية :

« لدينا في الجيش أصدقاء جيدون يؤمنون بالديمقراطية » ص ٢٦٣ .

بل ان الروائي يعرف - هو جاد غير هازل - ان الرئيس جونسون صبيحة الخامس من حزيران ١٩٦٧ استيقظ مبكرا (ص ٢٨٩) .

طبعا لا أحد يدري من أين حصل الروائي على محضر الجلسة التي هيأت انقلاب اليونان تمهيدا لعدوان حزيران . ولعل الكاتب يظن ان هذا هو فن الرواية . ولكن ليس لاحد ان يسأله ، فهذا حقه . على ان المشكلة مع هذا الروائي انه يستخدم كامل حقوقه : يقطع المشاهد وفق أحدث اساليب المونتاج فينتقل من مطبخ عائدة الى سرير غادة الى عقل امام الى فلسطين قبل اربعين عاما . ويغوص في ضمير عباس فيعرف نواياه . ويقبع في عقل الطبيب شيش بيش « هكذا يلقبه طول الرواية ، مع أن اسم الرجل عبد الرحمن » فيعرف بماذا تحدثه نفسه حين يتلصص علي أمية وهي تبدل ثيابها . ثم يرقى في معارج التاريخ فيتحدث تارة بلسان اللاشعور الجمعي ، وتارة بلسان الحكواتي ، وفي مرة ثالثة يسرد قصصا وحوادث عن عدالة الخليفة عمر بن الخطاب ، أو يستشهد بالشعر . ثم يرجع الى الحاضر فيتفضل باطلالة على دمشق في الليل ليصف النائمين وما يحلمون به ، أو يحوم فوقها في النهار ليصور شوارعها وينقل الينا طرفا من الاحاديث اليومية التي تدور اثناء الزحام امام فرن او عند حلاق نسائي أو أثناء شراء ثوب في متجر او حين يتدرب الفدائيون من أجل التحرير المنتظر .

هذه البانوراما الواسعة ، سعى الروائي بكل جهده الى تصويرها من الداخل والخارج ، الظاهر والباطن ، اليومي والمرحلي والسرمدي ؛ مستخدما في سبيل ذلك كل الوسائل الفنية . لم يوفر تقنية ولم يغفل عن بدعة . على اعتبار أن كل هذه التقنيات أدوات لنقل

الواقع . قصده من كل هذا أن يجعل القارىء يجري بين السطور مبهوراً متقطع الانفاس ، محتارا في الحادثة التي تبدأ من آخرها والتي تبدأ من منتصفها ، والتي تنقطع فجأة والتي تتقطع على مراحل . لكن ابتذال المضمون ، وضحالة الإبطال ، وامتلاء الرواية بالاشياء اليومية التافهة المتادة ، يفقد هذه التقنيات السحر الذي نجده في الروايات الاصيلة ، ويجعل هذه التقنيات عبءا على الرواية والكاتب والقارىء معا ـ بحيث تجلت لي الرواية مثل غجرية شمطاء متصّابية أثقلت معاصمها بأساور الذهب . وأصابعها بالخواتم النفيسة ، وجيدها بالاطواق من الخرز الملون ، وعلى أنفها الثقوب حلي ، وفي أذنيها أقراط ، وفي معصميها دمالج ، وفي قدميها خلاخيل . ثم وجدت نفسها قصيرة فوضعت قدميها في قبقاب عالي الكّعبين ، وأمضت أياما أمام المرآة تطلي وجهها بأثقل المساحيق ، وخرجت تتباهى أمام الناس بعد أن ارتدت أحدث الازياء . هذه هي التقنيات حين تستعمل في غير موضعها ـ علما بان الروائي ، مثل تلك الغجرية ، يجيد استعمال التقنيات ويعرضها باتقان ربما كان مفيدا لو كان أقل مهارة أو أقل كثافة من هذا الحشد . غير أن هذا الاتقان لا يجيء في موضعه . فهو غير مفيد لان الرواية عاطلة عن الحبكة ، خالية من ذروة مهما كان نوعها ت انها مثل حياة المقاهي التي يصورها ؛ فربما أمضى المرء فيها خمسين عاما دون ان يخرج عـن السطح المالوف الروتيني . ان الرواية مسطحة ، منبسطة ؛ والابطال اكثر تسطحا وتبسيطا . الرواية اوشخاصها يسيرون في خط مستقيم . حتى هواجسهم ولا شعورهم شعورهم يتحركان في مسار مستقيم يثبت أن التقنية وحدها لا تصنع رواية .

قضيتنا هنا اذن ان الفن غير مخول ولا مؤهل لنقل تفاهات الحياة اليومية . انه فن لانه يستطيع ان يلخصها أو يعرض عنها أو يتجاوزها دون أن يجازف بقطع صلته بالواقع اليومي أو التاريخي . فاذا غرق الفن في التفاهات استنفد قوته في سرد التفاصيل اضاع مغزاه الكلي .

ولكي نرى مدى تسطح الشخصيات لابد مـن استعراض بعضـها مرفقة بالمشكلات التي تستهلك حياتها ، لكي نرى ان الشخصيات الحقيرة تستغرق في مشكلات حقيرة ، او ان المشكلات الصغيرة تجعل من الذين يغرقون فيها أقزاما .

عباس : عقيد في الجيش ، يعمل محافظا . يستهلك أيامه وسلطته في ملاحقة كل امرأة . ثوري ، يتحدث عن الثورة مع الفلاحين وفي البيت ، لكن ممارساته جميعها تقع بين التخلي عن الثورة او خيانتها .

عائشة : زوجة عباس . امرأة واعية ، لكن وعيها يقتصر على الشكوى من عبودية العمل البيتي ، ومن خيانات عباس لها .

غادة : امرأة دمشقية بورجوازية شبقة . هي عشيقة عباس بلا تمهيدات ، وزوجة طلعة بلاتذمر .

طلعت : تاجر دمشقي ، سمسار شره وديوث

نواف : طيار من أصل ريفي لايميزه غير أنه يشك بزوجته ويضربها طول الرواية . لكنه زير نساء له عشيقة في كل عاصمة .

أميـة : امرأة دمشقية ، شبقة . هي زوجة نواف وعشيقة علي الذي هو ابن عم ، عباس ـ أسرتها فقيرة .

علـي : كل مؤهلاته أنه ابن عم عباس . مدرس يتاجر بالثورية في النهار ويكون في الليل عشيقا لأميـة .

أسمـى : شقيقة أميـة . أسرتها فقيرة ، تدرس في كلية الطب ، ثورية ، تمارس الجنس بتسامح .

أسـام : شقيق أميـة وأسمى ، يعرف تصرفات أختيه ويغفر لهما بصفاء ثوري .

شيش‌بيش : طبيب الاسنان عبد الرحمن . يحب أسمى ويخطبها فترفضه لكنها تقبل أن تضاجعه على أن يحافظ على بكارتها . وهذه هي عقدته طول الرواية (ثوري في المقهى)

(ملاحظة : جميع النساء في الرواية جميلات ومثيرات على الطريقة الهوليودية المتقرضة ـ ما عدا العجائز الفلسطينيات فهؤلاء يقتصر نشاطهن على تذكر فلسطين ، اما أولئك فلا يهدان .

ولا فائدة من المضي في تعداد بقية الاسماء ، فالقائمة طويلة جدا ، فيها عمال مطابع وكتاب وصحافيون ومتقاعدون ، وفيها مصلح أجهزة تلفزيون اسمه سليمان وظيفته في الرواية انه عشيق ثابت لغادة وصديق ثابت للطبيب شيش بيش . كل شخصية في الرواية لهـا مهمة ثابتة وصفات نفسية ثابتة لاتتغير . لقد حدد الروائي الكلي القدرة ملامح هؤلاء الساكن وأمزجتهم ومشاعرهم ومصائرهم . فالشخصية في الرواية ثابتة لاتتغير ولا تتطور ـ

واذا تغيرت فيخط مستقيم لافيه انحراف ولا انعطاف بحيث يظل الخير خيرا دائما ، والشرير شرير دائما .

وصف انفعالات الجنس يستعرض اكثر من نصف الرواية ، وبذلك يجعل الروائي حياة المراة موزعة بين العمل الجنسي والعمل البيتي — وهو اما انه يرى ان دورها يقتصر على ذلك فتكون نظرته رجعية غير واقعية أو انه يعجز عن تصوير الادوار الاخرى . وحدها أسمى نجت من هذا المصير ، تمردت فقضي عليها ان تظل متمردة بالرغم من توسلات شيش بيش لها قبل ان تستسلم له وبعد ذلك بان ترضى بالزواج منه ، لكنها — وبمنطق غريب — تصاجعه وترفض أن تتزوجه !

ولا تعليل لثبات هذه الشخصيات عند ملامحها النفسية الا بان المؤلف أراد لها أن تكون نماذج — على غرار نموذج « البخيل » لموليير — فسلبها من فردياتها وجعلها دمى تتحرك .

ثمة مظهر آخر ، أخطر ، لهذا التجريد الذهني في رسم الشخصيات . هذا التجريد يتجلى في التحليل الطبقي الآلي للشخصيات على اساس ان ظروفا معينة تفرز نموذجا معينا من الناس . وهذا التحليل يساعد على أن تكون الشخصيات نماذج وآلية الحركة ايضا . فنواف — وهو نموذج استبداد الشرقي بزوجته باسم الغيرة — رجل متحلل من كل قيد وطني او عاطفي او جنسي . يهرب من الطيران العسكري الى المدني . له عشيقات في كل عاصمة . يشتغل مهربا وينتهي الى جاسوس .

نواف هذا ليس له وجود حركي في الرواية ولكن له وجود وصفي ، أي — مع انه شخصية اساسية — فانه لايشارك في احداث الرواية ولكن الجميع يتحدثون عنه ويحللون شخصيته، فكانه موضوع ادبي معطى لطلاب صف في مدرسة ثانوية .

ونحن نفهم شخصيته من خلال تحليل علي لها . وعلي — كما مر بنا — مدرس ثوري في النهار ، وفي الليل يشتغل عشيقا لامية زوجة نواف . ذات ليلة يزور علي امية وفيما هما مستلقيان في فراش الزوجية يستجمان بين الجولة والجولة (المؤلف يصف نشاطهما بتفصيل شديد) تبث اميـة لعشيقها علي همومها الزوجية ، فيقول علي :

« اذا بقي الفلاح فلاحا يموت في الجهل والقذارة والاعتماد على القدر . وعندما يخرج بضيع : لمن ينتمي ؟ غالبا ما يتبجح بأنه مايزال فلاحا ، وله اخلاق الفلاحين السمحة . هذا التفكير غريب ، فخلي يرى بانه : اما أن يظل الفلاح فلاحا او انه سيفقد انسانيته يعودوا فلاحين . كل من خرج عن طبقته يضيع » ص٢٥٧ .

هذا التفكير غريب ، فعلي يرى بأنه : اما ان يظل الفلاح فلاحا أو انه سيفقد انسانيته او اصالته أو شخصيته .. ولا ننس أن المؤلف يقدم هذا « البطل » على انه أكثر أفراد الرواية ثقافة وأعمقهم تفكيرا !

ان المؤلف دائما يصور الخروج من القرية وكأنه خروج من جنة البراءة والطهر ، والدخول الى عالم المدينة وكأنه دخول عالم الشر والعهر . فنجد وجهة نظر علي تلك تتردد على لسان ابن عمه العقيد عباس . فهو يقول عن امية وزوجها نواف ، في مطلع الرواية :

« زوجوها أهلها لاجل المال ، وتزوجها هو بالمال : صبية في الثانية والعشرين وهو في السابعة والثلاثين . وهي دمشقية ليس لها أخلاق الريف ، وليس مستبعدا أن تخونه » ص ٤٠ (زوجوها أهلها ، صوابها : زوجها أهلها) .

ثم يقول العقيد عباس لابن عمه علي أثناء ذلك عن امية :

« هذه المرأة ستخون زوجها يوما . هو بخيل واستبدادي ، وهي امرأة من دمشق » ص ٤١ ولكن المؤلف وابطاله لا يخبروننا لماذا انحصر نواف الى درك التهريب وخيانة الوطن . فالكل يفكر بزوجة نواف ومع من سوف تخونه .

وعلى كل ، فهذا وجه من وجوه الخيانة . الوجه الثاني برجوازي : غادة ، الفائقةالجمال، زوجة طلعت بك التاجر الدمشقي الكبير ، تجدها تمارس الجنس مع العقيد عباس غواية ومع سليمان مصلح التلفزيون مصاحبة وشبقا .

اسمى ، اخت امية ، تعطي نفسها ، لا عن شهوة شبقية يتصور المؤلف انها حكر على البورجوازيين ، بل عن تحرر ، ونزولا عند « مقتضى الحال » :

« بعد قبلة منهكة ، يسحب كنزتها عن جذعها بيسر ، ويفك زر القميص الاعلى . تمديديها وتتابع التحلل . خلال لحظات يتعريان . تقول له : انتبه ، أريد ان أبقى عذراء » ص٢٢٨.

ان التعليلات والتحليلات التي يقدمها المؤلف تسلب من البطلة ارادتها الشخصية وتدرجها دائما ضمن مقولة طبقية أو اجتماعية ، في حين ان فن الرواية يتطلب العكس تماما : التصنيف الطبقي او الاجتماعي هو الجذر الخفي الذي يعرف ولا يرى . انه يزود المرء بالتوجهات العامة لكنه يتراجع عن الانظار أمام طباع الفرد وميوله ونزواته وسموه وتعاليه ورغبته في التجاوز أو في الانحطاط عن ظروفه الاجتماعية . الانسان ليس مقدمة طبقية ونتيجة (هي تصرف جنسي دائما في الرواية) .

ان المؤلف حين أخفق في رسم الشخصية الفردية وتقصي امكاناتها لجا الى رسم « نماذج » متعددة للمرأة فقدم لنا نساء فيهن الغنية والفقيرة والمدرسة والام وربة المنزل . كلهن مباحات او مستباحات بشكل او بآخر . وفكره قاصر عن تقديم اي سبب سوى انهن من بنات المدينة . كان كون المرأة مولودة في المدينة يفرض عليها قدرا واحدا لايرد ، وهو ان يجعلها تتعهر . ومن المؤسف والمؤسي ايضا ان قصور الفكر يلازمه دائما قصور في المخيلة . ففي حين نرى المؤلف يجعل ولادة المرأة في المدينة سببا لان تكون عاهرة او بالاحرى موضوعا جنسيا ، نجده يجعل الفلاح ان كان رجلا فهو منحل – فقط لانه غادر قريته – وان كان امرأة فهي ربة الصون والعفاف . المرأة الطاهرة الوحيدة التي قدمها المؤلف هي عائدة زوجة العقيد عباس . ان المؤلف « ينعم » عليها بهذه الصفات دون ان يدخل في نفسها ويتجشم عناء التحليل،والبحث والتنقير،كما يفعل كتاب الروايات،بل كما يفعل هو نفسه مع غيرها من الشخصيات، ولماذا يتعب نفسه في تحليل هذه الشخصية ولديه سبب غير قابل للمناقشة: « انها ريفية،من حماة ».بل ان المؤلف يتجاهل ردود فعلها كزوجة تشاهد زوجها يغازل امية الفلسطينية تحت سمعها وبصرها ، ويراقص غادة ويختلي بها في بيته (بيت عباس وعائدة) الجديد الذي اشتراه من اموال الرشوة التي دفعها له طلعت زوج غادة . فقد قامت عائدة زوجة عباس بتحضير المآكل الشهية لحفلة رأس السنة ، وبين الشراب والرقص :

« عباس وغادة ينسحبان ببطء شديد . يتنحيان المكان الاعتم . تبدأ يده سياحتها المتشنجة الهادئة . هذه المرة تنزل تحت التنورة . تتكور وتنبسط ، بسرعة واختصار . ثم تنبسط ، ثم تسبح » ص ٢٣٤ .

ان هذا المشهد يحتاج الى فيلم مصري ومخرج لا يرى حرجا من ان تشاهد الزوجة زوجها يقوم بكل ذلك ثم تبقى صامتة هادئة – هذا على فرض ان وجود زوج غادة لايعيق هذه المغامرة ، على اعتبار انه تاجر وابن مدينة .

وعائدة تعرف ان زوجها عباسا يستخدم سلطته للوصول الى النساء من خلال عمله كمحافظ . تقول في احدى مناجياتها لنفسها :

« فيما مضى كان يستملح النساء . أما الان فهو يطاردهن . اذا لم تات غادة وزوجها ، يجد وسيلة لتاتي امية . وفي المحافظة يتحدث الناس عن مطاردته لواحدة ، معلمة عاهرة ،

والاخبار تجيء كل يوم . ما شاء الله ! هذه هي ثورتهم . ما شاء الله ! ثورة على أعراض الناس . كل امرأة تفتح لهم ساقيها تصبح غالية على الثورة » ص ٩٢

وبديهي أن هذه « المعلمة العاهرة » هي من بنات المدينة . وهي « تقنع » عباسا بالطريقة الوحيدة التي يفهمها ، بأن ينقلها من الريف الى مدينتها .

ومع ذلك فان عائدة تصبر على كل مايجري مما ترى أو تسمع ـ « لانها ريفية بنت أصل ». لكن عباسا ـ مع أنه ريفي وابن أصل ـ لا يصبر عليها . يضجر منها ويطلب الطلاق ، أو يهددها به . لكنه لا يطلقها ، وهي بدورها لا تخونه . ان هذه الشخصية هي المرأة الريفية الوحيدة في الرواية ، وقد عالج المؤلف شخصيتها بحذر شديد كانه يخاف أن يمس تابو مثبتا في لاشعوره ، لذلك لم يعرض شيئا عن حياتها الجنسية أو هواجسها النسالية بل جعلها مثلا أعلى وشاهدا على تفسخ زوجها وبما أن الرواية رواية نماذج تخلو من الفردية فيمكننا الاستنتاج بان المؤلف قال كلمته في طهارة المرأة الريفية .

تقول عائدة لعباس :

« حسرتي فقط على أب لاربعة أطفال لا يستحي من تقبيل عينيه لعاهرة . أنا لست أجيرة في البيت . لم أعد أحتمل . تهدمت صحتي في المسح والغسل والجلي والطبخ » ص ١٣ .

أما عباس فيفكر وهو يتلصص صباحا على أمية ابراهيا بثياب النوم :

« ما الذي سيحل بها وبابنها وبنوافه أيضا ؟ يجب أن يكون هناك من يحميها ، يحدب على هذا الجمال الانيس ويحتضن براءته .. لهذا تقوم الثورات . كي يجدد الانسان ذاته وينعم بأشواقه . يتخلص من تكاليف الحياة » . ص ١١٤ .

ان طريق جهنم مبلط دائما بالنوايا الحسنة . والحقيقة أن المؤلف يفلح في تقديم عباس، لاكفرد ، نموذجا للقلب الذي يزعم أنه سيرعى الغنم ويحميها . حين يطلب الطلاق يأتي أهل زوجته يتساءلون عن السبب ، فلا يعترف عباس بان السبب رغبته في الانغماس بالملذات التي يتيحها له منصبه ، بل يقول لهم متعاليا :

« نحن غيرنا تركيب البلد في السياسة والاقتصاد . الحلقة المفقودة هي تغيير التركيب الاجتماعي ... كل يوم استجوابات غبية وانهيارات . شجارات لا تنتهي . وكل يوم يصيبها مرض جديد دون أن تشفى من القديم . تريدني أن اكون العاشق نفسه الذي كنته قبل اثنتي عشر سنة » ص ٢٢٢ .

وبما أن الذين يتحدث اليهم فلاحون بسطاء فان واحدا منهم لم يخطر له ان يسأله : وما هو مشروعك « لتغيير التركيب الاجتماعي » ؟

على ان عباسا يعرف أنه كاذب حتى في حديثه عن تغيير تركيب البلد ، كما سوف نتبين بعد قليل . ولكن بما ان الحديث اتجه نحو عباس ، فمن المناسب ان نعرف كيف قدمه المؤلف ، ما دام قد اتخذه نموذجا للثوري في الممارسة .

ان سيرة عباس مروية في الرواية على دفعات ، حسب طريقة المؤلف في بعثرة المشاهد وتقطيع المعلومات :

« في صباه كان يمشي خمسة كيلو مترات ذهابا الى المدرسة وخمسة اخرى ايابا » ص ٦١ .
« في يفاعته ، كانت دار المعلمين تتبختر في ذهن عباس قصرا مسحورا ، ثلاث سنوات وينادبه الجميع : أستاذ . وتنتج في جيبه ٢٢٥ ليرة شهريا . » ص ٨٢ .

« وكانت الكلية العسكرية قد غدت في خياله قصرا مسحورا شحنه بالقوة الكافية للحصول على الشهادة الثانوية . وبعد عامين وضع على كتفي سترته الخاكي نجمتين ... لقد استعذب اعطاء الاوامر .. » ص ٣ ٨ .

ويتلخص نضاله في أنه كان يخرج في التظاهرات أيام الشيشكلي (١٩٥٢) وتلقى صفعة من رجال الشرطة .

حين صار عباس محافظا زاره وفد من الفلاحين فخطب فيهم :

« أنتم أنتم ضميرنا . ويجب أن نتعاون معا لتحقيق أهداف هذه الامة » ص ١١٩ .

يشكره الفلاحون ويتقدمون بطلباتهم ، فيردهم ردا جميلا على النحو التالي :

- تزفيت طريق طوله ستة كيلو مترات .

(يعتذر عباس بأن آلات التسوية والتزفيت استعارها الجيش) .

- الكشف عن مخطط تجميل الضيعة .

(يعتذر بأن المخطط لم يوضع بعد) .

- مضخة الماء على البئر ملك للاقطاعي طلعت بك .

(يعدهم بالتفاهم معه) .

- البذار والسماد مفقودان بسبب الاحتكار .

(الحكومة ستضرب بيد من حديد جميع المتلاعبين بمصالح الشعب) .

النتيجة أنهم لايحصلون منه على غير الوعود . حين ينصرفون وهم يهتفون له وللثورة « يشعر عباس انه في حاجة لهذا الهتاف » . لكنه حين يبقى وحده يفكر : « يجب أن تنجو الثورة نفسها ، والا .. » ص ١٢٠ ــ ١٢٥ .

أمضى عباس سنتين محافظا يوفق بين الفلاحين ، منهجه في ذلك : « الحلول العاجلة للمشاكل المرحلية ، والحل الشامل للمشكلة الاساسية » . وبما أنه فشل في الاثنتين معا ، فلم يبق له سوى أن يحلم كأي مراهق احمق :

« لكم تمنى لو قيض له فانوس سحري ، أو خاتم أسطوري . اذن ... لاعطى كل انسان بيتا جميلا ... ولوهب الناس مالا غزيرا ... لو تيض له مثل هذا الخاتم لخلق عالما جديدا زاخرا بالعدل والمساواة والشبع » ص ١٦٣ .

ان الثوري الحقيقي يسعى وراء السلطة لتحقيق الاحلام ، أما بطل هذه الرواية فيسعى وراء السلطة ليحلم . ويعفي نفسه من المسؤولية عن تغيير الواقع . والحق على الخاتم لانه مفقود . وانماما لاظهار تجوفه الداخلي يلاحق معلمة تريد أن تتنقل ، وبما انها تعرف الثمن تقول له : تعال الساعة السابعة ... امام وجهه تنتصب عيناها وخدها ونهداها ، وتتهاوى بقية جسدها كأنها مستلقية على الظهر » ص ١٦٨ .

والى أن يظهر الخاتم السحري فيؤدي واجبات المسؤولين من أمثال عباس ، يذهب عباس ظهرا الى بيت طلعت بك .

العلاقة بين العقيد المحافظ عباس وطلعت بك وزوجته معقدة ؛ فهي متشقة برواسب طبقية ، ونزعات ومصالح شخصية . فعباس فلاح وطلعت بك اقطاعي من دمشق :

« في البداية كان يريد اذلاله . لقد مر حين من الدهر سال فيه الاقطاعيون على هواهم وجالوا . شربوا عرق الفلاحين لم يصقوا في وجوههم . اعتدوا على أعراضهم شخصيا وبالمخاوز . في البداية اراد اذلاله بالطريقة نفسها . لكنه سرعان ما اكتشف ان ثمة خلافا جذريا في القيم نفسها . طلعت بك لا يهمه ما يين فخذي امرأته » ص ١٦٩ .

لذلك يقتنم عباس زيارته للغداء في بيت طلعت بك ويفترس غادة فيما كان طلعت بك في الحمام :

« طرحها أرضا فاعتنقته وطرحته معها . واستغرب انها انبثقت معه في اللحظة نفسها ، كأنها كانت تنتظره . » ص ١٧١ .

لا يقرر الروائي ـ رغم علمه بدخائل النفوس ـ ان كان هذا الفعل قد تم بتواطؤ بين طلعت وزوجته ، او عباس وطلعت ، او حتى غادة وعباس . وبسبب عدم اهتمامه بتقرير ذلك يرجع الى انه لا يهتم بالدوافع الفردية ما دام يأخذ هذه الشخصيات على انها نماذج ، لذلك فانها ستتصرف كما هو مقرر لها شاءت ذلك ام ابت : طلعت بك تاجر القطاعي وابن مدينة ، اذن لا يهتم بسلوك امرأته . العقيد عباس عسكري وثوري ، اذن يستبيح الفرص لنفسه . غادة امرأة بورجوازية من المدينة ، اذن فسلوكها اباحي . عائدة امرأة ريفية ، اذن فهي محافظة وصابرة . ليست القضية ان الفساد والشر من جانب واحد ، هو المدينة . القضية ان الشخصية الفنية ازاء هذه الوصفات النظرية الجامدة تتحول الى دمية ذات حركات ميكانيكية لا مجال معها للتردد او التحول . بموجب هذه الوصفات يمكن التنبؤ سلفا بسلوك كل شخصية ولا تعود الرواية تحليلا للنفس الانسانية بل سردا للوقائع التي وجهتها ، لان هذه النفس ليس لها حرية الاختيار ، فهي مسيرة على طول الخط بقدرها الطبقي . هذه الحتمية الاجتماعية تماثل الحتمية النفسية لدى روائي يختار بطله مصابا بعاهة نفسية ، وتماثل ان يكون المرء مقطوع اليد او اللسان : انها امر لا حيلة فيه للبطل ولا للروائي . لذلك تبقى الرواية مجرد حكاية ما جرى لهؤلاء البشر المسيرين باقدارهم الطبقية أو النفسية أو الجسدية ، وينعدم فيها العنصر التحليلي والاختيارات المفاجئة التي تقوم على نظرية ان الانسان الواعي السليم غير مشروط تماما بظروفه بل قادر على تجاوزها .

وما دامت غادة قد سلكت بموجب ظروفها الطبقية فاستسلمت لعباس ، وطلعت خضع للوصفة الطبقية بأن ((لا يهتم بما بين فخذي امرأته)) ، جاء دور عباس لان يتصرف آليا كما تملي عليه ظروفه . فهو رجل فلاح محروم ممسك بزمام السلطة وعاجز عن التصرف بها (لفقدان الخاتم السحري ، كما رأينا) .

بعد أن افترس عباس غادة ، والتهم طعام الفداء الشهي معها ومع زوجها طلعت ، يلتفت هذا الى عباس ويطلب منه مخطط تجميل القرية الذي سيجعل بعض الاراضي ذات سعر مرتفع ، فمن المفيد لاصحاب الاموال ان يشتروها بثمن بخس ؛ ويتابع طلعت بك ان الخريطة الجديدة :

« يطلع عليها الناس المعنيون فيستفيد اصحاب الارض والمهتمون بتقدم البلد من ناحية العمران والسياحة ، وتستفيد انت .. انت تستفيد خمسين الف ليرة عدا ونقدا ، وحده هي » !

يعلق المؤلف مستنبطا افكار عباس :

« مسكين طلعت بك . ها هو ذا يبرطع أمام عباس كاليرغوث المفروك . هذا الرجل الاربعيني ... زوج المراة التي ضاجعها عباس قبل دقائق ... بعد قليل تعود الثورة فتؤمم الارض والعقارات وتعيدها الى أصحابها الاصليين الكادحين . وعندها سيضحك هو والفلاحون على طلعت بك ! »

هذه الفتوى تسوغ لعباس ان ياخذ المبلغ رشوة صريحة . ونسي عباس ان الف طلعت بك يدفعون لالف عباس الف رشوة لكي لا تؤمم الثورة الارض والعقارات ، ولا تعيدها الى الكادحين !

لا ريب في أن هذا المشهد قمة وحده في الرواية . اذ ينتهي ونحن لا ندري من هو الاكثر تعهرا : غادة أم عباس ام طلعت ؟ من الخاسر ومن الكاسب ؟ ماذا كسبت الثورة وماذا خسر الاقطاع ؟ نحن في سباق الى الاسفل ليس ندري فيه من يخون نفسه ومن يخون الآخرين ، ولا من يورط من .

شبيه بهذا الموقف الملتبس عند عباس — واقل ذروة — موقف ابن عمه علي . فعلي يشتهي امية ويريد أن يورطها في علاقة معه ، ومما يقول لها ليقنعها : « الرجل والمراة لا يمكن ان يكتفيا بعضهما ببعض ، لا بد من عشيق وعشيقة . » ولكن حين تنضج العلاقة بينهما تطلب منه ان يتزوجها ، يفكر علي :

« هل يتزوج مطلقة ؟ واحس كما صدمة من شيء لا مادة له هزت بدنه . لم يكن من قبل واعيا بهذا السؤال . واحس بضميره يندى . قال لنفسه : ليس كونها مطلقة ، وانما لان فكرة الزواج لم تخطر له في أي وقت ، وعندئذ ازداد ضيقا لانه ازداد كذبا . » ص ٣٤٤ .

والحقيقة انه مثل ابن عمه ، يكذب على نفسه قبل ان يكذب على الناس . فهو في اول الرواية توسل الى صاحبة غرفته « ام خلف » ان تخطب له اسمى خطبة تقليدية تماما . وتكون أسمى أكثر شجاعة ووعيا فتذهب اليه في غرفته وتحاوره :

« — لماذا تريد أن تتزوج ، استاذ علي ؟

— أريد أن اعيش تجربة مباشرة في هذه الدنيا ، يا آنسة اسمى .

— وهل الفتاة فأر تجارب ... الا تعرف الحب يا أستاذ ؟

ـ أنا عاشق مؤبد . لكني لم انجح . فشلت ...

ـ لانك فاشل تريد أن تتزوج ! » ص ٧٤ .

لكنه حين ينشيء علاقة مع اختها امية يتنصل :

« ولكن ماذا يريد ! لو انه يعترف لقال انه لا يريد أن يتزوج امية ... ليس لان ثمة مجتمعا يطالب بوثائق كيما يعترف بالعلاقات ، بل لان امية نفسها تريد ان تحقق ذاتها ، وهو خائف من اعطائها الفرصة ، او رافض . خائف ام رافض ! عديم الثقة ام نذل ؟ » ص ٢٤٥ .

لقد اختار المؤلف نماذجه من نوع كثير التشدق بالنظريات ، سريع الانهيار أمام الممارسة . فعلي هذا ثوري ، كما يوصف في الرواية ، لانه « يوم خرج الى الدنيا بومي جديد كان يهاجم كل شيء ، الافكار والتقاليد والحياة اليومية . كانت الثورة خاتم شبيك لبيك الذي سيقلب الاوضاع رأسا على عقب » ص ٧٩ .

إن هذا الانتظار لعمل سحري يقوم به الاخرون ويعزى فضله لنماذج مثل عباس وعلي ، انما يدل على تواكل من جهة وعلى عدم القدرة على استيعاب الواقع والتعامل معه من جهة اخرى . هذه هي نماذج الثورة المضادة وليست نماذج ثورية .

وهنا لا بد من وقفة لمناقشة المؤلف في صميم مفهوم الثورة والانسان ، فان كان يقدم هذه النماذج على انها قدوات بكل ما فيها من انتهازية وادعاء فانه يقوم بقلب خطر للمفاهيم ، ومن جهة اخرى فليس في الرواية ما يدل على انه يدينها او يقف ضدها او حتى يشعر بخزيها : انه محايد تجاه حقارات ابطاله . بل وازعم انه متعاطف معها بسبب التطويل والتفصيل في حوادث الاغراء والرشوة والانتهازية والفساد .

بل إن المؤلف كلما شعر بانه مضطر الى ادانة ابطاله سعى الى ان يعتذر عنهـا بحسن نيتها . فعباس بكل استغلاله للسلطة يظل شخصا محببا الى الروائي ، يتمنى الخير لكل الناس ويتمنى ان يمتلك خاتما سحريا يحيل التراب الى ذهب ويجعل الناس اغنياء ! **فهل الثوري انسان قدري متسلط متخاذل الى هذا الحد ؟ واي غباء من علي ـ او ان المؤلف يجعله غبيا الى هذا الحد ـ بحيث لا يدرك ان الثورة في جوهرها تغيير وسائل الانتاج وتغيير العلاقات الاجتماعية : « كانت الثورة خاتم شبيك لبيك الـذي سيقلب الاوضاع رأسا على عقب » ! لم يخطر للابطال او للمؤلف أن يتساءلوا : بحسب اي منهج سيجري قلب الاوضاع راسا على عقب ؟ في الحقيقة إن اوضاعه الشخصية فقط**

ستتقلب ، بفضل الثورة ، رأسا على عقب ، بحسب منهج مرسوم . إن طريق الوزارة مفتوح امامه ؛ كما يقول له مدير مدرسته :

« اخي علي ، يجب أن تقبـل منصب معاون المدير . وبعد فترة ستأخـذ مكاني ؛ لاني سأعين مديرا للتربية . وبعد ذلك تسلك الطريق . انتبه لنفسك يا رجل ، أنت مستقبلك وزير » ص ١٥٦ .

هذه الشخصيات قد تكون واقعية او لا تكون ، غير انها لا علاقة لها بالثورة ـــ ولا بفن الرواية . ففي الفن ينبغي ان تكون النماذج أكبر من الواقع او افضل ـ وكذلك في الثورة . اما ان تكون مفصلة على صورة الواقع ومثاله ، فهذا ينفي عنها صفة المخلوقات الخيالية او البطولية التي تتصدى للواقع وتسعى الى تغييره .

لنتلبث قليلا الآن بغية تفحص المؤهلات التي تجعل مستقبل شاب مثل علي في مثل هذا السطوع والوضوح ، بعد أن لاحظنا انه خال من اية مميزات خاصة او قيادية . ليس لديه مما يميزه عن غيره سوى كونه من لوريي المقاهي المتعاونين مع السلطة ، ومن اقرباء العقيد عباس الذي اصبح محافظا . وهو يشبه في تطلعاته ابن عمه عباسا : اكبر (كمية) من النساء واكبر كمية من النقود . أمانيه : ان تتحرر فلسطين وتتوحد البلاد العربية (بقيادته طبعا) . فقط ، يتقمصه خاتم المارد الذي يوزع الخير على الناس ـ وهذه الامنية لا تصدر عن محبة منه للناس بل عن شعوره بضرورة تبرير حصوله على مكاسب لا يستحقها ، فالتبرير : إنه يريد الخير لكل الناس . الا انه غير مستعد ، مثلما انه لا يعرف ، كيف يصارع الواقع ويغيره . امنية خاتم المارد ليست سوى ذريعة يتخذها ليتجنب الصراع مع الواقع او التصدي للواقع من خلال فهم قوانينه ، والنضال ضد العناصر الثابتة فيه . لا أدري ما هو مفهوم هاني الراهب عن الثورة او المجتمع او الرواية . لكنني اجزم نهائيا بان واجب الرواية ألا تكرس مثل هذه الشخصيات التافهة أبطالا . العمل الفني إما أن يرصد مصير هؤلاء « الابطال » أو يعرض حياتهم ليدينها اشد ادانة ـ أي يجب أن يكون العمل الفني استفزازيا وثوريا تجاه واقع انتهازي متفسخ كهذا الذي يعرضه ـ أما أن يقدم لنا الروائي امثال هؤلاء الناس بكثير من التعاطف وكثير من الحياد فلا . لا ، لانه (العمل الفني) يكرس الفساد من جهة ـ ويسقط في ضلالة محاكاة الواقع بشكل أعمى ، من جهة اخرى . الادب مفارق للواقع ، أي ينحرف عنه بزاوية ما . فاذا قدم الروائي ثوريا يحلم بفانوس علاء الدين والخاتم السحري ، ليستريح من عناء مجابهة الواقع ،

فيجب أن يقدمه في اطار من السخرية او الهجاء . هذا الانحراف هو الذي يحيل الواقع الى فن . اما عرض هذه الانتهازية كلها بدون تعليق ولا تكبير أو تصغير فاما ان يعني ضلوع الكاتب مع هذه الطبقة واستحسانه لأساليبها ودفاعه عنها ، أو يعني عدم فهم الكاتب لموقعه من الاحداث ، أو لهدفه من الكتابة .

★ ★ ★

لناخذ ، او لننتقل الى علاقة هذه المجموعة بمقاومة اسرائيل . في مطلع الرواية يقول عباس : « الحكم بيدنا الآن ، فما الذي يمنعنا من صنع الثورة ؟ اي قوة تستطيع ان ترفع رأسها بوجهنا ؟ » . بدهي أن مثل هذا الكلام يجب ان ينطبق على كل اعداء الثورة في الداخل كما في الخارج . مما يجعل السلطة في حالة اعداد للقوة التي تجابه الاعداء . وليلة الاحتفال براس السنة في بيته الذي اشتراه من اموال الرشوة ، يسأله سائل : [« متى ينقشع الغبار عن النصر ؟ » يضع عباس كاسه ويتناول السيجارة : « متى قال لنا القادة : عليهم »] ص ٢٣١ .

بعد إغلاق شرم الشيخ تصبح الحرب متوقعة . فتستدعي القيادة عباسا وتامره بالتوجه الى الجبهة ، فيسهر في بيته قبل الرحيل ، ويقول لامية : « إذا بقيت اميركا على الحياد ثلاثة ايام تحسم القضية . لكن عبد الناصر لا يريد الحرب ، واعتقد انه غير واثق من النصر ؛ حتى الأزمة كلها استعراضات » ص ٢٨٦ .

فاذا كان عبد الناصر غير واثق للنصر ، فكيف يكون عباس واثقا به ؟ ومع ذلك فانه يفاجأ بهزيمة حزيران . هنا يسعى الروائي الى أن يكون وثائقيا ، تاكيدا لواقعية الرواية ، فينقل تعليقات الصحف والبلاغات العسكرية وبيانات الاذاعة خلال الحرب ، ثم يضع على لسان عباس التعليل الرسمي يقوله عباس لطلعت وزوجته غادة : « الهم سيدي ، أن الانظمة التقدمية لم تسقط . هدف العدوان الاساسي كان اسقاط الانظمة التقدمية » — فيما يفكر وهو يتكلم « غادة . لم تكن غائبة عن ذهنه تماما . غير انها الآن حاضرة تماما » ص ٣٥٠ .

ان مغزى هذا المشهد يغيب عن ذهن المؤلف ، فهو يعني ان عباسا يرى ان مكتسباته الشخصية ، من مناصب وعشيقات ورشاوى ، لم تمس بالرغم من هزيمة حزيران . غير أن التزام المؤلف بالواقع التسجيلي أو التقريري في الرواية ، وتعاطفه مع شخصياتها ،

يفوتان عليه فرصة التحليل . أي فرصة فهم مغزى الوقائع التي يسجلها والاحاديث التي ينقلها . فهو يشفع كل سقطة يسقطها البطل بالتأكيد على نيته الحسنة ، ناسيا ان النية الحسنة تعجز عن تغيير الواقع في الداخل مثلما تعجز عن الصمود في الخارج . النية الحسنة لا تبرىء السياسي من نتائج تصرفاته السيئة . في التاريخ يكون الحكم على النتائج وليس على النوايا . ومع ذلك فان المؤلف يظل مؤمنا بالنوايا الحسنة لهؤلاء الناس الذين لم يهتموا يوما بغير فروجهم وجيوبهم . ودليل ايمانه بهم او بنواياهم انه يفتعل لهم مصيرا لا يستحقونه وغير مؤهلين له — فاذا كان ماضي البطل في الرواية يحدد مستقبله ، بحسب راي المؤلف الذي يفرض على كل انسان سلوكا مطابقا لطبقته ، فان حياة هؤلاء الاشخاص لا يمكن أن تنتهي نهاية بطولية . ومع ذلك فان تعاطف المؤلف مع شخصياته يجعله يخون الواقع والفن كليهما . فهو يدفع هذه المجموعة الى الالتحاق بالعمل الفدائي ويجعلها تستشهد في أثناء التدريب . ان هذه النهاية ميلو درامية فاقدة لشروط الاتساق Consistancy في العمل الفني . فهؤلاء الذين صورهم بصورة الانتهازيين خلال اربعمائة صفحة لا يمكن ان يتحولوا الى شهداء في اربع صفحات . يمكن ان يستمروا في الانتهازية فيندسوا في صفوف العمل الفدائي ، اما ان يتحلوا فجاة بالشجاعة والاقدام المتعاطف الذي منحهم عبر العمل الفدائي « صك الغفران » لهم عن خطاياهم التي ادت الى الهزيمة .

مرة اخرى ، يسعى المؤلف الى تبرئة أبطاله من خطاياهم ، وتبييض صفحتهم من المخازي التي انغمسوا بها ؛ فبدلا من ان يحاكمهم على الهزيمة يقول : « الذي حدث هو ان دمشق هزمت خمسة الاف سنة من عمر الحضارة اطلقت عليها النار » ص ٣٣٤ فالمؤلف هنا يتبنى راي « ابطاله » في انهم غير مسؤولين عن الهزيمة ، وان من واجب المدينة المستباحة ان تدافع عنهم بدلا من ان يدافعوا عنها :

« يا أرض خضراء الدمن . ياحلما مراوغا . ياجسدا مثخنا بلآلئا . ياأما ثكلتها نفسها . يتعجب المرء من كبريائك العربية المهيبة : وتطوحات الرمل والبساتين بين فخذيك . ترى من اين دخل التتار الى مخدعك وانت غافية ؟ .. من أين الصليبيون ؟ والترك ؟ والرجل الابيض ؟ والصهاينة ؟ وانت مازلت تنبضين يا قلب العروبة » ص ٣٣٦ .

بهذا النص وأمثاله ، ومثله كثير في الرواية ، يسعى المؤلف الى تبرئة مرحلة تاريخية من مسؤولياتها . ولكن بما أنه لايجد من يلقي عليه وزر الهزيمة يفر الى الشعر والتاريخ والحضارة ، مقيبا مقاصده الخفية في ثنايا العديد من التقنيات التضليلية التي وصفناها

في مطلع هذه الدراسة . ونحن لايهمنا من كشف مقاصد الكاتب سوى تأثيرها على تحقيق العمل الفني . فبما أن المؤلف يكتب بقصد التبرير اضطر الى تبني الواقع التافه لابطاله وغطى عليه مرتين :

مرة بالتأكيد على حسن نواياهم ، ومرة بمنحهم شرف الشهادة والفداء . هذا من الناحية الفكرية ، واما من الناحية الفنية فقد غطى على المضمون والمقصد بانواع متعددة من التقنيات تجعل القارىء يضيع وكأنه في متاهة . مما جعل الرواية ملفقة ملصقة ، كتيمة غير موحية ولا شفافة عن اية رؤيا انسانية او عربية .

ذلك أن الشفافية والرؤيا في العمل الفني انما يأتيان من محاولة الابطال او المؤلف تجاوز الواقع والتعالي عليه . في حين ان هاني الراهب وأبطاله منغمسون في الواقع اليومي الذي لايعني لهم سوى تحقيق مكاسب شخصية ، يشفعها المؤلف ـ كلما احس بضرورة ادانة سلوك ابطاله ـ باعلان نواياهم الحسنة ، بان يتمنوا لو يأتي مارد علاء الدين فيغير الواقع الفاسد ، وبذلك يعفيهم من مشقة النضال ضده وعناء تحمل المسؤولية عنه .

في رأيي أن التزام الرواية بالواقع الشخصي ، وسعيها المستميت في سبيل تبرير مرحلة تاريخية ، هما بالذات مصدر ضعف الرواية وسبب تجوفها . فالقارىء ليس ملزما بقراءة اربعمائة صفحة ليعرف أن عددا من الناس يضيعون أوقاتهم في المقاهي ومراودة النساء ، مهملين كل واجب وطني او اجتماعي ، متجردين من كل عمل عظيم او هدف عظيم . فقد اكتفى صموئيل بيكيت بصفحة واحدة ليظهر حالة العطالة من خلال حركة رمزية : اظهر على المسرح اثنين من المتشردين تحت شجرة جرداء ، يغدوان ويروحان ، ثم يراوحان في مكانهما لايبرحان . في الحقيقة هذه مهمة الفنان :

أن يختزل المعروف من تفاهة الحياة اليومية في عمل رمزي .

فالالتزام ليس التزاما بتفاهات الحياة اليومية ، بل هو التزام بغاية مثلى يتجاوز الانسان ظروفه أو يضحي بها من اجلها ـ او يكون انتهازيا فيكون من واجب المؤلف ان يبرز سقوطه لا ان يسوغ ويبرر . وفي الحقيقة ثم ناحية في الادب الحديث أسيء فهمها ، ومن الواجب اعادة بحثها وشرحها للادباء وأساتذة الادب على السواء . هذه الناحية هي أن مناداة الادب الحديث بعرض الواقع لا يعني على الاطلاق تخلي الادب عن مفهومه الاساسي هو انه بنية رمزية . ففي الرواية ، حين يقيء البطل أو يتبول او يضاجع او يقوم باي من الاعمال اليومية المبتذلة ... يجب تكون هذه الاعمال رمزا لمعنى ، فاذا اتت لذاتها سقطت في

الابتذال والسخف . فمهمة الفنان أن يختزل المعروف من تفاهة الحياة اليومية في فصل رمزي ـ في سبيل ابراز البعد الميتافيزيقي للانسان والمرحلة التاريخية قيد البحث .الادب لايكرس التفاهة ولايكرس نفسه للتفاهة . الادب يلتقط الانسان في حالة الفعل ، صعودا أو هبوطا . فاذا واجه العطالة تجنبها أو شوهها بالسخرية والهجاء . الادب يتجنب حالة العطالة لانها تجعله معطلا : وهذه بالضبط علة رواية هاني الراهب : رواية معطلة . فقد أرادت أن تكون رواية مصير ففقدت رواية ابتعاد عن المصير واستغراق في الصغائر بدون هدف .

من يذكر ، على سبيل المثال ، رواية مالرو « الوضع البشري » يدرك تماما ما أعني بالفرق بين رواية العطالة ورواية المصير ، رواية اللافعالية ورواية الفعل ـ الفرق ليس في الشخصيات ، وليس في أن أبطال « ألف ليلة ليلتان » ذباب يتطفل على مزابل التاريخ وأن ابطال مالرو يصنعون التاريخ ، لان الهزيمة كانت من نصيب الفريقين في الروايتين وفي التاريخ معا . الفرق اذن في الرؤية والتناول . الفرق هو أن مالرو أفلح في أن يجعل كل عمل يقوم به البطل مندمجا في ذاته وفي قضيته معا ، بحيث ظهر البطل وكأنه قذيفة مسددة الى هدفها ، مع انه بشر يأكل ويشرب ويرتاد النساء ويتاجر في سبيل الربح ، لكن ذلك لايحجب هدف حياته عن عينيه أبدا . أما أبطال هاني الراهب فقد صورهم متغمسين في تفاهة الحياة اليومية انغماسا يحجب عنهم كل هدف . فلو اخذنا صفة « ثوري » عن كل شخصية لما اختل بناؤها أبدا . وهذا يظهر أن هذه الصفة ملصقة بهم الصاقا . فان زعم زاعم بان الواقع ينتج مثل هذه النماذج وأن من واجب الفن أن يعرضها ، قلنا : نعم ، ولكن من خلال موقف يتخذه منها الفنان . موقف أخلاقي يهدف الى تثوير الواقع او فضحه وليس الى تبنيه والاعتذار عنه . فالفرق بين الروايتين المذكورتين يكمن في القصد مالرو شاهد قضية تهزم وابطالا يلقون مصارعهم فاعتذر عن هزيمتهم لا بحسن نيتهم بل بان أظهر كيف امضوا كل لحظة في حياتهم يعملون من أجل قضيتهم . اما المؤلف فقد شاهد هزيمة واظهر شخصياته يتخلون في كل لحظة من حياتهم عن قضيتهم ، فاغرق الرواية بتفصيلات الحياة اليومية معتبرا انها هي الواقع وليس ثمة مايعلو عليه او يتجاوزه أو يغيره . فالفرق الثاني بين الروايتين يكمن في احساس الفنان بما ينبغي اختزاله وما يجب التوسع فيه . لان الفن انتقاء لزاوية الرصد . فلو سعى المؤلف الى تجنب هذا التطويل الممل في حوارات المقاهي وغرف النوم لوجد ان الرواية اكتشاف لما لا يعرف وليس تسجيلا لما هو معروف مالوف . فان لم يجد الكاتب مناصا من تسجيل المالوف والمبتذل ، كان عليه

ان يختزل ذلك في صورة أو رمز او اسطورة تفضي بنا من لامعنى الواقع الى معنى في نفس الكاتب . اما ان يسجل كل شيء كما يقال ويفعل ، فلا . لانه في هذه الحالة سيكون امينا للواقع على حساب الفن الذي مهمته تنحصر في احدى اثنتين : اما ان يستخلص الحقيقة من الواقع او يضفي معنى عليه . هذا هو الفن ، فان خلا العمل الفني من احدى المهمتين او منهما معا عد ساقطا .

في الرواية يضحك المؤلف على صموئيل بيكيت صاحب « في انتظار غودوت » :

« ـ غودودت رجل . ينتظره اثنان صعلوكان ، لكنه لايجيء .

ـ لماذا ينتظرونه وهو لايجيء ؟

ـ لان حياتهما متوقفة عليه .

ـ الله يلعن هكذا حياة . واقفة على رجل لايجيء ! لماذا لا يدورون على شغلة يشتغلونها ! » ص ٩٥ .

ان الفنان اذا خانه الالهام يغامر احيانا بالكتابة في غياب احساسه الفني . في هذه الحالة يكون من الافضل له ان يدور وراء شغلة اخرى غير كتابة الرواية ، خاصة اذا اخفق حتى في استشفاف رموز اسماء الابطال التي انتقاها بعناية لكي تحمل مدلولات تاريخية ثم قصر في استغلال تلك المدلولات ولم يستطع أن يطورها بحسب ماتدل عليه .

البعد الانساني في شعر ايديث سيتويل وتقنيتها الفنية

د . نذير العظمة

لقد أعلن ت.س إليوت مبكراً في مطالع القرن بعد الحرب الكونية الاولى السقوط الروحي للحضارة الغربية في قصائده الثلاثية المشهورة : « الارض الخراب » (١٩٢٢) و « الرجال الجوف » (١٩٢٥) و « اربعاء الرماد » (١٩٣٠)(١) .

وتضيف إيديث سيتويل الى هـذا السقوط الروحي للحضارة الغربية سقوطاً آخر هو السقوط الاخلاقي في ثلاثيتها المشهورة : ثلاث قصائد للعصر الذري ، « مرثية نواح للشروق الجديد » و « ظل قابيل » و « اغنية الوردة » التي نشرتها جميعها في اعقاب الحرب الكونية الثانية مباشرة بعد الاسقاطات الذرية الاميركية على الجزر اليابانية(٢) .

وحيال سيطرة القيم المادية وخواء الانسان والحضارة وجفاف النسغ فيهما يحاول كل من الشاعرين ان يجد مخرجاً لهما من السقوطين الروحي والاخلاقي ، فيقف إليوت في خاتمة قصيدته « الارض الخراب » كنبي عراف من خلفه الحضارة الهرمة والموت يتشوق وهو على عتبة الرؤيا الى بنائها من جديد ويلمح دونما تقرير متنبئاً لها بالولادة الجديدة دون ان يعين لنا أو يحدد شكل هذه الولادة .

ويؤكد التصور الشعري الكلي لاليوت على الصورة القاتمة لسقوط الحضارة وجوانبها السلبية في معظم قصائده المتصلة بطقوس الخصب واساطيره رغم ان النقاد قد تفاءلوا بقصائد « الرباعيات الاربع » واعتبروها مؤشرا واضحا نحو رؤية ايجابية . ففيها يؤمن اليوت ان الوجه الآخر للموت هو الحياة وان آخر النهاية البداية وان الطريق الى الاسفل هي الطريق الى فوق(٤) .

مهما يكن فان الكشف الايجابي الذي لم يسعف إليوت في شعره اسعفه في خطراته النقدية والفكرية فراى في تقدير ثابت ان الخلاص الوحيد للانسان الغربي يكمن في العودة الى المسيحية ويخصص تراث الكاثوليكية الروحي دون المذاهب الاخرى .

اما ايديث سيتويل فانها تؤكد على التعلق بالمسيح ابن الانسان لخلاص الحضارة الغربية من سقوطيها دون ان تربط رؤياها الشعرية او موقفها الديني بكنيسة معينة او مذهب ديني مخصص .

وعلى الرغم من ان تصورها الشعري يؤكد على الجوانب القاتمة لسقوط الانسان والحضارة الا انها تبادر مقررة ان المصلوب هو الباب المضاء مع كل ما يصاحب رؤياها من تشاؤم وشحوب .

كان الوصول الى انجاز القنبلة الذرية الحلم الاوج في عقل الحضارة الغربية وجهودها العلمية . ولكن واأسفاه ان اول انجاز لهذه القنبلة لم يكن لخير الانسانية بقدر ما كان اداة تقرر حق الغالب على المغلوب وتعطيه سلاح الإبادة الجماعية ليخرج منتصرا من الحرب .

ان الاسقاطات الذرية الاولى في نهاية الحرب الكونية الثانية على الجزر اليابانية كانت بمثابة انتحار لقيم الحضارة الغربية التي طالما بشرت بالحق والعدالة والمساواة والحرية فاذا بها تنحرها جميعا من أجل الغلبة والقهر . وإيديث سيتويل الشاعرة المرهفة الساحرة لم يفتها ما في هذه الاسقاطات من معان انتحارية وسقوط روحي واخلاقي ، فانبرت فورا تجند شعرها

ورؤياها العادلة البريئة للدفاع عن الجنس البشري عن الانسان جميعا لا عن قومية بذاتها أو شعب بعينه رغم أنها من بلاد تنتمي الى صف الغالبين لا المغلوبين وانها قاست ما قاست من الغارات الجوية النازية .
وينطلق تصور الشاعرة في رحاب انسانية برؤيا تسبر نافذة اختلال التوازن بين عقل الحضارة الغربية وقلبها بين انجازاتها العلمية وتراثها الروحي صارخة :

ان دماغ الانسان اكثر قتلا من قابيل واكثر
من نيرون احمرارا
انه يمزق رحم امه الارض ليعرف الموضع
الذي تكوّن فيه (٥) .

□ □ □

وها ان اشعاع علمه يتفجر فيلتهم كل جذور الحياة . حقا لقد مات قلب الانسان في تلك الحضارة(٦) .

هذه الغواية التي اتسمت بها استجابة سيتويل المستنكرة للاسقاطات الذرية يدلل بوضوح على خلقها الاخلاقي ومسؤوليتها الروحية فكأنما هي تمثل الجنس البشري جميعا وتنطق باسمه ، فهي تدرك ان القضية ليست غلبة او مسألة قاهر ومقهور انها تتعدى ذلك الى الخلايا الاساسية للحياة فإما بقاؤها واستمرارها او استئصال بذورها جميعا .

فالدماغ الذي يخطط دمار البشرية بفقدانه حرارة القلب يدرك درجة الصفر فيحيل كل شيء معه ويستحيل الى عدم .

« البرد هو أعلى فكرة رياضية (يصل اليها هذا الدماغ) . البرد هو الصفر ، العدم الذي ينشأ منه كل الوجود والممكنات . انه الصوت الاعلى حدة على اسماعنا ، النقطة التي تتسع حتى تصبح خط الزمان ... انه تكوّن العدم أو المثل الاعلى الذي يحاول أن يبرز الى الوجود بالتوالد حينئذ يتجمد الزمان في اللاحركة ويتحول الى فضاء »(٧) .

وتعتقد الشاعرة ان دماغ قابيل الجديد يتحول الى درجة الصفر فيتفجر اشعاعات ترتد بسببها الارض الى عصورها الجليدية الاولى وينقرض الانسان والحضارة بفعل فساد بذرة الخلق التي لا تصلح دون الفدية التي يقدمها يسوع ابن الانسان .

وتتكلم الشاعرة من خلال تصور شعري اخاذ عن البرص الذي يصيب الانسانية بفعل الاشعاع الذري وتقرن برص الاشعاع ببرص الذهب الذي يفقد الانسان صورة الاله الكريمة وتستبدل وجهه بصورة السنبلة الفارهة التي تغتسل في تهطال مطر الاشعاع الابرص .

وبعرفها ان كلا البرصين متلازمان ؛ فبرص الاشعاع هو برص العقل العلمي الذي يتخلى عن القلب ويفقد التوازن فيدمر من حيث يريد التعمير ويشع موتا وابادة من حيث يريد البداية والنور .

اما برص الذهب فهو الذي يخلق الفقر والفقراء ويحكم الارض بالجريمة والجوع ، يمارس الاحتكار ويسرق الانتاج ، ويولد برص الاشعاع الذي يمتص عروق الارض ويستأصل حيويتها . « انه ظل قابيل **ظل الجوع الاول** »(٨) .

وما من شفاء لاليمازر الذي يرقد مدفونا في فجوة العالم الجديد من برصه المزدوج بالذهب والاشعاع الا بالعودة الى الايمان والردة الى الروح المتمثلتين بالسيد المسيح فيبرأ الانسان — أو لعله — من برص الحضارة ويستعيد التوازن المعقود بين ضمير الانسانية الاخلاقي وعقلها العلمي فالمسيح لم يمت عبثا . انه آت ولو على بحار من الدم لينقذ البشرية والانسانية .

وتقرن الشاعرة بنفاذ رؤياها البعدين : الاخلاقي الروحي والاقتصادي الاجتماعي معا ؛ فتتهم ديفيس وهو رمز لمحتكري الثروة بانه ظل قابيل ، ظل الجريمة التي تخنق الارض بالاشعاع . انه حامل البرصين : برص الذهب وبرص الذرة .

فالذهب هو المحرك الاساسي للحروب والسبب الاول لبرص الاشعاع .

وتستبطن الشاعرة شخصيات توراتية او انجيلية، فتسقط الكتب المقدسة على الحياة او الحياة على الكتب المقدسة في تجارب شعرية وجودية تنبع من القلب وتتعاطف مع الكون من منظور انساني رحب يلتزم بالحياة والانسان ضد الوحشية والموت ايا كان مصدرهما ، وبقدم لنا تصورها وخيالها المبدعان مضامين انسانية حقيقية في اشكال شعرية جديدة تشع بالفتنة والحركة وتنبض بالحياة من قلب الحياة ورحابة الكون .

واسلوبها الشعري لا يكتفي بتوسل الصور والرموز المفردة بل يتعداها الى الرموز المركبة في حركة درامية تستحضر فيها رموز المصادر المذكورة وشخصياتها تسقطها على الحاضر او تسقط الحاضر عليها بروعة وبهاء . وتكثر الاصوات الداخلية في قصائدها فتكسوها ابعادا عميقة ومتحركة ، وتستخدم ببراعة القصة الرمزية القصيرة Allegory تغني بها مضمون قصائدها واشكالها المتجددة في ضوء تجاربها الشعرية الحاضرة ، فتخرج على القارىء بأجواء شعرية حديثة واشكال للتعبير غير معهودة . كما تستفيد من علاقات التضاد والتقابل فتضع ديفيس والعازر وجها لوجه ، تسلط الواحد على الآخر كما في قصيدتي « اغنية للبرد » و « ظل قابيل » . وديفيس هذا هو من شخصيات العهد الجديد وهو رمز للجشع والطمع واحتكار الثروة وشارة الاستغلال في الازمنة الحديثة في رؤيا الشاعرة . أما اليعازر فينتمي الى المصدر نفسه ، ولكنه نقيض ديفيس ، فهو من الفقراء الذين عاشـوا على الكفاف واعينهم تنظر الى موائـد ديفيس المترفة(٩) .

ولكن في مملكة الروح تنعكس الآية فيرتفع اليعازر الى مصاف ابراهيم عليه السلام ، ويرسف ديفيس في اعماق العذاب والتمزق جزاء جشعه واحتكاره . لقد ازالت العناية الالهية الفقر والشقاء عن اليعازر كما شفته من البثور التي تغطي وجهه وجسده ورفعته مكانا عليا .

وتستفيد الشاعرة من ذلك كله ببراعة لتمثل لنا دراما الحياة الحاضرة في ابعادها الاجتماعية والاقتصادية المتناقضة كما تفيد من قوانين التضاد والتقابل لتعري علاقات التناقض الحادة في المجتمع البشري .

والشاعرة لاتكتفي بالبعد الواحد في تصويرها لهذه التناقضات والشخصيات فتضعها في الابعاد المتقابلة للماضي والحاضر ، وتسلط عليها اضواء دراما الحياة الحاضرة في اطار انساني ، وتحول مادتها الشعرية من الكتب الى الحياة ، فهي لا تضمن مادتها الشعرية كما هي في المصادر الاساسية بل تغيرها وتطورها وتعيد خلقها وتركيبها بما يتناسب مع تجربتها الشعرية ورؤياها المناسبة .

فاليعازر مثلا لا يبقى اليعازر الفقر والحرمان والبثور بل ينطوي ايضا على اليعازر آخر هو اليعازر البرص الذي يقيمه السيد المسيح من بين الاموات ينهض من القبر باعجوبة الحياة الجديدة فالايمان بالبعث لا يخون الشاعرة ولو انها لا تخلع حلة السواد والتشاؤم . ثم ان اليعازر الوجه الآخر لديفيس يصبح اليعازر الحاضر المشوه بالبرصين الذهب والذرة ، الذي ينتظر المسيح الجديد من أجل القيامة .

ومذهب ايديث سيتويل اقرب ما يكون الى مذهب ابي تمام في تقاليدنا الشعرية ، فهي تحتفل بالشكل احتفالها بالمضمون وتدهشك بمعانيها كما تدهشك بصورها ومجازاتها . فكثيرا ما تطلع في القصيدة الواحدة بالرموز المبدعة والخيالات المركبة التي يتناول الابداع فيها صورة واحدة ذات دلالات متعددة ، اذ يكتسي اليعاذر والبرص في قصيدتها « ظل قابيل » بالتورية ويعبران عن ابعاد متداخلة ، فتنتقل الشاعرة بالقارىء بواسطة الايحاء والتداعيات من البعد العضوي الى البعد الروحي الديني الى البعد الذري والانساني ، وتنظم ذلك كله في صورة واحدة ذات ابعاد متنوعة من برص الاعضاء الى برص الروح الى برص الاشعاع الى برص الذهب : تجتمع كلها في اليعاذر الجديد الوريث المشوه لعصر الاسقاطات الذرية .

ويتداخل عالم الحواس في صورها ويتفرع ، يتنوع في وحدة ، وينتقل من دائرة الى دائرة كاشعاعات تنبعث من بؤرة واحدة تتسع وتتسع كلما بعدت عن المركز ولكنها في جوهرها تبقى عالقة فيه .

ويقترن في شعرها تداعي الصور بتداعي الحواس ويعتمد عنصر الادهاش في تداعياتها على التقابل مرة والتضاد مرة أخرى ، فتتداخل وتتنافر كأنما لغتهـا الشعرية عالم عضوي موحـد على الرغم من تمايز وتنوع الاعضاء المؤلفة له .

فالوردة والجرح ، الجرح والذهب ، البرص والاشعاع شكل الزهـرة والمظلة الذرية ، الرحم والقبر .

وتظل الشاعرة تدهشنا بصورها السوريالية المبنية على تقابل الحواس كالعطور الارجوانية والنار في الدم ورعود النسغ والدم في القلب والحرارة في البذور . كل هذه شواهد حية على تداخل الحواس والصور .

وعلى الرغم من أنها لا تشذ عن تقنية إليوت من حيث تركيب القصيدة ككل الا انها في صورها المفردة والمركبة وبتأكيدها على الموسيقى الشعرية والايقاع أكثر صلة بالرمزيين والسورياليين .

فهي تعتمد اعتمادا بالغا على المجاز والرمز والصورة في خلق لغة شعرية متميزة تتسم بالبساطة والعمق في آن واحد .

وكثيرا ما تزاوج بين تضمينات المصادر المسيحية وطقوس الخصب الوثنية ودلالاتها ومشابهاتها في المصادر الادبية والتاريخية .

والقصيدة عندها أبعاد متنوعة واصوات متعددة ودراما متحركة يتقابل فيهـا المسيح ويهوذا ، المسيح والبعاذر ، المسيح وقابيـل ، المسيح وديفيس ، في كيمياء جديدة من الايقاعات والكلمات والرموز والصور .
ويعتمد إبداعها الشعري على انفجار الصور بعضها من بعض ، فتلجأ الى الرمز القصصي « Allegory » كما فعلت في « ظل قابيل » . حيث تتداخل شخصيات ثلاث في صورة عريضة واحـدة : ديفيس والبعاذر وقابيل ، فهي وجوه متعددة لشخصية واحدة ، توحد فيها البرص بكل أبعاده : القتل والذهب والشهوة والاشعاع .

ويقف المسيح على الطرف المناقض منهـا ، متوهجا بالتقـابل ، امل

المعجزة ، ورمز الشقاء والاعجوبة . إنه يطأ الموت بالموت ، ويدحرج الصخور عن قبور الموتى ، ويرجع للبرص صورة الانسان الكريمة .

وهكذا فان خيال الشاعرة المبدع لا يكتفي بأن يعبر عن الصور المحسوسة بالصور المرئية او غيرها من صور الحواس الاخرى التي يتداخل بعضها في بعض في بهاء وروعة مدهشين ، فتعبر الرؤيا عن السمع والبصر ، عن الشم – على غلبة الصور المحسوسة الرؤية في شعرها – وهكذا ، على شاكلة الرمزيين في مبدأ مقابلات الحواس أو ما يسميه شارل بودلير بال (Correspondances) في ديوانه ازهار الشر وبشكل خاص في قصيدته التي تحمل العنوان نفسه(١٠) .

والشاعرة سيتويل تتعدى المقابلات الى المزاوجات (Juktapositim) فتاتي بالمبدع والمدهش في صور مركبة . فالقنبلة الذرية في حال انفجارها تتشكل زهرة ؛ او تتخذ شكل الزهرة التي تتحد في نارها كل العناصر ، وتنشر توهجا مميتا بائتلاق يذكر بالنور رمز العرفان والهداية ، واذا به هيهنا ينبعث من الانفجارات الذرية عبر خيال الشاعرة تشكلات غريبة تنقض حقيقة العالم وتزرع فيه بذور الفناء والموت .

فهي اذن لا تكتفي بتطبيق مبدأ المقابلات في الصور المفردة بل تتعداه الى الصور المركبة بابداع يقترن بالتداعي فتتولد صورة من صورة وتقترن بها اقتران احساسات التجربة الشعرية في نفس الشاعرة المرهفة وخيالها المبدع .

فالوردة على الحائط هي صوت النار التي تنمو فيها روعة الموت الرماني، وقطرات الندى هي قطرات الدم القرمزية الحمراء التي تتوهج فيها جراح المصلوب ، والجراح هي الوردة والوردة هي صوت النار التي تتحد فيها كل العناصر ، هي الزهرة ، والزهرة هنا هي غير الزهرة بل هي تشكل الانفجار الذري الذي يأخذ شكل الزهرة مذكرة بورد جراح ابن الانسان على صليب العالم الجديد وانفجارات رغباته المميتة .

وهكذا فالانسان في مدينة المجاعة يأكل قلبه وظله ، وتتلاشى الانظمة

الحية كلها والعناصر على اختلافها والحياة بكل ابعادها لتتشكل زهرة مضيئة بالموت ، مشعة بالفناء ، عاطرة بخراب الانسان ودمار صورته الكريمـة .

وتنتقل سينويل من مقـابلات الحواس الى مقابلات الرؤى في خطوط وانحناءات حسبما يوحي لها خيالها المبدع الخلاق ، فصورة المراة التي تمشط شعرها المسبل تقترن بايقاع النهر الجاري ، وحدبه القزم بحدبة جبل على السهل ، واحمرار الورد باحمرار اقواس القزح ، ونار القلب الانساني بألم الارض .

تموت كل صور الحياة ويبقى العالم ، ولكن اي بقاء ؟! المراة التي كانت تغني مظاهر الوجود الحي لم يبق منها غير ظل احمر يلطخ الحجر الذي لا يذكر شيئا .

لكن شارع المجاعة لا يفقد حركة البيع والشراء فيه كما لا يفقد حركة الموت والجفاف . كل شيء قد تفحم تحت قبلة الزهرة الوهج ، الوردة الموت ، الضياء الجرح ، التي تنزف في خاصرة الانسان والعالم .

والقلب الذي يولد الحرارة في حياة الانسان قد مات . انه يحملق الى الفراغ بأعين عارية لا تحميها اجفان من الاشعاع فتستبدلها بقطع العملة المعدنية . والاعين التي كانت تنفذ الى الكون وتفتح المسافات اصبحت بعد تفجر الوهج قروشا لا تحس ولا تبصر في مدينة الجوع .

من لهذه المدينة ؟ من لهذه الاعين ؟ من لهذه الشعلة المنطفئة في الصدر ؟ الوردة على الحائط ، التي هي صوت النار ، صوت جراح المصلوب ، تصيح للضوء انها لا تزال جالسة على عرشهـا رمزا للحيـاة وجوهرا للنور المحيي . انها تجلس على عنقها الاخضر النابع من قلب ابن الانسان الذي ينزف على صليب الاشعاعات الذرية ، وهو النار المطلقـة التي ستدفىء مدن الجوع وتطرد البرد من قلب العالم ، فتعيد للحياة العانية والحب الحركة وللعقل الانسجام والتوازن .

وهكذا نرى أن أيديث سيتويل سيدة الكيمياء الجديدة للشعر ، كيمياء الكلمات والصور ، كيمياء الاحساسات والافكار ، في تداعيات تتداخل وتتمايز ، تنفرد وتتشابك في كل موحد لحيـاة تصبح رمزا ، أو رمز يصبح حيـاة في تجربة شعريـة وجوديـة حية تصيّر الواقـع اسطورة والاسطورة واقعا بيسر اخاذ وبساطة تخلب وتفتن .

ونرى ان الشاعرة تسـتمد تصورها ومادتها الشعرية مـن مصدرين اساسيين اولا : التراث الحضاري والروحي . ثانيا : تفاعلها الحي مع ما يجري في الوجود . ومن خـلال هذين المنظورين تبدو الشاعرة لنا ثورية متشائمة لا ترضى بسلطة العقل سلطة نهائية على الحياة والكائنات لانها سلطـة باردة مدمرة تتوسل آلات الفتك والدمار وتقتل الانسان والحضـارة .

أما القلب فهو ينبوع الحيـاة والحرارة وهو اصـل الانسـان وملاذه في مجتمعات الغرب البـاردة التي جمدت روحها علاقات الانتاج والاستهلاك المادية وفرغت الروابط الانسانية فيها من المحتوى فأصبحت شكلية باهتة تقوم على الربح والاستغلال لا على الاخوة البشرية :

وهكذا هو القلب اعظم قوة من الرماد

□ □ □

والفكر ما هو الا ريح طائشة

□ □ □

وان نار الفكر ونار القلب لن يكونا شيئا واحدا

حتى نهاية الابد(١١)

وعندما يحطم العقـل الروح الانسانيـة ويطرد الدفء من قلب البشر ويفتك بـه ويدمر صورة الانسان الكريمة ومجتمعاته إن بالاستطالات الذرية أو الاستغلال الاقتصادي أو الحيف الاجتماعي . عندما يتخلى الانسان عن القلب عن الإله ، عن الحرارة والنبض ، ماذا يبقى غير البرص والخراب والموت ؟

وعلى الرغم من تشاؤم الشاعرة من تسلط الفكر المفرط على العلاقات الحية فانها لا تقطع الامل بالنجاة . انها كمعاصرها جبران خليل جبران وسلفهما وليم بليك تجد في العودة الى المسيح لا الكنيسة ، الانسان لا المؤسسة ، الامل الوحيد في استعاد البشرية دفئها ونبضها وعافيتها وتكوينها السوي .

والشاعرة في خيالها وتصورها الشعريين لا تقف عند حد التنظير بين قوى العقل وقوى القلب ، قوى المادة وقوى الروح ؛ بل تتعدى ذلك الى التركيب النفسي والاجتماعي والاقتصادي للجماعة البشرية ، فترى ان الاستغلال الجشع هو المسؤول عن تسلط الفكر المادي .

إن تأكيدها على الانتماء الى المسيح لا الكنيسة ؛ وتعلقها بالحرية والمساواة ودفاعها عن الفقراء المغبونين المستغلين من ارباب المال والصناعة والسلطة يجعلها شاعرة ثورية ، مسيحية الانتماء ، اشتراكية المنزع ، عاطفية التصور ، ولكنها مع ذلك كله هي أميل الى التشاؤم والحزن تماما كما كان موقف ابي العتاهية من حضارة الانسان العربي وترفه واستهتاره في القرن الثامن الميلادي لخلافة بني العباس . ويصح القول فيها انها لأبي العتاهية اغرقت في رؤيا الموت حتى غابت عن عينيها نعمة البعث ، فعودتها الى المسيح في مجمل قصائدها لا تخلو من الياس والموت وصور التشاؤم الاخرى :

انت في البداية عوالم البؤس ، قلاع الحرق الصغيرة والسامقة
موصدة الواحدة دون الاخرى . هؤلاء لا اسم لهم
لا صديق لينطق ذلك الاسم ... وأولئك ذوو الوجوه المنقرضة
انهم حضارة ضائعة ، لا ملك لهم غير الليل والنهار وقرون البرد .
حتى أن دموعهم قد تحولت الآن الى
ليالي البرد السرمدية حول الراس الذي بلا حب
لهؤلاء الذين يعيشون كالموتى وحيدين بلا جنس(١٢)

أنا النار السائرة على الاقدام .. أنا الاوراق
سوف أنادي الربيع لكي يعطيني لغة الطيور والافاعي
عساني الآن أذرف الدمع على هؤلاء الذين ماتوا من البرد
البرد المطلق في قلب الانسان(١٣) .

هوامش

(*) انظر دراستنا « آيديث سيتويل ومؤثراتها في شعر السياب » المعرفة عدد ١٧٧ تشرين الثاني ١٩٧٦ ص ٤٥ ـ ٦٤ .

(١) T. S. Eliot, The Complete poems And plays 1909 - 1950 New York 1962 - PP. 37 , 56 , 60 .

(٢) Edith Sitwell , The Collected Poems New York 1954 , PP. 364 -374 .

(٣) Eliot, P. 123 .

(٤) Eliot, P. 144 .

(٥)و(٦) انظر المجموعة « قصيدة مرثية ...» .
Sitwell The Gllected ... PP. 364 ; 367 .

(٧)و(٨) انظر المجموعة ـ قصيدة « ظل قابيل » .

(٩) انظر التوراة سفر لوقا : ٢١ ـ ١٩ : ١٩ .

(١٠) Charles Baudlaire, Les Fleurs du Mal, Paris 1964 P. 13 .

(١١) المجموعة ـ ص ٢٩١ .

(١٢) المجموعة ـ ص ٢٨٥ .

(١٣) المجموعة ـ ص ٢٨٩ .

حول ازمة المسرح المصري

كتابات غير منشورة — **نجيب سرور**

الازمة لم تبدا

كثيرا ما قلت في غير هذا المكان انني اكره استعمال كلمة ازمة اذا لم يقصد بها وضع النقاط فوق الحروف وبينها وتحتها وبوضوح لايحتمل اللبس ولاينزلق بنا الى الكلمات العامة او التعميمية أو الى دوامة من المقولات والمفاهيم والنظريات القائمة او المعكوسة او المقلوبة، ولا يصيبنا بدوار الطرح المغلوط للقضايا عن عمد وسبق اصرار وترصد ، فالحديث عن ازمة المسرح يعني الحديث عن ل شيء والحديث عن كل شيء يعني الحديث عن ازمة المسرح هذه بدورها ازمة الفكر عامة والثقافة عامة والنظم والاجهزة والمستويات وشتى القضايا التي تهم المواطن في مصر باعتبار المسرح محصلة الفنون والآداب ، والثقافة عامة ، وباعتباره انعكاسا لهذه الظواهر كلها التي هي بدورها انعكاس لحياة وفكر وامال وطموحات المواطن في مصر . واحب أولا أن الفت النظر الى عدد يوليو من مجلة المسرح والسينما القاهرية وفيه مناقشات وتساؤلات حول ازمة المسرح المصري مطروحة بصور شائنة او مغالطات عمدية أو بواعث حتى استفزازية ، لاتستهدف وجه الحق ولا وجه الفن ولا وجه المسرح. يكفي ان اشير الى (عبد الفتاح البارودي) فيما يثار الان من جدال خبيث عن المسرح ـ كما اشير هنا بالذات الى كتابات كثيرة لي عن المسرح ابان ما اسمي بنهضة الستينات من تضمه القديم حوار في المسرح من رصد حتى للسلبيات في مسرح الستينات وتحذير منها وتنبيه لها .

الامر الذي يعني اننا كنا ندرك جيداً العقبات المتراصة على مسيرة المسرح المصري ! وكنا على وعي بها وعلى حذر منها واننا لم ننخدع لابتهضة الستينات ولا بازمة اواخـر السبعينات ـ البارودي وكذاب الزفة ـ كما يقولون .

يحاول الآن ان يثبت ان الستينات كانت فترة ازمة وان السبعينات كلها هي فترة النهوض والبعث الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ المسرح العالمي . هكذا بالقوة وبلا اسباب وبقدرة قادر وصبري موسى او موشي سيان (حلوة هـذه السجعة) وهـي علـى وزن « ديان » و « وايزمان » الخ . .

أين هي وفيم تتجلى ازمة المسرح ؟

أهي في التاليف المسرحي ؟ يقولون الآن ان ثمة ازمة في التاليف وبانه لايوجد المؤلف المصري بين الاصالة والمعاصرة والحداثة والقدم و (المعارضة) مع ان الستينات رغم كل سلبياتها وضعت على خشبة المسرح نصوصا محلية أروع بكثير من النصوص العالمية واعمق واصدق ـ اذا وضعنا في اعتبارنا ازمة المسرح في العالم كله ـ بين الشرق والغرب ـ ولم يكن مؤلفوها غير ناضجين كما يقال بل كانوا يعون جيدا مكانهم من التراث المحلي والعالمي . رحم الله الماضي ان الماضي روح .

فاين ذهب هؤلاء ، أجبر بعضهم على الخرس ، وأجبر البعض الاخر على الاعتزال والبعض الثالث على الهجرة البدنية والفكرية ، ومات بعضهم ، ودمر البعض ، منهم احيانا بالبطالة المفروضة والمتبعة ، وأجبر البعض على الانزلاق الى التلفزيون والاذاعة والسينما (ولايمني على النكة) و (الفراطة) . استغرق البعض في بحار السكر والافيون والحشيش ومستحضرات رجب العطار .

وأجبر البعض على الجلوس بالمقاهي والنوادي لاجترار ذكريات الماضي القريب . ان الفنان الكبير يوسف وهبي يتحدث في نفس العدد المشار اليه عن قضية المسرح حديثا اكثر واقعية واكثر شجاعة وبراءة وطهرا مما كنت اتصور. انني احب هذا الرجل منذ نعومة اظفاري،ومن اظفاري من اظفار الطفولة والصبا والشباب قد اكتسبتخشونة لايخترقها جحيم الاسفلتتحت شمس يوليو في صيف القاهرة الذي لاينتهي شتاء ولا ربيعا ولا خريفا ولا صيفا ولم تعد تخلو الآن مقالة او دراسة في المسرح او الادب او الثقافة عامة من تعبير الاصالة والمعاصرة باعتباره موضة جديدة في التعامل والحوار . يقصدون الحداثة والقدم فمتى كان الفـن العظيم ، غير معاصر حتى هوميروس كان معاصرا ، واذا كان قديما قدم القدم فان الفـن

العظيم يجيب عن اسئلة الزمن المطروحة ، ولكنه يتجاوزها الى جميع الازمان ، وحتى شكسبير وسيرفانتس قديمان ومعاصران لان الفن يعبر عما هو نموذجي ، وما هو نموذجي في أي مكان وزمان يظل نموذجيا في أي مكان وزمان ، ويظل الفن متجاوزا الزمان والمكان ومقيداً بالزمان والمكان في نفس الوقت ثم لماذا لاتحس دول القارات الخمس بالشعور بالنقص أو بمركب النقص والتزامة او بالعار من استيعاب او استيراد القالب المسرحي اليوناني كما نحس نحن أو كما يراد لنا ان نحس بل لماذا لا نحس الآن ومن باب أولى بهذا الشعور ازاء السجائر رونمان وكرافن ومارلبورو (وتعال الى حيث النكهة) وسيارات مارسيدس ودانسون وسوزوكي وأغاني ديميس روسوس وتوم جونز ونجاة الصغيرة وسعاد حسني (باواد يانقيل) وصباح (يادلع دلع) وشريفة فاضل (الليل ـ الليل ـ الليل) وزجاجات سفن آب داون وسفن بتوين (أي بين بين) وسفن سفن وسفلس ... الخ .. والعلبات والعبوات ؟ لماذا نبحث عن قالب آخر للمسرح المصري . حين نبحث عن قالب فقط فاننا لانبحث عن المضمون وانما عن الشكل اي اننا مشكليون ، والواقع اننا هكذا في كل شيء مجرد أقنعة مستعارة خبيثة متنكرة مرارا ومتجددة اللون كالحرباء . وفي كل ظواهر الحياة لم يعرف العرب شيئا عن المسرح ولكنهم بالتأكيد وخصوصا الفارابي المعلم الثاني بعد ارسطو كان يعرف المسرح اليوناني بالتأكيد ، اما لماذا نقل الفارابي وغيره روائع الفلسفة وجوهر الفكر والتراث اليوناني ولم ينقلوا بالذات شيئا ولو على سبيل العينة أو المثال من التراث المسرحي اليوناني فهذا هو السؤال ، وهو السؤال الذي طرحته على صفحات « الكاتب » قبل عامين بعنوان (بين يدي ارسطو) ، ولا مجال للخوض فيه مرة ثانية بالتفصيل . ان الذي أثار مشكلة قالبنا المسرحي هو الدجال المسرحي الكبير توفيق الحكيم، ولي مع توفيق الحكيم حوار سينشر قريبا حول مشاكل المسرح كما اراها وكما يراها ، وأنا اعتبره لا كاتبا مسرحيا كبيرا ولا رائدا مسرحيا في مصر ، فالرائد الحقيقي هو عبد الله النديم لايعقوب صنوع كما يقال ، والرائد الثاني هو بيرم التونسي . والمهم انه كتب المسرحيات الكبيرة ذات الفصول الثلاثة وذات الفصل الواحد ، ولكنه ظل طوال حياته كاهنا كبيرا وشكليا الى أبعد حدود الشكلية وعدوا للمسرح رغم وضعه قناع المسرح على وجهه ولاتصلح اية مسرحية له لان توضع على خشبة المسرح وهو آخر من يتكلم عن الشعب وعن الفلاحين وعن الطابع القومي وعن الاصالة وعن المعاصرة او القدم والحداثة في المسرح ورغم ان اجهزة الاعلام في العالم العربي واخرى في العالم الغربي تبرر له عدم صلاحية مسرحياته للظهور على المسرح بانها مسرحيات ذهنية او بانه زعيم المسرح الذهني مع أن المسألة ببساطة هي ان مسرحياته لاتصلح فعلا للمسرح لانها ليست مسرحيات من الناحية الفنية .. الدرامية.

فمتى كان المسرح غير ذهني لكي يكون مسرح توفيق الحكيم مسرحاً ذهنياً . المسرح منذ نشأته في اليونان وقبل اليونان منذ ان كشفت الحفائر عن شيء كان دائما مسرح الفكر والذهن. فما وجه ريادة توفيق الحكيم ؟ ولماذا يبحث عن قالبنا المسرحي ؟ اليس البحث عن القالب كما قلت هو البحث عن مجرد الشكل ؟ هؤلاء يلبسون ثياب الحملان وهم ذئاب حقا : قال السيد المسيح : (يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة) .

هؤلاء غرباء عن الشعب ، ويرتدون اقنعة شعبية في الموضوعات وفي المعالجات . وشأن توفيق الحكيم هو شأن رشاد رشدي (وانفرج ياسلام) : يكتبون عن الفلاحين ليذبحوا الفلاحين، ويكتبون عن العمال ويشتتوا العمال ، ويكتبون عن التأليف المسرحي فيشنقون المؤلفين . ويكتبون عن الثورة لحساب الثورة المضادة ، ويكتبون عن اللا معقول والعبث لحساب اللا معقول والعبث ، لمصادرة العقل والجدية ، وينساقون وراء الموجات العبثية (وبطالع الشجرة هاتلي معاك بقرة) من الفنم لا بل القرود التي تجيد تقليد الموجات الطارئة العابرة وتجيد ولوبها في الوقت المناسب ثم تجيد في نفس الوقت وضع أو استبدال القناع بالقناع فتطالب بالاصالة والمعاصرة وبقالبنا المسرحي ، وتطالبنا بشكل مسرحي جديد بقناع مسرحي جديد تحت عناوين يا طالع الشجرة والطعام لكل فم .. و .... و .... مايستجد ونحن صامتون لاصمت الكهان في سحابات البخور بل صمت الاصرار على فضحهم وتعريتهم للقربان والحدايات التي أكلت موتانا في سيناء وغزة والجولان والضفة الغربية . هؤلاء الذين يطالبون بالمصرية في الشكل بل وحتى بالعربية في الشكل هم خونة للمصرية وللعربية واقزام الموجات والموضات والباروكات الاجنبية ، فلماذا في المسرح بالذات وفي القالب المسرحي بالذات تتجلى الشوفينيه والتعصب ومركب العظمة .

اين وفيم تتجلى أزمة المسرح المصري ؟

اهي ازمة الاخراج ؟

اين ذهب مخرجو مسرح الستينات ونهضة الستينات ؟!

لقد لاقوا جميعا المصائر نفسها التي اجبر عليها المؤلفون المصريون من اعتزال الى خرس الى شلل الى تجميد الى هجرة اختيارية هي في الواقع نفس أجباري مغطى ومقنع ، فالذين يدفعون أكثر في الخارج سيان في أوروبا أو في الوطن العربي الكبير هم أنفسهم الذين يدفعون اقل في مصر .

لقد كانت لدينا كوادر غنية رائعة ومبشرة وواعدة ، واثبتت قدرتها على قيادة المسرح ، ونهضت بمسرح الستينات ـ رغم سلبياتها ـ وهاجرت تلك الكوادر كالطيور الموسمية الى

الداخل او الى الخارج ، وهي في الحالين قد وقعت في المصيدة ، وصفيت ودمرت أو شغلت عن الفن بلقمة العيش . اين هي ازمة المسرح الان في مصر ؟

أهي في التمثيل ؟!

كانت لدينا كوادر رائعة في التمثيل ، فالى اية مصائر دفعت ؟ في الداخل دفعت الى التلفزيون والى برامج الاذاعة المتعددة على الف موجة ، او الى السينما المتوجة على الف صورة ، او الى البقاء العلني والسري ، او الى خارج مصر لممارسة اي شيء باسم الفن حتى الدعارة ..او الدعارة بالذات .. والى التمزق اليومي من اجل لقمة العيش أو من اجل الثراء السريع .

وأصبحت الاغلبية العظمى منهم اثرياء حرب ، فما بالك بحروب اربع وسيطرة الدينار والريال والدولار والاسترليني والعملة الصعبة على كل مقدرات الثقافة والفن والادب والفكر في مصر ؟!

ورغم ان تلك الطاقات التمثيلية المهدرة في الداخل والخارج كانت تحتوي على عدد كبير من المواهب التلقائية والعفوية .

ورغم انها كانت خليطا من مدارس تمثيلية مختلفة ومتعارضة ، ورغم انها كانت غير مسلحة فكريا وثقافيا وفنيا باساليب ومناهج ونظريات ورغم ان القلة القليلة منها كانت تعتمد على الفطرية والبراءة والبكارة والعشق الحقيقي الاصيل للفن عامة وللمسرح خاصة . فان حتى هذه القلة القليلة قد لم تدمرها بخيوط مدبرة ، ومدبرة بعناية ، لكي تبدو بانه غير مدبرة وغير مخططة . هنا اذكر قول العقاد وفي ديوانه وحي الاربعين :

« قال قوم زفين الدنيا خداع   قلت خير الذي نشرى نبيع »

وقلت انا في ديواني الاخير (الرباعيات) :

ان يكونوا فسقوا حتى اللواطة   ان يكونوا منهجوا حتى الدعارة
فلتكن في السوق ارباب التجارة   خائف القوم تعلم بالخياطة

دعنا نعد الى المسرح ..

حين هاجمنا غلبة الكم على الكيف في مسرح الستينات كنا على حق . كان المسرح الخاص مزدهرا ايضا في ظل ازدهار مسرح الثورة او مسرح الستينات . والامر كان دائما على هذه الحال ، اما الآن وفي أواخر السبعينات فقد اصبح مسرح القطاع العام هو مسرح القطاع الخاص والعكس ايضا صحيح أو اختلط الامر او تحالفا او افتتح كلاهما على الآخر اين وفيم اذن ازمة المسرح المصري ؟

في النقد المسرحي أو الفني ؟

هذا هوالبارودي في « الاخبار » وفي مجلة السينما والمسرح وفيما تيسر من منابر القول والكتابة في غيبة النقد النقاد والفرسان فيفرد بالميدان كالجبان :

واذا ماخلا الجبان بارض "طلب" الطعن وحده والنزالا

من يرد على البارودية في المسرح المصري ، والبارودية مسلحة ، وغير البارودية عزلاء .. ليست سوى الخناجر في الظهور حتى ظهور الموتى والشهداء باسم الثورة وهو في الواقع التكفير والهجرة . وباسم الطهارة والبراءة والبكارة وهو في الواقع الطمث والحيض والنزيف والسيلان والزهري ..

وباسم النقد .. وهو في الواقع النقود والمال والبنوك زينة الحياة الدنيا !! من الغريب ان اقرأ في العدد المشار اليه من مجلة المسرح والسينما ، وهو وثيقة مسرحية يجب ان يحتفظ بها كل قارىء مصري وكل ناقد بل وكل مواطن عربي في وطننا الكبير الحسير ..

اقول من الغريب ان اقرأ مقالا عن عبد المجيد حلمي رئيس تحرير مجلة المسرح في العشرينات ومن الاغرب ان مجلد مجلة المسرح كان في يدي . وقد جاء فيه تساؤل مريب : هل مات سيد درويش مسموما ؟ سؤال طرحته مجلة المسرح او مجلة الناقد لا اذكر على التحديد .. هذا هو مصير ابناء مصر وفي جميع العصور منذ الهكسوس حتى السوسيك . ومنذ الفي عام قال ابو العلاء المعري فيما قال عن مصر وابناء مصر وهذا كثير :

تموتون بالحمى وغرقى وفي الوغى وشتى منايا صادفت قدرا حما

وله عن مصر وابناء مصر كلام كثير في اللزوميات حتى كتبت ذات مرة على صفحات «الكاتب» القاهرية :

انني اشك في انه ابو العلاء المصري ويبدو انه ابو العلاء المغربي مع استبدال طفيف في

الحروف ولغة استبدال الحروف وفصلها . استاذ الحرف والكلمة ابو العلاء الهامسي وزعيمي وقائدي ورئيسي الوحيد .

اين اذن وفيم ازمة المسرح المصري ؟

في الجمهور ؟!!

هناك جمهوران ، ذلك الجمهور الذي يتسابق لحجز التذاكر من شباك فؤاد المهندس وشويكار وما اشبه من مطربين ومطربات الخ ....

وهناك جمهور آخر تماما ، هو الذي يسمع يوميات ويفهم كلمتين وبس لاحمد بهجت كما يفهم ابداعات شويكار صقال وهو نفس الجمهور الذي ضرب فؤاد المهندس وشويكار في ميدان التحرير وقذفهما بالطوب في يوم سيذكره التاريخ .

هناك جمهور يضحك وجمهور يبكي ولكن في صمت . هذان شعبان لاشعب واحد كما قالهاحد المفكرين الكبار في تاريخ الانسانية عندما وضع قدميه في لندن : هناك امتان ..

دعنا ننتقل الى اكاديمية الفنون التي يراسها طيب الذكر الشعبي الانيق ، الشيك جدا الدميم جدا في نفس الوقت ، رشاد رشدي ، وانفرج باسلام . اين اساتذة المعهد العالي للفنون المسرحية ؟

ومن الذي يقوم الآن بتدريس التمثيل والاخراج والالقاء والنقد ؟ واين هم الخريجون وحدهم ؟ وماذا يفعلون ؟ وماذا يمكن ان يفعلوا في اختلاط المناهج المفهومة وغير المفهومة وانا واحد من هؤلاء المطرودين للمرة الثانية من ثلاث سنوات من المعهد بحجة (الباروديزم) وحجة الاوامر العليا والجهات المسئولة والاتهامات حتى في الولاء للارض والعرض والفن والثقافة والتراث والتاريخ . من الغريب انه ليس في حياتنا الآن على نطاق الوطن العربي الكبير كله مؤرخون من امثال الجبرتي ، والطبري وياقوت والمقريزي واحمد بن عبد ربه وابن خلدون .

اسالوا رشاد رشدي في مجلة الجديد التي تنشر اكثر من عشر صفحات كل خمسة عشر يوما لاتتضمن غير رسائل الاعجاب برشاد رشدي والمدح فيرشاد رشدي والتسبيح بحمد عمدة المسرح المصري رشاد رشدي مع طلب صورة فوتوغرافية على طريقة نجاة الصغيرة وعفاف راضي ونجلاء فتحي وميرفت امين وحكمت الشربيني واحمد فوزي ومحمد علوان وآمال فهمي وفريدة الزمر وسلمى الشماع واحمد رمزي وفيفي عبده وهند رستم ومحرم فؤاد واحمد عدوية ومحو الامية ومصطفى الشندويلي ومحمد حمزة وصلاح جاهين والحياة بقى لونها

بمبي وانا جنبك وانت جنبي وبيجن بالعربية وباعكون بيجيب والشيخ امام واحمد فؤاد نجم والمافيا .. في كل شيء والجويلدبة البارودية البروبجاندية النازية الصهيونية الماسونية الملوخية وكله على كله والكرة ونادية الجندي والابتهالات الدينية .. والعلم والايمان وذلك من اقصى اليمين الى اقصى اليسار . انها نفس المافيا ونفس القيادات المسرحية او غير المسرحية ولكن تظل الوحدات الارسطية الثلاث هي وحدة المكان مصر .. ووحدة الزمان اي قرن ووحدة الحدث الخيانة والخيانة هي السرطان في مصر وفي الوطن العربي منذ اقدم العصور والخونة في قناع الابطال والابطال في قناع الخونة . ومن يقرأ ومن يسمع كما يقول التعبير العامي في مصر ؟!

وارقص للقرد في دولته كما رقص القادة والقوادون في عصر زبيد لقرد زبيد والبارودي يكتب ليل نهار ، والقط يستمع وياكل كما تقول الحكمة القديمة . (ويأتونكم في ثياب الحملان. ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة) كما ورد في العهد الجديد بالكتاب المقدس .

وحين يقتل أويفتال الاصدقاء يصبح الاعداء هم الاصدقاء وهم الحلفاء وهم الطلقاء .اذهبوا فانتم الطلقاء .

ترنيمة عن أسد

مهداة الى ولدي فريد

كانت الغابة تبدو في المغيب . .
مثل زنجي جريح . . يحتضر
عندما عاد إلى باب العرين . .
زاحفاً . . .
ساحباً نصفاً بنصف . .
ونهيراً من دماء
موشكاً من طول نزف . .
أن يجف .

وانثنى لملم بعضه . .
فوق بعض
ورمى الطرف سهاماً في المدى . .
وتداعت نفثات الذاكره . .

. . . .

إن عينا لم تره
غير عين القبره
فوق أعلى شجره
لم يئن . .
كان يدري أن عينا ترقبه .
هي عين القبره
ليس عاراً أن تراه . . .
مزقا . . لكن كل العار في شرع الأسود
أن يئنوا
أو يروا باكين . .
ماذا إذن يتبقى للطيور ؟
ربما لو كان وحده
ربما لو لم تكن عين هناك . .
ترقبه
ربما كان يئن
كان يبكي . . ربما

فهو يدري أنه الآن . . يموت
كل حي يكره الموت . .
— ولكن . . كل حي يكرهه . —
قدرما في كل حي من حياة
وهو حي . .
هوليث . . وجريح . . وكسيح
ليس ذئباً
ليس كلباً
ليس صرصارا . . ذبابه .
ليس افعى أو بعوضه
ولهذا كان يبكي . . يئن
دون أن تفلت من عينيه دمعه .
دون صوت
هكذا شرع الأسود . .
أن يموتوا . . مثلما « بوذا » بصمت

هاهي الشمس تموت
في غد سوف تعود
تسأل الاحياء والأشجار والاشياء عنه
مرة أو مرتين . .

أو مائه

لا يهم

ثم ماذا . . ؟

ثم تنسى . .

وتموت . .

لتعود

دون أن تسأل عنه

غير أن القبره . .

ولكل القبرات . .

سوف تحكي ما حدث

باختصار

وابتسم . .

ربما آخر بسمة

هذه الشمس الكبيره

عجباً . . ليس لها عقل كعقل القبره

ولذا . . هي لا تملك حتى ذاكره

ولذا هي تنسى كل شيء

ما الحكاية ؟

وحدها كانت هناك . .

فوق أعلى شجره . .

عندما جاءت الذئاب

كان في قلب العرين

فخرج . .

جاء في الغاب الزئير . .

كالنذير

إنه يكره أن تعوى الذئاب . .

قربه . . حول العرين

مثلما تكره أفعى تتلصص

قرب أعشاش الطيور . .

تلك القبره

ولذا هي تفهم . .

كيف يغضب . . .

ولماذا ؟

فالافاعي للجحور

والذئاب . . . .

للبراري والصحارى

هكذا اهتز المدى . .

بالزئير

كادت الغابة تسقط

كادت الشمس تقف

فهنا ستكون المعركة . .

الذئاب . . . .

والأسد

لم تكن أول مرة

لا وليست في حساب الشمس شيئاً

ولهذا . . كادت الشمس تشيح

لتسير

ثم من باب الفضول

نظرت للارض نظره . .

« ياخبر »

هو وحده

والذئاب بالألوف

ياترى هل ينتصر ؟

هذه المرة أيضاً . .

مستحيل . .

مستحيل

. . . . . .

وانتصر . .

هذه المرة أيضاً

ثم عاد . .

عاد يزحف . .

ساحباً نصفاً بنصف

ونهيراً من دماء . .

موشكا من طول نزف . .

أن يجف

كانت الغابة تبدو في المغيب

مثل زنجي جريح . . يحتضر

نشيد طائر التَم

د . احمد سليمان الاحمد

رُدّي إلى الأُفْق أحلامي وأسراري
فليس عِنْد الليالي مِثْلُ أنواري

وليس عند الليالي مَشْهَدٌ عَجَبٌ
إلاّ اسْتِعارَ لُباناني وأوطاري

مَشَيْتُ في ظِلِّ عَيْنَيْها تُواكِبُني
أمطارُ تشرينَ أو أطيابُ آذارِ

قَطَعْتُ أطوَلَ دَرْبٍ تحتَ ظِلِّهما
والحُبُّ صاغَ مواعيدي وأقداري

ماذا تَوَدّينَ ؟ قولي . يَنْتَصِبْ وطَنٌ
أمامَ لاجئةٍ . مِنْ دونِ أستارِ

حتى لتقطف من زيتونة غصناً
ووردةً غرست في باحة الدارِ

هذي حدودُ الليالي . هل يجاوزها
سارٍ . فتنبلجُ الأضواءُ للساري

مُسافرٌ أنا في لونِ السماء وقد
عكستُ في غيمها أوراق أشجاري

تشرينُ هاجمها في ثوبها الناري
آناً ، وآونةً في قدّها العاري

تُحرّكُ الريحُ كالأشجار أغنيتي
وقد تمرُّ على منحوتِ أحجارِ

فتسكنُ الريحُ في أبراج آلهةٍ
معاقلاً لأساطيرٍ وثوارِ

عيناكِ أبدعتا في نظرةٍ أملاً
لا تهتدي لشذاه غيرُ أزهاري

عيناكِ في النغم المخمورِ سافرتا
فليس غيرهما في كلِّ أسفاري

سحابتانِ هما عيناكِ . حرّرتا
دمعاً . وأطلقتا مأسورَ أمطارِ

وقامَةُ الليْلِ . إعصـارٌ بُراقِصُها
حتَى لتَنْهارَ في أحضانِ إعصارِ

تَستيقِظُ الشمسُ في صوتي وفي شفتي
فهلْ عرَفْتِ لماذا وَهْجُ أشْعـاري

وهل عرفتِ لماذا أنتِ أغنيتي
وقُبْلَي . واحتراقي خَلْفَ أسواري

تناثرَتْ أجمَلُ الأيام في نَغَـمٍ
ماعادَ في الحُبُّ يرضى غيرَ أوتاري

وهزَّنا النَغَمُ المشوقُ مُنسَيِاً
مثل القَوامِ دعَتْهُ رَقْصَةُ النارِ

وجاوزَ الولَهُ - الراعي حدودَ مـدى
ضاعت بِهِ - كخُطى القطعانِ - أعذاري

وما تَقَبَّلتُ لاشَمْسـاً ولا قمراً
أرَخَصْتِ كلَّ شموسي ، كلَّ أقماري

هذي المشاهِدُ كم أغفَتْ على هُدُبي
حتى لأيْقَظَها تكبيرُ أطيـارِ

تَحوّلَ الفَجْرُ موسيقى . كما امتزجَتْ
أسمى وأروعُ أشكالِ وأفكـارِ

ورُحْتُ أبْحَثُ عن شَمْسٍ .فهل سكنت
كَهْفَ ، الثلوجِ وهل غاصت بأنهارِ

هلّتْ قصيدة حبٍّ . ظلَّ عاشقُهـا
سهرانَ . يُسْلِمُ آصالاً لأسحـارِ

وللقصيدة شَكْلُ النَهْدِ في جَسَدٍ
كالشَمسِ في أفقٍ بالوَهْجِ مَوَّارِ

وكُنْتِ أوّلَ شطآني وآخـرَهـا .
إليكِ وَحْدَكِ . لكنْ مِنْكِ .إبحاري

تَحرَّكَ الرمْلُ يسقيني سُلافتَـهُ
لَـمَّـا غرزتُ بدامي الرمْلِ أظفاري

صدى لَيالِكِ في وادي الحنين دَعـا
سرَابَ طيفِكِ مِنْ صحراءِ تَذْكارِ

لُقْيا على الحَبَلِ المسكونِ أجْنحَـةً
حَطّتْ على غُصُنِ النُعْمى كأثمارِ

تفتّحَتْ وردةً سوداء ليلتُنـــــا
زِنجيـةٌ لم تزل أُمنيةَ الشـاري

فَمَنْ رأى عاصفاً يجتاحُ عاصفـةً
كما تصادَمَ تيارٌ بتيـارِ

كَرٌّ وفرٌّ . . وأحياناً مُنازَلَــةٌ
فصامدٌ يتحدّى طــالِبَ الثــارِ

وثُغْرَةٍ لم تزَلْ في السور خافيةً
راحَتْ تُلَوِّحُ للغــازي بــأخْطارِ

حتّى إذا نَفَدَتْ منهــا زمــاجِـرُهُ
فَحامةٌ بيْنَ إلحاحٍ وإصـــرارِ

سقَتْهُ بِنْتُ كُروم مَنْ هزيمتها
أوقُلْ : هديّةَ مَقهــورٍ لِقَهّارِ

في غُرْبَةِ الدارِ إلاّ أنها وطَــــنٌ
بالحُبِّ . لولاهُ كُنّا محضَ زُوّارِ

حتّى إذا ما انْجلى نقْعٌ بمعركـــةٍ
آبَتْ طيورُ الليالي نَحْوَ أوكــارِ

أما استَعادَتْ على أسْتارِ كعْبَتِها
مُعلّقاتي . أمَا حَنّتْ لأخْبــاري

تلك الأميرةُ . مَنْ غنّى بِحَضْرَتِها
رأى الخلودَ جليساً وَسْطَ سُمّارِ

تلك الأميرةُ . يا أمْنيّةً هَصَرَتْ
قَوامَها كــلُّ أغزالي وأسْماري

تَنازَعَ الليلُ والأشعارُ بُرْدَتَهـا
فما النجومُ سوى مَفْروطِ أزرارِ

وغَلَّ مَنْ غَلَّ . لم يَتْرُكْ له أثراً
وعُدْتُ أبْحَثُ عنِّي دونَ آثارِ

— — —

مرَّتْ عليَّ أغاريدي فأوْغَرَهـا
أنّي وَقَفْتُ على عَيْنَيْكِ إيثاري

قصيدتانِ . فلا والحُبِّ ما حَلُمَتْ
بِمِثْلِ سِحْرِهِما أنْغامُ قيثـارِ

ماذا تريدينَ منهُ يا قصائدهُ
ألَسْتِ سبّاقةً في كلِّ مِضْمارِ

أما اصطفاكِ . وكنتِ العُمْرَ مُنْقَسِماً
إلى قوافٍ وأوزانٍ . . وأعْمـارِ

ألَسْتِ مكتبَهُ حيناً وبَتْربَتِـهُ
ألم نُهاجِرْ . ألم نَظْفَرْ بأنصـارِ

ألم تؤوبي إلى عَيْنَيَّ أشْرِعَـةً
تختالُ مابين أنجادٍ وأغوارِ

تَضُمُّ كلَّ أحِبّائي فياسُفُنـــا
تُقِلُّني فوق أمواجٍ مَنَ الفـــارِ

وقَبْلَ غالَيَتِيْه ! كُنْتِ لُؤْلُؤَةَ
الغَوّاصِ أو نَجْمَةً أَوْمَتْ لبِحارِ

وبَعْدَ غالَيتَيْه ! صِرْتِ بَعْدَهُما
فلا تَضِيقِيْ بإسْاري وإعســـاري

قصائدي . زُرْتِ أقطاراً وأزْمِنَةً
فَلْتَحْمِلي حُبَّها إنْ زُرْتِ أقطاري

عوالمي صُنْعُ عَيْنَيْها . وأزمِنَتي
نجوى . وعِطْرُ الليالي بَعْضُ أوزاري

قصائدي لَسْنَ منّي إنْ صَدَرْنَ وما
وَهَبْنَ باسْمِكِ إيرادي وإصداري

مُلْكي أنا الشمسُ والذكرى ومُخْصِبَةٌ
مِنَ السحابِ اسْتَهَلَّتْ فوق أقفاري

ولو سألْتِ ظلالَ الليل لارْتَعَشَـــتْ
مُبْتَلَّةً بنَديٍّ الهَمْسِ مِعْطـــارِ

هذي النجومُ حروفٌ في كتاب دُجىً
تشكو هواها . . غريراتٌ لأغرارِ

لقيا على الجبل امتدت حكايتها
بين الجبال . رواها الجار للجار

فقال أذيعها للسر : شمتهما
خلال حمالة النعماء مدرار

وغمغم الآخر المذهول : قد عبرا
من فوق نجم غريب الدار سيار

وراح مسترجعاً أخبارنا جبل
حيران بين اعترافات وإنكار

يا ضجة في الذرى قد كنت أسمعها
لولا انشغالي بهمس دار في الغار

ما تفعلين بأيام مضت وبما
حاكت لتنتخي منها وتختاري

وسوف تهجم أيام بشدتها
وتستبيح رؤانا دون إنذار

قد كنت غيري . ويغدو آخرون أنا
دوامة ضيعتني بين أغيار

وسوف نهفو إلى حلم بلا وسن
وبلبل في غصون الصمت ثرثار

وسَوْفَ يَبْقَى لنا طَعْمٌ على شَفَةٍ
مُمَيَّزٌ بَيْنَ إحلاء وإمْــــرارِ

باوَرْدَةً من صقيع الليلِ قد قطِفَتْ
ألم تضَيِّقي بأحوالٍ وأطــــوارِ

كلّ الزوايا – سوى ذكراك – باردةٌ
فذلك اللحْدُ أعيَتْــا كلّ حفّارِ

١٩٧٩–١–٢٢

المتقاعد

قصة محمد زفزاف

ظل الكلب يتمرغ عند الباب ، ثم توقف عن التمرغ ، واخذ يلعق قائمتيه وهو ينظر الى الرجل العجوز بين الحين والآخر . البيت يتكون من غرفتين اكتراهما قدور منذ اكثر من عشرين سنة . تمن كرائهما اذن رمزي بالقياس الى ذلك العهد . أشار قدور للكلب أن يلتحق به قرب الفراش . لكن الكلب لم يهتم به ؛ أخذ ينفض أذنيه وهو منبطح على الارض . احيانا لا يلبي رغبة سيده . لقد تعود أن يفعل ما يشاء لانه لا يقمع كأي كلب آخر قال قدور للكلب :

ـ تعال . عندي لك شيء .

رفع الكلب راسه . لكنه رفض ذلك الشيء . انه يصر على عدم تلبيـة تلك الرغبة البسيطة لدى العجوز . غضب قدور وتظاهر باللامبالاة . مد يده الى الطاولة الصغيرة قرب الفراش . تناول سيكارة واشعلها . كانت فوق المنضدة الصغيرة منفضة مليئة باعقاب السجائر وبالرماد وباعواد الثقاب . المرحومة كانت تنبهه دائما الى ان ترك المنفضة قرب السرير أثناء النوم شيء مضر . وكانت تحرص دائما على ازالتها من قرب

السرير . احيانا تستيقظ من نومها في آخر الليل لتفرغ المنفضة ، بعد ان تكون قد نامت قبله . وبعد ان تكون قد حذرته كي يفرغ المنفضة في القمامة عندما ينتهي من التدخين .

يطمئنها :

ـ لا تخافي سوف أفرغها .

ـ انت تقول ذلك دائما ولا تفعل .

ـ سوف افعل هذه المرة .

لكنه عادة ما ينام وينسى افراغها . اخذ يدخن ويرشف من كأس القهوة التي هيأها بنفسه. لم يكن لقهوتهطعم القهوة التي كانت تهيؤها المرحومة. لكنه تعود طعم قهوته . كل شيء يتعوده حتى الوحدة . وقف الكلب . واخذ يتمشى ويدورفي مكانه يحاول امساك شيء في ذيله كما لو كان قردا . قال قدور :

ـ تعال كي ازيل لك ذلك القراد اللعين .

غير ان الكلب استمر في الدوران حول نفسه . ثم اختفى في الغرفة الثانية. سمع العجوز قضقضة اسنانه . وقال بصوت مرتفع :

ـ اياك ان تفعلها في الغرفة المجاورة او في المطبخ . انت تعرف انه لم تعد لدي القوة الكافية لتنظيف الغرفتين. لقد دللتك المرحومة كثيرا . المرحومة ماتت عن اكثر من خمس واربعين سنة ، قبل ستة اشهر . ومع ذلك كانت كثيرة الحركة ، البيت نظيف دائما . كل شيء مرتب بعناية فائقة . يقال إنّ كل نساء تاحناوت من هذا النوع . لهذا السبب تزوجها . او لهذا السبب زوجتها له والدته . واختارها له ابوه واعمامه . كلهم ماتوا الآن . وكانت فراستهم لا تخطىء ابدا في اي شيء . كانوا يعتقدون دائما انه سيظل في نفس المنصب في الشركة الوطنية للخطوط الحديدية بعد حصوله على الشهادة الابتدائية . لم تخطىء فراستهم ابدا . لقد ظل كذلك ولم يترق ابدا حتى تعب واحالوه على التقاعد . لكنه مع ذلك

يستطيع ان يعيش الآن رغم كل شيء . مثل اي انسان يستطيع ان يعيش رغم كل شيء .

حاول ان يغادر الفراش الذي كان ممددا فوقه . لكي يدرك الكلب في الغرفة الثانية او في المطبخ . اخذ نفسا عميقا من سيجارته . ظل ينظر الى بعض الصور المعلقة على الجدار امامه . قرر اخيرا ان ينهض ليلحق بالكلب . وضع قدمية في فردتي البلغة الصفراء العتيقة . وحاول الا يحدث اي ضجيج لكي لا يفزع الكلب لانه في العمق كان يحبه . التصق بضلفة الباب . اخذ يختال مثل لص ؛ مشى كقط متربص بهدوء .

وبخطوات مطاطية . مد عنقه ، عندما بلغ الغرفة الثانية . لكي يضبط الكلب في الحالة الخاصة التي يفعل ذلك . اسقط في يده ، لان الكلب كان ممددا فوق بساط الموكيت الرخيص وقد اغمض عينيه نهائيا . تحدث اليه قدور . لكن الكلب فتح عينيه بتثاقل ، ثم اعاد اغلاقهما في اطمئنان . اقترب منه لكنه لم يتحرك ايضا ، بل لم يفتح عينيه هذه المرة . اصدر هريرا خفيفا وهو مغمض العينين . ضغط قدور على مؤخرته بقدمه . غير انه لم يتبرم واستمر في اغفاءته نوع من التقلب ؟ ممكن .

قال قدور :

– هل انت غاضب مني ؟

لم يسمع الكلب السؤال . ربما سمعه ولا يريد الجواب . غضب من اي شيء ؟

واعاد قدور :

– لقد تحدثت اليك في شيء يخصنا . يجب الا تغضب . فقط انا اوجه لك انتقادا . اذا كنت تستطيع ان توجه لي انتقادا فافعل دون ان تتردد . انت تعرف انني اتقبل كل شيء منك كما كنت افعل مع المرحومة . اسمع ، هل تريد صحنا من فتات الخبز في الماء . انك لم تأكل منذ الامس . لقد رفضت البارحة اكل بقية عشائي .

تحرك الكلب حركة خفيفة ، حركة متعب استلذ بداية النوم . تجاوزه قدور بعد ان يئس مما كان يرغب فيه منه . مشى نحو المطبخ . رأى الاطباق موضوعة ومتراكمة فوق بعضها تحت الصنوبر فكر ان يغسلها . فتح الصنبور وترك الماء يندلق فوق الصحون . حمل بيده اليسرى ثلاثة فناجين ووضعها في الحوض الصغير تحت الصنبور . في حين كانت اصابع يده اليمنى لا تزال ممسكة ببقية السجارة . اجتذب نفسا أخيرا والقى العقب تحت قدمه . نسي أن يضعه في المنفضة . انحنى قليلا على محتويات الحوض الصغير ، واشتغل بغسلها . عندما انتهى جفف يديه بالفوطة المعلقة عن يمينه . كانت المرحومة تغير الفوطة كل يومين تقريبا . وكانت لا تترك الصحون تتراكم أبدا في الحوض .

ـ كل شيء في حينه . يجب عدم تاجيل كل ما يمكن القيام به في حينه .

ـ لكنك تبالغين احيانا .

ـ ان قيمة اي امراة تقاس بنظافة بيتها .

ـ عندكم انتم فقط في تاحناوت .

ـ في تاحناوت او في غيرها ، البيت هو المراة .

هذا الفضاء المريح الذي كان يعيش فيه ، افتقده الآن . لكن بقدر ما يكون في الامكان امتلاك اي شيء ، بقدر ما تكون هناك امكانية فقده . يؤمن بهذا في العمق . مما يخفف عليه كل الآلام المحتملة .

شعر ان الفوطة مبللة وباردة ، نزعها من المسمار المعلقة عليه . ووضعها عند حافة النافذة عرضة لاشعة الشمس . اجتاز باب المطبخ الى الغرفة المجاورة . اخذ ينظر اليه مليا . كم من مرة منعته المرحومة من ان يفعل ذلك . ان ينام هنا ، في هذا المكان بالذات . كل شيء له مكانه الخاص . كثيرا ما تساءل قدور كيف كان بامكانها أن تعامل الاطفال لو كان لهما أطفال .

ـ دعي الكلب يفعل ما يشاء .

ـ لست أنت من ينظف برازه .

ـ انه يعرف اين يفعل ذلك .

ـ هذا لا يهمك . بل يهمني إنا . او أن الرجال فقط يتوقفون مرة واحدة عن التدخل في شؤون النساء .

الكلب الآن . في نومه العميق . يبدو وديعا ومسالما . تخطاه قدور ، ومضى الى الغرفة الاخرى . اشعة الشمس تنتشر على بلاط الغرفة ، وعند قدم السرير . ارتمى فوقه ، لانه لا يعرف ما يفعل بنفسه . بعد لحظات سوف يخرج الى الشارع . حيث الباعة المتجولون ، يعرضون الخضر والاسماك والفواكه . سوف يقتني منها على قدر جيبه . وربما ايضا ، غير وجهة نظره . هناك مطعمان رخيصان في الشارع الآخر . لكن الطعام الذي يقدمانه كثيرا ما يصيبه باسهال . مرة عثر على قطعة ضمادة عليها شيء اصفر مع صبغة اليود في صحن اللوبياء . اصابته رغبة قوية في القيء . لم يفعل ، لكنه قرر الا ياكل اللوبياء ابدا . الا يعود الى ذلك المطعم .

اخذ ينظر الى الجدران والسقف . فكر ان يخرج ويشتري جريدة . اجل ذلك الى ما بعد . قراءة الجريدة تكون احسن على افريز المقهى ، خصوصا اذا لم تكن هناك ضوضاء كثيرة وزعيق السيارات والدراجات النارية . لو كانت المرحومة حية لما شعر بهذا الفراغ . احيانا يتغلب عليه في اول الشهر ، يخرج الى اقرب بار ويعب زجاجة كاملة من النبيذ . لكن تلك اللعبة رغم ما فيها من متعة فانها تستنزف جيبه . انها لعبة قذرة باهظة الثمن .

في الايام الاولى كان ينام حتى الظهر ، لكنه الآن اصبح يستيقظ مبكرا . احيانا يجلس الى الحلاق . ويساهم في ثمن براد شاي ، او زجاجة خمر . لكنه لا يستريح الى اصدقاء الحلاق الكثيرين . يفضل ان يذهب الى اي مكان آخر ، لكن ليس بالضبط عند الحلاق .
تقول المرحومة :

ـ اصبحت الآن متقاعدا . عليك ان تفتش عن اي عمل آخر لتشغل به وقتك .

ـ انني لم أنم في حياتي قط بما فيه الكفاية . دعيني استريح قليلا . لقد ظللت طول عمري اشتغل لهذه الدولة التي لم تقدم لنا أي شيء .

ـ أنا لا أريد أن أتحدث عن الدولة . انها شيء كبير علينا . فقط أقول لك لو انك وفرت قليلا من المال ، لكنت الآن تملك دكانا لأي شيء .

ـ اعرف ان مجموعة من المتقاعدين فعلوا ذلك . لكنهم لم يكونوا موظفين في نفس وضعيتي .

ـ بل أقل من وضعيتك وفعلوا الكثير لابنائهم .

ـ صحيح .

يفكر أنها لا تفهم شيئا في هذه الامور . ما كل موظف يشبه الآخر . ما كل وضعية تشبه الاخرى . انه يعرف ان شبانا التحقوا بالعمل معه في قسم التجهيز ، اصبحوا اثرياء بعد اربع سنوات من العمل فقط . اما هو فقد صدق حدس ابيه واعمامه فيه . ظل في الوظيفة نفسها ، ولم يعرف يوما ماذا يعمل لكي يصبح مثلهم .

ذهب قدور الى النافذة واطل منها على عالم فارغ . بعض الاطفال الذين لم تقبلهم مدارس الدولة . كانوا يلعبون بالكرة . اثنان منهم جلسا عند عتبة أحد البيوت . كانا يتبادلان سيجارة محشوة بالكيف لكي يتخدرا . طاشت الكرة من بين الاقدام فضربت السيجارة فطارت من يد أحدهما . تبودلت اللعنات واعيدت السيجارة الى الشفاه .

كانت المرحومة تقول :

ـ ان آباءهم قليلو التربية . لو كان لي اطفال لعرفت ما افعل بهم .

ـ ماذا تفعلين اذا كان لك ستة أو سبعة اطفال ؟

ـ اعض عليهم بأسناني كما تفعل الكلبة بجرائها .

لكنه يفكر أنها لا تعرف في هذه الامور أيضا . هو وحده يعرف لماذا هم هناك في الشارع . هو وحده يعرف لماذا يختار الكلب ذلك المكان لينام فيه ، ولماذا ابتلت الفوطة فوق المسمار ؛ ولماذا لم يدخر سنتيما واحدا طوال حياته . تراجع الى الخلف قليلا . اغلق النافذة . مر بكفه على شعر رأسه . ثم قرر أن يخرج الى المقهى في الزاوية . أدار المفتاح في الباب وترك الكلب يفعل ما يشاء ...

محمد زفزاف ـ الدار البيضاء

انا البطريرك

قصة فخري قعوار

كان هذا قبل ان اصبح زهرة متفتحة ، فقد سألني معلم الدين ذات مرة : ما هي أسرار الكنيسة ؟

واذكر انني قلت لنفسي : « وهل للكنيسة أسرار ؟ » ، ثم وقفت بهدوء وقلت له : لا اعرف !

بدا الاستياء واضحا على وجه المعلم ، فالتمعت عيناه ، واحمرت اذناه ، وقال بغيظ :

ـ لا تعرف أسرار الكنيسة ، وتعتبر نفسك مسيحيا ؟ .. ها .. « لا اعرف » ... تقولها ببساطة ، وقد بح صوتي وانا اشرح واعيد الشرح .. ولكن .. ماذا أفعل لك ؟ وظل غيظه يتصاعد ، والكلمات تتلاحق ، وانا انظر الى المقعد ، واعبث بقلم في يدي . لم اعد افهم شيئا مما يقول ، ولا اذكر سوى انه قال :

ـمن يراك ، يظن انك بطريرك صغير بدون صولجان ، وجهك ممتلىء ، وبشرتك لامعة ، وحركاتك بطيئة ، ولكنك لا تفهم .. اتسمعني ؟ لا تفهم .. لا ..

وواصل كلامه حتى قرع جرس انتهاء الحصة ، فخرج من الصف ، وجلست في مكاني .

حدث هذا ، قبل ان اصبح زهرة متفتحة في كل الفصول ، تعيش في ركن من ساحة مدرسة الدير . ومنذ ذلك اليوم ، صار الاولاد لا يدعونني الا باسم : البطريرك .

وقبل ان اصبح زهرة متفتحة جاء معلم اللغة العربية ، وقال لنا :

ـ افتحوا كتب المطالعة ، واقرأوا فيها قراءة صامتة .

وفتحنا كتبنا ، وصرنا نقرأ دون أن نحرك شفاهنا . وفرغت من قراءة الدرس قبل الآخرين ، ثم فتحت النافذة واخذت انظر الى جدارالكنيسة القديم ، واتأمل كيف تنشر النباتات الصغيرة فوق حجارته ، وكيف تتقافز العصافير في الفتحات الجرسية ، وعلى قضبان النوافذ الحديدية ، وكيف تتكسر اشعة الشمس على الزجاج الملون بالازرق والاصفر والنبيذي .

ـ ماذا تفعل ايها البطريرك ؟

فوجئت بالمعلم يقول لي ذلك ، فالتفت اليه وقلت : انظر الى العصافير والطحالب .

وبلعت ريقي ثم اضفت : واشعة الشمس المنكسرة على الزجاج !

فقال المعلم : وماذا فعلت بالقراءة الصامتة ؟

قلت : لقد قرأت الدرس امس ، وقرأته الآن ايضا .

قال : ومن يقرأ الدرس يفتح النافذة ويعبث على هواه ؟

قلت : لست اعبث في شيء !

قال بحدة : انت عنيد . اجلس مكانك هادئا . . واسكت !

قلت : انني هادىء .

قال : انت عنيد ، وجمجمتك بحاجة الى تكسير . اخرج من الصف !

وخرجت الى الساحة ، ووقفت انظر الى زرقة السماء الصافية ، معجبا بقدرة الشمس على اخفاء كل الكواكب .

وحينما انتهت حصة المطالعة ، جاء المعلم وقال لي باستعلاء :

– كي تعود الى الصف ، عليك ان تقرا اعتذارا في مكبرة الصوت ليسمعه الجميـــع .

قلت باستنكار : ولكني لم اذنب كي أعتذر .

قال المعلم : انك صاحب راس عنيد . .

ثم اضاف بنبرات هامسة : كتبت لك نص الاعتذار ، وليس فيه ما يعيب ، مجرد اسف عما بدر منك ، واعلان عن توبتك الصادقة ، وايضاح لنيتك في اطاعة معلميك دائما ، وتنفيذ اوامرهم !

قلت بضيق : انا لم اذنب ، ولذلك لن اعتذر !

قال هو الآخر بضيق : اذا كنت مصرا على عنادك ، فسأكون مضطرا الى تحويل موضوعك الى الادارة . . وانت تعرف ماذا سيحل بك .

قلت بعدم اكتراث : ليكن ما يكون !

كانت الغرفة مظلمة في عز النهار . فقد دفعني المدير الى داخلها واغلق الباب . هبطت ثلاث درجات ، ثم جلست على الارض .

في البداية ، لم أر شيئا ، وبعد قليل بدات ارى عيونا مبحلقة ، واسمع اصواتا غريبة ، تبدو كأنها حيوانات صغيرة تقضم خشبا ، وتنط فوق الارض والجدران .

كدت اصيح بأعلى صوتي ، طالبا النجدة ، لكني آثرت الصمت .

كدت اصيح من الرعب الذي نخر في مفاصلي ، من هذه العيون المبحلقة ، وهذه الاصوات الغريبة ، لكني آثرت الصمت .

وبعد وقت قصير ، سمعت الباب يفتح ، شيء من النور يدخل ، لكن ما في الغرفة ظل ملفوفا بالظلمة .

سمعت صوت المدير يسألني : هل غيرت رايك ؟

قلت : رايي لن يتغير . .

قال : أنت ولد وقح .

ودنا مني ، واقتادني من يدي ، قائلا : غرفة الجراذين لم تجعلك تفهـم معنى الطاعـة .

ثم قال وانا اركض الى جواره : امش ايها الكلب ، وسأداويك .

في ركن من ساحة مدرسة الدير ، وضع المدير كومة كبيرة من الحطب ، وصب كازا فوقها ، واخرج كبريتة من جيبه ثم قال لي : لك ان تختـار الآن بين الموت والاعتذار ..

قلت له : اختـار الموت .

قال بحقد كان يطل من عينيه : ماذا تطلب قبل ان القي بجسدك في النار ؟

لم أفكر كثيرا قبل ان اقول : اريد ان اتأمل العصافير والنباتات الصغيرة واشعة الشمس .

قال : لا نسمح بهذا ..

قلت : اذن ، لا اريـد شيئا ..

وعندما القي بجسدي في النار ، كان التلاميذ يخرجون من صفوفهم ، وينظرون الي بصمت وفجيعـة .

حدث هذا ، قبل ان اصبح زهرة متفتحة .

وعندما أصبحت زهرة نبتت من الرماد ، لتبقى متفتحة في كل الفصول ، عاد الاولاد يلعبون في ساحة مدرسة الدير ، ويذكرونني عندما اهمس في آذانهم : انـا البطريرك .

فخوري فعوار ـ الاردن

قصة حب موضوعية

قصة محمد سليمان

بخطوات ثقيلة ، جر نفسه حتى وصل الى طاولة منعزلة ، وجلس . انه شاب في السابعة والعشرين تقريبا . انه يبدو شاحبا ، حزينا مثل الخريف ، القى الشاب نظرة على المقهى . كان المقهى هادئا ، صامتاً مثل مقبرة . وفي زاوية مختبئة خلف جدار من الاشجار الصغيرة راس عاشقين . ابتسم الشاب بحزن : تلك الايام !! اشعل سيجارة ، واخذ نفساً عميقا . رمى الدخان في الفضاء ، فالتهمت عيناه الشمس وهي تسير بين الغيوم . كانت الشمس شاحبة قليلا . انه الخريف !! تمتم الشاب لنفسه ، وابتسم بأسى . بينه وبين الخريف صداقة غريبة مبهمة . صداقة تكونت ببطء في بلدته الصغيرة التي تقع على شاطىء البحر . وكما تتلاشى الامواج على الشاطىء الرملي ، تلاشت معالم تلك البلدة الصغيرة ، وبقي الخريف مثلما تبقى عرائس البحر في ذاكرة صياد عجوز .

كان الوقت يرحل صوب الغروب ، وكانت الدنيا رائعة بذلك الثوب الخريفي ، وكان الهواء الرطب يصخب بلطف منعش . القى حيدر نظرة على الشارع . التهمت عيناه الاشجار الهزيلة البائسة مثل كلب بائس امام عتبة الطبيعة . ابتسم بأسى .

ـ انك مثل كلاب آخر الليل .

وتضحك حنـان بعذوبة .

هبت نسمة باردة ، فارتعش جسمه قليلا . الخريف بارد !! تمتم حيدر ، ولف" نفسه بالمعطف . اتكأ على الطاولة آخذاً راسه بين يديه . تحول دخان سيكارته الى شوارع خريفية ، تحتوي عاشقين صغيرين . كان الشاب يضع يده في يد الفتاة ، وكان ينظر اليها احيانا بحنان عذب . كان الشابان يشعران بسعادة رائعة : تلك الايام !! ونظر حيدر صوب جدار الاشجار . كانت الفتاة تبتسم بفرح . حنان أيضا كانت تبتسم بفرح مدهش . دائماً كانت حنان تبتسم . انه يتذكر ذلك اليوم . كانت الشلة كالعادة متكومة في مقصف الكلية . وكان حسين يتكلم بصخب . حسين دائما يتكلم بصخب . لم يكن يعجب بشيء ، وكان يريد أن يحطم العالم . وبالصراخ كان دائماً يحطم العالم . وبعد ان يحطمه ، يهدأ ، ويطلب سيكارة ، لم يلعب مع احد افراد الشلة بالشطرنج عن غداء . ذلك اليوم قدم حسين الى الكلية غاضبا . كان متعبا ، وكان صراخه حاداً . وفي مثل تلك الظروف لم يكن احد من افراد الشلة يجرؤ على معارضته . كان حسين يهدر مثل بحر صاخب :

ـ : انني لا افهم لماذا يحدث ذلك ؟!

ـ : سوف اشرح لك !!

التفت حسين بغضب ، فالتهمت عيناه الشرستان وجها رائعا يبتسم بعذوبة . نظر اليها حسين مثل ابله ، ثم نظر الى حيدر مرتبكاً ، وفي عينيه سؤال مبهم . قالت سلمى : انها حنان ، صديقتي .

نظر اليها حيدر وابتسم ، فابتسمت .

ابتسم حيدر بأسى : تلك الايام !!

كان المساء يتقدم بهدوء ، وقد بدا الشارع من خلال طبقة المساء الرقيقة رائعاً والاشجار بدت لطيفة وهي منتصبة على جانبيه . كان المقهى لا يزال هادئاً ، وقد ظهر حين اشعلت الانوار نظيفاً ، حسن الاضاءة .

شعر حيدر بالارتياح . اشعل سيجارة اخرى ، واخذ نفساً عميقاً . استقرت عيناه على عامل المقهى يتجه صوب الطاولة .

ـ : اريد شاياً .

وابتسم .

ـ : الشاي رائع في الخريف ؟!

التهمت عيناه شاباً وفتاة يدخلان المقهى متخاصرين . اتجها صوب طاولة بعيدة عنه قليلا . لو ان حنـان تحضر . تمتم حيدر لنفسه ، واردف : كان يجب ان احضر البارحة . اجل ، كان يجب ان احضر . وشعر بالاسى .

ـ : من يتكلم ؟

ـ : حيـدر .

ـ : اهـلا ! !

ـ : اود رؤيتك ؟

ـ : متـى ؟ !

ـ : السابعة ، في المقهى .

واغلق الهاتف بلطف .

احس حيدر بالضيق . اخذ نفساً عميقاً من سيكارته . القى نظرة على الشارع . ذات مسـاء ، وكان مساء لطيفاً ، التقى حيدر حنان . كانت مسرعة قليلا ، ولكنها ما ان رأته حتى ركضت صوبه : مسـاء الخير .

ـ : مساء الخير

وفي آخر الليل ، وفي ذلك المقهى اكتشف حيدر ان حنان فتاة لطيفة ، ومدهشة ولكن .. واكتشفت حنان أن حيدر شاب لطيف ، ومدهش ولكن .. وبقيا حتى تخرجا من الكلية صديقين لطيفين : مدهشين . ابتسم حيدر بأسى وهو يتذكر تلك الحادثة التي لا تنسى . كان الوقت قد تأخر ، وهما جالسان في المقهى صامتين مثل مقبرة ، كل منهما يحدق الى الآخر . لقد كانا شابين لطيفين ، مدهشين ، ولكن .. ثم « افترقا

في اسى صامت ذي كبرياء » . وفي الصباح رحلت حنان الى المقهى ؛ ورحل حيدر الى حلب .

نظر حيدر الى ساعته .. كانت الساعة تقترب من السابعة مساء . القى نظرة على الشارع ؛ كان عارياً . لو انها تحضر ، تمتم لنفسه . راقب البخار المتصاعد من الشاي ــ الذي احضره عامل المقهى ــ دفن رأسه في البخار فأحس بحرارة لطيفة ترعى وجهه . لعلها لم تنس الاتفاق القديم ، وابتسم . اخذ رشفة من فنجان الشاي . حقا ان الشاي رائع !! ونظر صوب الشارع ، فالتهمت عيناه حنان . كانت برفقة شاب . لمعت عينا حيدر ، ونهض عن الكرسي . دخلت حنان المقهى برفقة الشاب واتجهت صوب حيدر . كانت تبتسم ابتسامتها الرائعة تلك . لم تتغير كثيراً ، تمتم حيدر لنفسه ، واتجه صوبها . وحين اصبحت حنان امامه، ارتمت على صدره ، وقبلته بقوة .

ــ : كيف حالك ؟ !

ــ : بخير .

التفتت حنان الى الشاب ، وقالت : صديقي .

التهم حيدر الشاب : اهلا !!

وابتسم الشاب بلطف .

كان المساء خريفيا لطيفا ، والمقهى هادئا قليلا ، والى طاولة منعزلة جلس شابان وفتاة . كان عامل المقهى الذي استغرب قليلا ما جرى ينظر اليهم ويبتسم ، وكانت الفتاة تبتسم لكن بعذوبة .

قال حيدر : لقد رأيت سلمى ..

قاطعته حنان : اعرف .

وأردفت : لماذا لم تحضر البارحة ؟!

شعر حيدر بالخجل ، ونظر الى الشاب ، ثم التهم حنان ، وتمتم ببطء: لا اعرف ! !

ثم دفن رأسه في الارض .

قالت حنان : ماذا تفعل الآن ؟

قال حيدر : لقد انهيت خدمتي العسكرية ، وسارحل قريباً .

ــ : حقـاً ! ؟

ــ : اجـل .

ــ : متـى ؟ !

ــ : بعد اسبوع .

ــ : رائع انك تذكرتني .

ثم اردفت : كنت دائما اسأل عنك .

شعر حيدر ببرودة خفيفة ، وارتعش جسمه قليلا ، ثم ابتسم باسى ، ونظر صوب الشـارع .

ابتسم الشـاب بخجل : كلمتني حنان كثيرا عنك .

ــ : اجلس . اجلس .

ثم نهض . .

ابتسم الشـاب : سارجع بعد قليل .

وابتعد صوب الشـارع .

قالت حنان : انه لطيـف ، وانا احبـه .

هز حيدر رأسه .

قالت حنان : سوف نتزوج قريبا .

ابتسم حيدر بحزن .

سألت حنان : انك تشعر بالاسى ؟!

قال حيدر : اجـل ! !

ثم اردف : انني خجل من نفسي .

قالت حنان : لا تهتم للامــر .

سأل حيدر : هل انت حقا سعيدة ؟!

ــ : اجـل ، سعيدة جداً .

ثم أردفت : انه رائع حقاً .

قال حيدر : أرجو ذلك .

ابتسمت حنان ، وضغطت على يده بلطف .
قال حيدر : لقد تغيرت كثيراً .
قالت حنان : ارى ذلك .
قال حيدر : كانت فترة صعبة .
قالت حنان : انني سعيدة لاجلك .
قال حيدر : لقد تصرفت بشكل رديء .
غضبت حنان : لقد انتهى كل شيء . لا تهتم للامر .
ثم سالت : اليس لديك اصدقاء ؟ !
ابتسم حيدر بحزن ، وتمتم لنفسه : ما اروعها !! ثم نظر صوب القمر .
مرت فترة صمت ثقيلة . كان المقهى قد اصبح مزدحما قليلا ، واخذ يضج بلطف .
سال حيدر : ما رايك بالشاي ؟
ـ : لا بأس .
ـ : وصديقك ؟
ابتسمت حنان : انه يحب الشاي .
ـ : اثنان شاي .
صرخ حيدر بصوت خافت موجها كلامه الى عامل المقهى . هز العامل رأسه وهو يبتسم ، ثم اتجه صوب طاولة اخرى .
سالت حنان : كيف حسين ؟
ـ : لا أعرف عنه شيئا .
ـ : انك لا تهتم باصدقائك .
ـ : ليس الامر كذلك ، كنا نختلف . .
قاطعته حنان : ليس كثيرا !!
ـ : أجل ، ليس كثيراً . ولكنني . .
وصمت .
ثم سال بعد فترة : كيف سلمى ؟
ـ : انها صديقة رائعة .

شعر حيدر بحزن عميق . القى نظرة على الشارع ، فاستقرت عيناه على صديق حنان متجها صوب المقهى . انه حزين ؛ تمتم حيدر لنفسه . ثم نظر الى حنان ، فالتهمت عيناه وجهاً شاحباً يبتسم بحزن ، وعينين كئيبتين . ما أروعها ! ثم تناول يدها وضغط عليها بلطف .

ــ : هل انتهى كل شيء ؟

ــ : أجل ، كل شيء .

وسحبت يدها : كل شيء .

اقترب الشاب من الطاولة ، وجلس .

ــ : لقد تأخرت ؟ !

قالت حنان ونظرت الى الشاب بحب .

قال الشاب : . . .

وخيم صمت حزين .

كان المساء خريفياً لطيفاً ، والقمر شاحباً قليلا ، والهواء البارد يضج بلطف منعش . وكان المقهى قد أصبح مزدحماً تماماً . ألقى حيدر نظرة على جدار الاشجار الصغيرة ، فالتهمت عيناه عاشقين سعيدين . كان الشاب يتكلم بهدوء ، والفتاة تبتسم ، وقد أشرق وجهها . نظر حيدر الى حنان . كانت حزينة ، شاحبة مثل الخريف . وكان الشاب صامتاً ، مثل مقبرة . التهم حيدر أشجار الشارع البائسة ، ثم ألقى نظرة طويلة على القمر الشاحب ، كان القمر يرحل بصمت حزين . هكذا الحياة !! تمتم بأسى . ارتمت عيناه على حنان . كانت تنظر الى الشاب بود . لف حيدر نفسه بالمعطف ، ونهض بتثاقل ، ثم غادر المقهى بسرعة .

بعد فترة صمت .

سأل الشاب : هل أنت على ما يرام ؟ !

ابتسمت حنان : أجل ، على ما يرام .

ثم سألت : ما رأيك به ؟

التهمها الشاب بحب : انك رائعة .

وابتسم بحزن .

محمد سليمان ــ طرطوس ــ سورية

---

(١) عن ايليا اهرنبورغ .

الانسان غلطة الطبيعة

منتخبات من كتاب « جانوس »

آرثر كوستلر
ترجمة حسيب كيالي

هل يمثل الانسان تقدما شاسعا في تاريخ الحياة على الارض ؟ أو هو فشل التطور ؟ هل سيتعرض شحية ميله الى تهديم ذاته بذاته ؟ هذه هي المسألة التي يطرحها على نفسه آرثركوستلر ، مؤلف الكتاب المشهور « من الصفر واللانهاية » ، في كتابهالجديد « جانوس* » الصادر مؤخرا ، ونسوق في ما يلي مقاطع أساسية منه .

إذا سئلت عن اهم يوم سواء في تاريخ حياة الجنس البشري او في ما قبل التاريخ ، لم اتردد في ان اجيب : انه يوم السادس من آب ١٩٤٥ . السبب بسيط ، فمنذ ظهور الوجدان حتى السادس من آب ١٩٤٥ ، عاش الانسان وليس في تصوره غير موته هو ، بوصفه فردا . وما ان اطل اليوم الذي تشققت فيه اول قنبلة ذرية الشمس فوق هيروشيما ، حتى ترتب على البشرية أن تحيا في منظور اختفائها بوصفها جنسا . الفكرة ، اية فكرة جديدة ، لا يمكن أن تستقر في الاذهان الا بعد مضي فترة طويلة من الحضانة . وهكذا ، فمبدأ كوبرنيك مثلا ، وهو خفض جذري لمكانة الانسان في الكون ، ظل ما يقرب من منتسي عام حتى استطاع أن يتغلغل الى الوجدان الاوربي . واما الخفض الجديد(١) الذي اصاب الجنس ، هذا الذي سيؤدي الى هلاكه ، فاصعب تقبلا واعسر .

لقد أصبح اسم هيروشيما عنوانا تاريخيا مثله مثل موقعه مارينيان(٢) . ولكن اقلية زهيدة جدا هي التي خالطها وجدان هذه الحقيقة ، واعني اننا ، منذ ان فتحنا علبة باندورا(٣) النووية ، فقد حكم على

* جانوس أحد آلهة روما ، ويمثل بوجهين متضادين .

(١) ــ يقصد تدهور مكانة الجنس البشري بعد هيروشيما .

(٢) ــ يعني أن قنبلة هيروشيما تاريخ حاسم لان في مارينيان ، وهي قرية ايطالية قرب ميلانو ، جرت معركتان حاسمتان الاولى في ١٥١٥ حين انتصر فرانسوا الاول على السويسريين ، والثانية حين ظفر باراغواي ديلييه على النمساويين سنة ١٨٥٩ .

(٣) ــ باندورا في الميثولوجيا اليونانية اول امراة خلقها هيفاستوس . وقد منحها زيوس وأرسلها الى ايبميتي ، الرجل الاول ، فتزوجها . وفتح هذا الزواج العلبة فانطلقت منها النعم والنقم ولم يبق في قعرها غير « الامل » .

الجنس البشري بالتلف ، وما حياته الا في ظلّ حكم مؤجل التنفيذ .

لكلّ فترة تاريخية كاساندراتها (٤) وقـد استطاعت البشرية ان تنجو دائما من نبوءاتهن المشؤومة . واذا كان ذلك باعثا على العزاء في الماضي فقد عـاد لا يساوي الآن شيئا مذكورا ، لان آية قبيلة ، اية امة ، لـم تملك قط ، في أي وقت مضى ، التجهيزات اللازمة لاحالة هذا الكوكب ملوثا غير قابـل للحياة .

المصيبة أن اختراعا ما اذا ظهر مرة للوجود فلا يمكن الرجوع عنه . والسلاح النووي قد حطّ رحاله ليقيم اقامة ثابتة بين ظهرانينا. انه منذ اليوم جزء من المصير الانساني ، يجب على الانسان أن يحيا معه طالما استمر وجوده على الارض ، ويظهر ان هذا الوجود لن يطول امده كثيرا .

ثمة سـببان كبيران يحملاننا على هـذا الاستنتاج الاخير . الاول تقنيّ : ذلك أن معدات السلاح النووي تصبح يوما بعد يوم اكثر فعالية واسهل صنعا، وهي تنتشر في بلدان ينقصها النضج مثلما تنتشر في أمم عتيقـة معتدة بعراقتها ، وانتشارها هذا ضربـة لازب ، والرقابة على انتاجها يغدو مستحيلا اكثـر فاكثـر .

في مستقبل قريب ستنتج هـذه الاسـلحة وتخزّن في طول هذا الكوكب وعرضه ، في بلدان من مختلف الالوان وشتى الايديولوجيات، واحتمال اشتعال الشرارة التي ستؤدي الى ردّ الفعل المتعاظم عاجلا او آجلا ، عـلى عمد أو بسبب طارىء ما ، يزداد بالوتيرة المتعاظمة ذاتها حتى يطرق باب اليقين ويبلغه.

السبب الثاني لاستشفاف امـل ضعيف في حياة الانسان العارف(٥) Homosapiens

في العصر الذي بدأ في هيروشيما هو هذا الانفصام الزوري(٦) الذي يكشف عنه تاريخه المسبق . ولو ان مراقبا غير منحاز ، آتيا من كوكب اكثر تطورا من كوكبنا ، ألقى نظرة عـلى تاريخ هـذا الانسان منـذ الكرو ـ مانيون(٧) حتى اوشفيتس(٨) لاستنتج دون

---

(٤) كاسـاندرى ابنة بريام وهيكوبيا أحبها أبولون ومنحها القدرة على التنبؤ بالمستقبل اذا هي استسلمت له فلما رفضت جعلها تتنبأ ولكن احدا لا يصدقها .

(٥) ـ والمعنى الحرفي لهذه الكلمة اللاتينية « الانسان العارف » بمعنى الانسان المدرك وهـو الانسان الحديث .

(٦) ـ أي البارانويا وهو ضرب من الانفصام (السكيزوفرنيـا) .

(٧) ـ انسان كرو ـ مانيون نسبة للعظام التي اكتشفت في منطقة كرو ـ مانيون في فرنسا سنة ١٨٦٨ ويعتبر هذا الانسان ما قبل التاريخي من العرق الابيض الذي عاش في أوروبا الغربية وفي القسم الغربي من حوض البحر الابيض المتوسط (راجع كتاب « الانسان » لجان روشبان ترجمة الدكتور عدنان التكريتي الصفحة ٩٣ ومؤلف هذا الكتاب يستشهد بالفيلسوف الفرنسي لامتري حول اعتبار الانسان ظاهرة بيولوجية متطورة حيث يقول : « لم يجبل الانسان من مادة اثمن من تلك التي جبل بها غيره ، فالطبيعة لم تستعمل غير عجينة واحدة غيرت فيها الخميرة فقط ») .

(٨) ـ اوشفتيس احد معسكرات الموت النازية خلال الحرب العالمية الاخيرة .

اي شك ان جنسنا نتاج بيولوجي رائع من بعض وجهات النظر ، ولكنه في القراءة مريض ، مريض حتى لبعظامه ، ونتيجة مرضه العقلي تفوق كثيرا نجاحاته الثقافية اذا نحن نظرنا الى خطه في النجاة مما يتهدده . ان أشد الضجيج الحاحا ، الضجيج الذي يدوي من أول التاريخ الى آخره ، انما هو دردبة طبول الحروب . حروب قبلية وحروب دينية ، حروب اهلية وحروب سلالات حاكمة ، حروب عالمية ، حروب نووية ، حروب استعمارية ، غزوات، حروب تحرير ، حروب وقائية ، حروب لانهاء الحروب كافة . حروب تتابع دونما انقطاع تقريبا ، وفي رتابة مهووسة من ابعد العصور ، وليس لدينا ما يحملنا على الظن ان الحال ستتغير في المستقبل ؟ ففي بحر السنوات العشرين التي اعقبت هيروشيما احصى الباحثون اربعين حربا استخدمت فيها « الاسلحة التقليدية » وكنا مرتين في الاقل على شفير حرب نووية : برلين ١٩٥٠ وكوبا ١٩٦٢ .

ان أشد اعراض مرض جنسنا البشري ادهاشا هو التضاد الكائن بين ضروب تقدمه التكنولوجي الخارقة وقصوره ، الخارق ايضا ، على صعيد العلاقات الاجتماعية . نحن نقود حركات التوابع ، الاقمار الصناعية ، التي نضعها في مدار حول الكواكب البعيدة ، ولكننا غير قادرين على التحكم في قضايا ايرلندا الشمالية . الانسان يغادر الارض ، يسير على القمر ، ولكنه لا يستطيع المرور من برلين الشرقية الى برلين الغربية .

الاهوال الاضافية، أهوال حرب بيوكيمياوية، التفجر السكاني ، التلوث ، وغير ذلك من الاخطار المخيفة ، على الرغم من أنها هي ايضا سيوف قاتلة مصلتة على رقابنا ، لا ينبغي لها أن تصرف انتباهنا عن هذا الامر الجوهري الذي يهيمن على كل شيء : منذ العام ١٩٤٥ ، امتلك الجنس القدرة الشيطانية على ابادة نفسه ، واذا نحن حكمنا استنادا الى ماضيه رجحت لدينا احتمالات استخدام هذه القدرة خلال احدى ازماته المزمنة ، في مستقبل يمكن أن لا يكون بعيدا جدا .

اذا كان هذا هو المنظور المحتمل ، ففيم استمرارنا في مجهوداتنا الصغيرة الدقيقة التي تستهدف انقاذ دب هيمالايا من الانقراض أو ازالة التلوث من انهارنا ؟ فيم جمعنا ميراثا لاحفادنا ؟ هذه أسئلة ليست خطابية، وان في اكتئاب جيل الشباب وهمودهم الشامل لبرهانا كافيا . ولكن في وسعنا أن نقدم جوابين في الاقل .

الاول تحتويه هذه الكلمات : « كما لو أن » التي شاد عليها هنس فيهنغر نظرية لقيت تأثيرا ما في وقتها : « فلسفة كما لو أن » . وهي ، في خطوطها الكبرى ، تتلخص في ما يلي : ليس للانسان الخيار . يجب أن يحيا على الاوهام . يجب أن يعمل « كما لو أن » العالم الوهمي للحواس يمثل الحقيقة الواقعة النهائية ، « كما لو أن إرادته » كانت حرة وتجعله مسؤولا عن أفعاله ، « كما لو أن » ثمة إلها سيكافئه على فضائله ، الخ .

كذلك يجب على الفرد ان يحيا « كما لو انه » ليس محكوما عليه بالموت ، ويجب على الانسانية أن تعد لمستقبلها « كما لو أن» ايامهـا على ظهر الارض ليست معدودة . والفكر الانساني ، بفضل هـذه الاوهـام وحدهـا ، استطاع أن يبني عالما قابلا للسكنى وان يعطي هذا العالم معنى .

الجواب الثاني يقوم ، بكل بساطة ، على انه ، حتى لو وجب علينـا ان نقبل أن البشرية تحيا الآن حكما مبرما بالموت مؤجلا تنفيذه ، اذا جـاز لنا القول ، من عشر سنوات الى عشر سنوات ، حتى لو كانت كل الدلائل تشير الى ان هذه البشرية على شفا الكارثـة ، فالامر لا يعـدو أن يكون احتمالا وليس يقينا ، ذلك أن لدينا دائما الامل في غير المتوقع . ومنذ العام صفر من التقويم الجديد والانسان يحمل في عنقـه قنبلة موقوتة ، وعليه أن يصغي الى تكتكتها التي ترن اقوى ، اقـل قوة ، اكثر قوة حتى ميقـات انفجـارهـا أو يتعلـم نزع كبسولتها .

الخطوة الاولى نحو معالجة محتملة تعتمد على تشخيص صحيح لمـا حـدث للجنس البشري . لقد جرى تجريب عدد كبير من أنواع التشخيص استنادا الى هبوط آدم من الجنة والخطيئة الاصلية ، أو اندفاعة الموت عند فرويد ، أو الدافع الاقليمي عند الانتولوجيين المعاصرين .

ولكن أيـا من هـذه التشخيصات لم يبد مقنعا ، لان أيا منها لم ينطلق من فرضية أن « الانسان الحديث » يمكن أن يكون ، من وجهة النظر البيولوجية ، لا منطقيا ، غير متلائم والتطور ، مصابا بآفة مستوطنة تجعله مختلفا عن بقية الاجناس الحيوانية ، مثلما يجعله الكلام والعلوم والفنون مختلفا عنها ولكن في الاتجاه الايجابي .

لقد أحدث التطور أخطاء كثيرة . ويشبه جوليان هكسلي التطور بمتاهة فيهـا عدد ضخم مـن الزنقـات المسدودة تؤدي الى الركود والانطفـاء . وقد هلكت مئات من الاجناس لكي يستمر واحد . المستحاثات تتكدس ، نماذج مهجورة في مزبلة « العمار الاكبر » .

ان تاريخ الانسـان من جهة والابحاث الحالية عن الدماغ من جهـة اخرى ، تحملنا على التفكير في أن غلطة ما قد وقعت في لحظة من المراحـل الاخيرة الحـاسمة من تطـوره البيولوجي ، وثمـة شـرخ ، خلـل ، في التركيبة ، موجود بالقوة على نحو لا راد له في تجهيزنا الوراثي ـ وعلى وجه الدقة في دارات جهـازنا العصبي ـ الذي يفسر التيار الانفصـامي الزوري (البارانويي) الذي ينسحب على تاريخنا كله . هذه هي الفرضية المرعبة ، والمقبولة في آن معا ، التي يجب أن يواجهها كل بحث جاد في القدر الانساني .

يقال أننا لا نستطيع ان نطلب من مجنون أن يعي جنونه . هذا خطأ . فالمجنون قد يعي جنونه لانه ليس كذلك بصورة دائمة . ان المصابين بالانفصام (الشيزوفرينيا) يصحون احيانا ، عندما يبلون ، مرضهم في صفاء مدهش .

ساغامر الآن فاعرض قائمة اجمالية بالاعراض المرضيـة الكبرى التي تبـدو في تاريـخ الانسانية الكارث ، وأنتقل بعد الاعراض التي تفحص اسبابها الممكنة . واقصر هـذه القائمة على نقاط اساسية اربع . ١ ـ في الفصول الاولى من سفر التكوين يوجد ذكر لحادثة الهمت كثيرا من الرسامين ، واعني مشهد ابراهيم وقد ربط ابنه الى عيدان من الحطب استعدادا لقطـع عنقـه قبـل احراقه حبا لله . منذ فجر التاريخ تطالعنا هـذه الظاهرة المذهلـة التي قلما يوليهـا الانتروبولوجيون انتباعهم: الاضحية البشرية، القتل الطقسي للاولاد ، للعذارى ، للملوك، وللابطال ، المكرس لتصبي آلهة الكوابيـس او تهدئتهم .

هذه الظاهرة كونية ، استمرت منذ ما قبل التاريخ حتىذروة الحضارات البريكولومبية(٩) وانتشرت هنا وهنالك في العالم حتى ايامنا هذه تقريبا . من جزر بحار الجنوب الـى مناجم الفحـــم السكندنافيـــة ، ومن الاوترسكيين (١٠) الى الازتيكيين (١١)استبطت هذه الممارسات منمزلة بعضها عن تاثير بعض، استنبطتها اشد الثقافات تباينا لاظهارميول هوسية في النفس الانسانية تصيب على نحو ظاهر جماع الجنس البشري .

٢ ـ « الانسان الحديث » هو عمليا الحيوان الوحيد المحروم من مناعات غرزية ضد قتل ابناء جلدته . ان « شريعة الغاب » لاتعرف غير سبب وحيد مشروع للقتل : الحاجة الى الطعام وفي هذه الحال ، ينتمـي المفترس والفريسة الى جنسـين مختلفين . ففي داخل الجنس تسوى التنافسات بـين الافراد او الجماعات بانماط من السلوك رمزية تقتصر على تهديد او معارك طقسية تنتهي بهروب احد الخصمين او خضوعه ، معارك خلو من الجراح القاتلة بعامة .

الانسان هو الوحيد في ممارسة القتل علـى الصعيد الفردي والجماعي على نحو عفوي او منتظم لاسباب تنطلق من الغيرة الجنسية الى مشاجرات على نقاط في مبدأ ميتافيزيقي ان الحرب الداخلية بين الجنس بعضه مع بعض خلة اولى في قدر الانسان .

والانكى انها تزدان باللجوء الى التعذيب في اشكال لاتحصى ، من صلب الـى صدمات كهربائية « فالتعذيب الان اداة ضغطسياسي من الانتشار والذيوع في حيث يمكننا الكلام على وجود « دول تعذيبية » بوصفها حقيقة سياسية واقعة في عصرنا هذا . ولقد اصبح هذا الشر ساريا ، وهـو لايعـرف حدودا ايديولوجية او عرقية او اقتصادية » كمايقول فيكتور جوكل المنتمي الى جمعية « العفو الاممية » .

---

(٩) اي الحضارات السابقة لاكتشاف كريستوف كولومبس أمريكا . ولم يهتم الباحثون لهـذه الحضارات ولم ينقبوا عنها الا ابتداء من القرن العشرين . واهم مراكز هذه الحفريات والبحـوث كانت في المكسيك .

(١٠) ـ شعب ظهر في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد في توسكانيا اصوله موضع جدال بين المؤرخين ، شاد مواقع غنية ومدنية زاهرة . وقد التهمت روما بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد الى اخضاعهم واذابتهم .

(١١) شعب في المكسيك ظل حتى الفتح الاسباني ١٥٢٠ .

٣ ـ العرض الثالث متصل اتصالا وثيقا بالعرضين السابقين : ويظهر في الانفصال الزمن ، شبه السكيزوفريني ، بين العقل والعاطفة ، بين الملكات العقلانية عند الانسان ومعتقداته الانفعالية اللاعقلانية .

٤ ـ اخيرا ، سبق لنا الاشارة الى التضاد الصارخ بين تقدم العلوم والتقنيات من جهة والاخلاق من جهة اخرى ، او بعبارة اخرى ، بين مصادر الذكاء الانساني المستخدم في السيطرة على ضروب الجنوح وعجزه عن اقامة علاقات متناغمة داخل الاسرة ، داخل الامة ، داخل الجنس بصورة عامة . قبل الفين وخمسمئة سنة تقريبا ، في القرن السادس قبل الميلاد ، ابحر اليونان فيمغامرة علمية أوصلتنا الى القمر . ههنا يقينا ، خط بياني للنمو رائع . ولكن القرن السادس قبل الميلاد شهد أيضا اندفاع التاوية(١٢) ، والكونفوشوسية والبوذية وشهد قرننا العشرون هذا اندفاعة الهتلرية والستالينية والماوية . هذه المرة لايميز أقل ارتفاع في خط النمو البياني .

« قشرة الدماغ الانساني تحوي عشرة مليارات من النوردنات(١٣) اتاحت التقدم من البلطة الى القنبلة الذرية ومن الميثولوجية البدائية الى القنبلة الذرية ومن الميثولوجيا البدائية الفيزياء الحديثة » هكذا يقول فون بيرتالنفي ويضيف : « ليس في مجال الغريزة اي نمو مماثل يدفع الانسان لتغيير سلوكه . ان الاوامر الاخلاقية التي صدرت عن مؤسسي الديانات وعن معلمي الانسانية الكبار ، طوال عصور مديدة ، آلبتت لاجداوها على نحو محزن » .

لقد بقينا الى هنا في حدود الوقائع التي أيدتها الوثائق التاريخية وأبحاثالاختصاصيين في عصور ماقبل التاريخ . فاذا انتقلنا من الاعراض الى الاسباب وجب علينا الرجوع الى فرضيات احتمالية كثيرا أو قليلا ، متصلة فيما بينها مع ذلك ولكنها تنتمي الى انظمة مختلفة : عصبية ـ نفسانية ،انتربولوجية، نفسانية .

الفرضية العصبية ـ النفسانية ناشئة عن نظرية الهيجانات المعروفة بنظرية بابيز ـ ماك لين ، وهي نتيجة ثلاثين سنة من البحث التجريبي . وتعتمد هذه النظريةعلى الفروق الاساسية للتشريح والوظائفالموجودة بين بنى الدماغ القديمة ، التي يملكها الانسان يشاركه فيها الزواحف والثديات الدنيا ، والقشرة الجديدة ، الانسانية خصوصا ، التي وضعها التطور فوقها من غير أن يؤمن ، واأسفاه ، التوافق المطلوب بينهما .

نتيجة هذا الاهمال من جانب التطور هي تعايش عسير ، غالبا ماينفجر على شكلنزاعات حادة ، بين البنى العميقة المتوارثة للدماغ التي تهتم بصورة رئيسية لضروب السلوك الغريزي والهيجاني ، والقشرة الجديدةالتي زودت الانسان بالكلام والمنطق والفكرالرمزي. النتيجة وضع رسم له ماك ـ لين لوحة اخاذة على نحو غريب في مقال علمي :

« يجد الانسان نفسه في وضع محرج لانهتلقى من الطبيعة ثلاثة ادمغة عليها ان تتصلوتعمل

---

(١٢) ديانة شعبية في الصين ، خليط عجيب من عبادة الارواح والطبيعة والاجداد وشرائع لاو ـ تسو ومعتقدات أخرى مختلفة !

(١٣) الخلية العصبية .

على الرغم من الفروق الكبرى في البنى . اقدم هذه الادمغة زاحفي اساسا . واما الثاني فقد ورثناه عن اللبونات الدنيا. واما الثالث الذي نما منذ امد قريب عند اللبونات ... فهو الذي جعل الانسان انسانا » .

وقد استعار ماك لين في احد دروسه العصبية النفسانية القريبة التشبيه التالي : « يمكن اعتبار هذه الادمغة الثلاثة كمنظمات بيولوجية لكل منظم شكله الشخصي الذاتي ، ذكاؤه الخاص ، حسه بالمسافة والزمن ، ووظائفه الحركة وغير ذلك » .

يؤلف الدماغان الزاحفي واللبوني الادنى كلاهما مايمكن ان نسميه الجهاز الوريقي (نسبته الى الوريقة الناشئة في النبات او ببساطة « الدماغ القديم » مقابل القشرة الجديدة وسجاياها المختصة بالجنس البشري ولكن ، بينما البنى السابقة للطوفان ، في مركز الدماغ ، التي تنظم الغرائز والاهواء والاندفاعات البيولوجية ، لم يمسها التطور الا مسا رفيقا ، فان القشرة الجديدة قد كبرت خلال خمسة الاف سنة في سرعة مذهلة ،وهو امر لا سابق له في تاريخ التطور حتى ان بعض علماء التشريح شبه هذا النمو بتكاثر الخلايا في الاورام .

ويبدو انه نتج عن ذلك ان الدماغ المفكر ، الذي يهب الانسان ملكة التفكير ، لم يستطع، من جراء نموه في مثل هذه السرعة ، ان يتوافق أو يتصل بوشائج متينة مع البنى القديمة المتصلة بالعاطفة ، هذه البنى التي وجد ـ اي الدماغ ـ متوضعا فوقها في سرعة لا سابق لها . يعني أن السبل العصبية التي تصل القشرة الجديدة بالبنى القديمة للمخ المتوسط غير متوافقة على نحو ظاهر . هكذا فقد ولد الانفجار الدماغي جنسا غير متوازن عقليا، جنسا، دماغه القديم ودماغه الحديث، عاطفته وفكره ، ايمانه وعقله في نزاع مستمر فالشحوب الانيمي (الذي ينبيء عن فقر في الدم) للفكر العقلاني ، للمنطق المعلق على شعره توشك دائما ان تنقطع في طرف ، وفي الطرف الاخر جنون المعتقدات اللاعقلانية المشغوفة وصرعها التي لا تنفك تعمل عملها في اضحيات التاريخين القديم والحديث ومحرقاتهما .

فاذا لم تكن النظرية العصبية ـ النفسانية قد حملت الينا كفايتنا من البراهين على ما نحن في صدد البرهنة عليه ، فلنتوجه الى سيرورة عملية التطور الذي حول الدماغ البدائي تدريجيا الى جهاز ارفع مثلما تحولت القصبات الى رئتين او اطراف الزواحف المسبقة الى جناح عند النورس وزعنفة عند الحوت ويد عند الانسان .

ولكن التطور ، عوضا عن تغيير الدماغ القديم، وضع فوقه بنية ارقى ، وظائفها تقوم جزئيا بعمل مضاعف ولاتملك وسائل محددة جيدا للسيطرة على البنية القديمة .

واذا ماشئنا تعبيرا مالوفا قلنا ان التطور لم يشد الفرقات ، كلتس الموجودة بين القشرة الجديدة والايبوتالاموس(١٤) وقد اطلق ماك لين اسمه سكيزوفرينيا(١٥) على هذا العيب المستوطن في الجهاز العصبي البشري .

---

(١٤) منطقة في قاعدة الدماغ مراكز النشاط الودي واليقظة والنوم والمعدلات الحرارية .
(١٥) من « سكيزون » اليونانية ومعناها (الصدع) و « فرين » : الفكر .

عندما يتكلم عالم البيولوجيا على « كبائر » التطور ، فهو لايأخذ على التطور تقصيره في بلوغ مثل اعلى نظري مجهول . انه يشير الى شيء ابسط واكثر دقة ، يشير الى انحراف لاريب فيه عن قواعد تأثير الطبيعة ، انحراف ينتزع من عضو ما كل نفعه او بعضه .

ولكن ، في تطور مختلف نماذج الادمغة انما وقعت كبائر الخطيئات ، لدى الكائنات غير الفقارية نما « الدماغ » حول اقنية غذائية على نحو لاتستطيع معه الكتل العقدية التضخم الا اذا ضغطت الانبوب الغذائي ، وهذا ماحدث للعناكب وانواع السرطانات التي لاتستطيع ان تمتص الا السوائل فغدت مصاصة للدماء .

وقد كتب غاسكل في كتابه « اصول الفقريات » يقول : « ان اتجاه التنوعات عند المفصليات وتقدمها يؤديان الى خيارين سخيفين لا ثالث لهما : فاما القدرة على استهلاك الغذاء دون ما يكفي من الذكاء للاستيلاء عليه ، واما ذكاء كاف للظفر بالغذاء دون أي امكان لاستهلاكه».

وتبدأ الفقريات انطلاقا جديدا . ولكن احد اقسام الفقريات الكبرى ، ونعني جرابيات استراليا (خلافا للمشيميات التي تنهي نمو اجنتها في جيوب بطنية) . انتهى الى طريق مسدود . فدماغ الجرابيات ينقصه عامل مهم هو ما يسمى بالجسم الصلب ، وهو قناة عصبية عند المشيميات تصل نصف الدماغ الايمن بنصفه الايسر .

ولكن ، اكتشف أخيرا قسم اساسي في وظائف هذين النصفين من الدماغ اللذين يتكاملان فيما بينهما . وبدهي ان هذين النصفين يجب أن يعملا معا لكي يفيد الحيوان (أو الانسان) من كل طاقاتهما . وغياب الاجسام الصلبة يعني فقدان التوافق اللازم بين شطري الدماغ . وربما كان هذا هو السبب الاساسي الذي يوضح التوقف النهائي للتطور عند الكوالا(١٦) .

من حسن الحظ أننا نملك جسما صلبا جيدا يكامل بين نصفي الدماغ افقيا . ولكن ، في الاتجاه الشاقولي ، ابتداء من مستقر الفكر الى الاعماق السبخة للغريزة والاهواء : لا تجري الامور على ما يرام . ومعطيات البحث الفيزيولوجي ، مضافة الى فظائع التاريخ وشائنات سلوكنا اليومي ، كل اولئك توحي بالنتيجة ذاتها .

ثمة طريقة اخرى في بحث العجز الانساني تنطلق من كون الطفل انما يمر بفترة طويلة يكون خلالها تابعا تبعية مطلقة لابويه وهو أمر لا يعرفه اي جنس حيواني آخر .

وطبيعي ان اول ما يطلبه المنوّم هو انفتاح الوسيط لايحاءاته . وهكذا يصبح الوسيط ملتصقا بما يوحيه اليه المنوم . هذه هي حال الطفل الذي يجد نفسه دونما دماغ امام والديه فيخضع لما يلقنانه اياه من معتقدات جاهزة .

ان كوارث التاريخ المستمرة تعود بصورة رئيسية الى استعداد الانسان المفرط ، الى حاجته الحقيقية للانتماء الى قبيلة ، الى

---

(١٦) حيوان استرالي ٨٠ سم متسلق ليوني ، جرابي .

أمة، الى كنيسة، الى قضية وتبني المعتقدات دونما تفكير ، وفي حماسة ، حتى ولو كانت المبادىء لا عقلانية خلوا من الفائدة للفرد ، او حتى مضادة لمتطلبات حفظ البقاء .

وهكذا فاننا محمولون على الظن أن مصيبة جنسنا البشري لا ترجع الى افراط في العدوانية وانما الى قابلية مفرطة للانقطاع الى معتقد انقطاعا طافحا بالتعصب . وحسبك أن تلقي نظرة على التاريخ حتى تؤمن ان الجرائم الفردية التي ارتكبت بتاثير الانانية تلعب دورا بسيطا جدا اذا هي قيست بالمجازر التي جرت باسم الولاء ، واسم الغيرة على القبيلة، والامة ، والدين أو المعتقد السياسي (١٧) .

الح على كلمة غيرة وغيرية ، لان الناس ـ ماخلا اقلية زهيدة من الماجورين او الساديين ـ لا يحاربون بدافع من طمع ولكن اخلاصا لملك او وطن او قضية . ان القتل الذي يرتكب لاسباب شخصية استثنائي من وجهة النظر الاحصائية في الحضارات كافة ومن ضمنها حضارتنا . واما القتل الذي يجري دون دافع اناني ، القتل الذي تكون فيه حياة القاتل عرضة للخطر ، فهو الظاهرة التي تعم التاريخ . والذين خدموا في الجيش جميعهم شهود على العواطف العدوانية قبل العدو لا مكان لها في سياق الحرب المرعب . الجنود لا يبغضون . انهم يخافون ، يضجرون، يتالمون من الحرمان الجنسي والحنين الى الوطن . وهم يقاتلون في اذعان ، لانهم لا يملكون خيارا آخر ، وقد يقتلون في حماسة للوطن ، للدين الحنيف ، للقضية العادلة . ولكن ، ليس البغض هو الذي يدفعهم وانما الولاء . نكرر اذن : ماساة الانسان ليس مردها الى فرط العدوانية ولكن الى فرط الاخلاص .

تقول نظرية اخرى ، زيها شائع منذ بعض الوقت لدى علماء الانتروبولوجيا(١٨) . ان اصل الحرب موجود في الاندفاعة الغريزية التي لبعض الاجناس الحيوانية الى الدفاع ، مهما يكن الثمن ، عن نصيبها من الارض أو الماء : وهذا ما يسمى الدافع المكاني أو الاقليمي . هذه النظرية لاتبدو لي أكثر اقناعا من نظرية فرويد ، لان الحروب الانسانية ـ ماخلا بعض الاستثناءات النادرة ـ لا تستهدف التملك الفردي لاجزاء من الارض .

في الواقع ، اذا أخذنا هذا الانسان الذي يذهب الى الحرب ، تاركا بيته الذي يفترض فيه الدفاع عنه ، ويطلق النار بعيدا من قريته ، هذا الانسان اذا كان يقوم بهذا العمل فليس السبب اندفاعة بيولوجية للحفاظ على بضعة الهكتارات أو الامتار المربعة التي هي ملكيته الشخصية ، ولكن بسبب اخلاصه لرموز آتية من محبة الوطن أو وصايا الرب أو الشعارات السياسية .

---

(١٧) استخدم المؤلف العبارة اللاتينية التي اتخذها الجيزويت شعارا لهم ، ونصها ad magorem dei gloria

(١٨) آن اوان تفسير هذه الكلمة : اصلها ومعناها الحرفي : من اجل مجد للرب اعظم من « انتروبوس » اليونانية ومعناها الانسان . والانتروبولوجيا علم دراسة الانسان بوصفه زمرة حيوانية . وقد يقال انتروبولوجيا ثقافة أو اجتماعية اذا درست مختلف المعتقدات والمؤسسات الاجتماعية .

ان احدا لا يخوض الحرب من أجل الاراضي وانما من اجل الكلمات .

هذا يقودنا الى الفقرة التالية من عرضنا للاسباب الممكنة للعجز البشري . ليس للانسان سلاح أقطع من الكلام . الانسان قابل لخدر الشعارات قابليته للامراض الوبائية . وعندما تتحقق العدوى وتظهر الاصابة فانه يدع الاعنة « لروح الجماعة » الذي يعنو لمقاييس خاصة ليست هي التي تحكم سلوك الافراد .

عندما ينضم شخص الى جماعة تضعف ملكات التفكير عنده في حين تتقوى اهواؤه بنوع من الطنين الانفعالي أو ردود الفعل الايجابية . الفرد ليس قاتلا ، بل الجماعة هي القاتلة . فاذا انحاز الفرد اليها أصبح قاتلا . هذه هي الجدلية الجهنمية التي يعكسها تاريخ الحرب والاضطهاد وابادة البشر ، والمحرض الاساسي عليها انما هي قدرة الكلام على التخدير .

كانت اقوال هتلر اقوى عوامل تخريبية في عصره . وقبل اختراع المطبعة فجرت اقوال رسول الله رد فعل انفعاليا متعاظما زلزل الدنيا من آسيا الوسطى الى الاطلسي . لولا الكلام لما كان الشعر ولا كانت الحرب . الكلام هو العامل الرئيسي في تفوقنا على اخوتنا الحيوانات ، ونظرا للكمون الانفعالي الذي ينطوي عليه فهو السيف المصلت دائما على بقائنا .

واذا وجد في ما اقول جنوح الى المبالغة والاغراب ضربت مثلا ملاحظات جرت منذ عهد قريب على مجتمعات القردة في اليابان . بعض جماعات القردة تغسل الفواكه في النهر قبل اكلها ، وبعض اخرى لا تغسلها . وتفسير ذلك أن جماعة الغسل التقت ، خلال هجرة قامت بها ، جماعة عدم الغسل فاخذ هؤلاء وأولئك يحدق بعضهم في بعض وعلى الجميع كل مظاهر الدهشة .

ولكن القرود غاسلة الفواكه لم تعلن الحرب على غير الغاسلة ، لان هذه الجماعة المسكينة لا تملك هبة الكلام الذي يتيح لها اعتبار غسل الفواكه بمثابة وصية من وصايا الرب واعتبار اهمال غسلها كفرا شنيعا .
بعض الاجناس تملك ، يقينا ، وسائل للتواصل فيما بينها بالاشارات ، او الاصوات او الروائح ، يفهمها اعضاء الجنس كافة . ان كلبا من فصيلة ما يتفاهم مع كلب من فصيلة اخرى دونما وسيط .

واما « الانسان الحديث » فقد تشظى في نحو من ٣٠٠٠ جماعة لغوية . وكل لغة ، كل لهجة تتخذ بمثابة قوة صهر داخل الجماعة ، وبمثابة قوة تفريق بين الجماعات .

لذلك كانت قوى القطيعة اقوى بما لا مجال معه للمقارنة من قوى الدمج والاتحاد . والناس يختلفون ، سواء من حيث المظهر الجسماني أو السلوك ، اختلافا اكبر من أي جنس حيواني آخر ، وهبة الكلام ، عوضا عن تقريب هذه الاختلافات وتمهيدها ، لا تصنع الا ان تزيد في اقامة الحواجز ونقاط التضاد .

نحن نملك اقمارا صناعية قادرة على ارسال رسائل الى مجموع سكان الكوكب ، ولكننا لا نملك لغة مشتركة يفهمها كل الناس . ومن

القريب ان احـدا في المؤسسات العالمية ، كاليونسكو ، لما يكتشف بعـد ان أبسـط الوسائل لتعميم التفاهم هو نشر لغة يفهمها الجميع .

وما دمنا بعيدين من الايمان بان الجنس خالد بالقوة فنحن لانستطيع الصبر على انتظار التطور أن يغير الطبيعة البشرية ويرجـح التعاون والعقل . مع الاسف ، توقف التطور البيولوجي منذ زمن الكرو ـ هانيون ، قبل ٥٠ الى ... ١٠٠سنة . نحن لا نستطيع انتظار مئة الف سنة اخرى حتى يثبن اوان نضجنا الخليق بتسوية الامور . ان الامل الوحيد في النجاة هو في اختراع تقنيات تحل محل التطور البيولوجي وتعوض عنه .

واذا شئنا اللجوء الى تعبير آخر ، وجب علينا البحث عـن دواء للسكيزو فرنيـا المستوطنة التي حشرتنا في مأزقنا الراهن . فاذا لم نعثر انتهى الانسان حتما الى التباب والانقراض بدافع ميلـه البارانويي القديـم ولا سيما بعد أن زود بقدراته الجديدة على التخريب . هذه الفكرة ليست من قبيل العلم الخيالي . انها تعتمد على التقدم الذي احرزه منذ أمد يسير علم الكيماء ـ العصبية وعلوم اخرى تابعة .

هذه العلوم لا تسير الآن معالجة الاضطرابات العقلية للجنس البشري ولكنها تعين مجال الابحاث الذي يمكن العثور على العلاج فيه : هذه التركيبة مـن الهرمونات الجنسية أو الخمائر الملائمة التي ستخفض النزاع بين بنى الدماغ القديمة وبناه الحديثة بمنحها القشرة الجديدة سيطرة تسلسلية على المراكز القديمة، الدنيا ، وتحرض بذلك على الانتقال مـن الحيوان المهووس الى الانسان .

بيد أني تعلمت ، من حسابي ، أن ردود فعل انفعالية قوية ما فتئت تثار على كل من يتجاسر فيقترح « تغيير الطبيعة » . ان مثل هذه الضروب من المقاومة تعتمد جزئيا على الجهل او الاوهام الموروثة . ولكنها ، كذلك ، تصدر عن نفور معافى من كل ما يهدد باضافة الضغط على الشـخصية الانسـانية الى الممارسات الاجتماعية والنفـسية وغسـيل الدمـاغ أو المظاهـر الاخرى التـي تحبـذ المطلقيـة (التوتاليتارية) مصرحة كانت او مقنعة .

مـن جهة اخرى ، يجب أن نفهم جيدا ان الانسان ، منذ الصياد الاول المرتجف مـن البرد ، المتدثر بجلد حيوان ، لم يكف ـ خيرا كان هذا أم شرا ـ من اختلاق وسط اصطناعي؛ عن اختلاق طريقة وجود اصطناعية لولاهما لما استمر . انه لايستطيع رفض السكن والثياب والتدفئة والطبخ،ونحن لا نتكلم على النظارات واجهـزة التعويـض والمطهرات والمهدئـات واللقاحات ، الخ .

ولنتذكر ، لكي نقدر هذه الطرائق في « تغيير الطبيعة » أن الهنود الحمر قد فقدوا قارتهم بسبب الجدري في الدرجة الاولى . هـذا المرض ذاته حصد سكان اوروبا في بدايـة القرن السـابع عشر ولا تقارن خسـائره ـ رمزيا ربما ـ الا بمجازر حروب الثلاثين عاما التي ارتكبت باسم الدين الصحيح .

يعلمنا الايتولوجيون(١٩) ان أجناس الحيوانات

---

(١٩) من « ايتوس » اليونانية ومعناها « الخلال » او الطبائع . والايتولوجيا هي علم دراسة الفعاليات الغريزية الموجهة نحو هدف في الوسط الطبيعي ◻

المدروسة كافة ــ الحشرات كما الارانب ــ مزودة بانواع من الرقابة الفزيزية التي تكبح التكاثر وتحافظ على كثافة ثابتة للسكان في اقليم معين حتى ولو كان الغذاء فيه وافرا .

فاذا ما بلغت الكثافة مستوى حرجا ، حدث توتر يصيب التوازن الهرموني يقلص من طول العمر ويخفف من سرعة الفعاليات الانسانية .

ولكن البشرية جنس شاذ أضاع ، في لحظة من لحظات تطوره ، هذه الآلية الناظمة ، حتى ليقال ان القاعدة الايكولوجية(٢٠) هنا مقلوبة . فكلما زاد تكدس البشر في مدن التنك او في الغيتيوات أو الحجور ازداد تكاثرهم . وما منع سكان الكوكب من بلوغ التفجر السكاني في الماضي ، طوال الآف السنين ، لم يكن فقط آلية كبح الانسال الطبيعية عند الحيوانات وانما مواسم حصاد الحروب القاتلة والطاعون والخلائق الطفولية .

فاذا قورنت هذه الفظائع بالوسائل الحديثة لـ « تهديم الطبيعة » بوساطة موانع الحمل الفيزيائية أو الكيميائية لوجدنا هذه أفضل واخف وطأة .

ومع ذلك ينتج عن هذه الموانع تغيير جذري ودائم في السيرورات الفيزيولوجية الحيوية للدورة المبيضية . وهي اذا انتشر استعمالها على الصعيد العالمي كانت معادلة لتغيير مبنى مستثار اصطناعيا .

فاذا كنا استطعنا في الاقل التغلب على الامراض السارية التي تهاجم الاجساد فقد آن اوان البحث عن طرائق لاكساب الانسان مناعة ضد الهذيانات السارية التي تهاجم الجماعات منذ ليل العصور وتغرق التاريخ في الدماء . ان الصيدلانية العصبية اعطتنا الغازات السامة وادوية غسيل الدماغ وعقاقير أخرى لخلق الهلوسات والهذيانات ارادياً . هذه العقاقير يجب ان تكون لنفع الانسان وستكون .

واذا كان يجب انقاذ جنسنا ، فلن يكون الخلاص من طريق هيئة الامم المتحدة او القمم الديبلوماسية . الخلاص سيخرج من المختبرات البيولوجية . وانه لمن المعقول ان تداوى فوضى بيولوجية بمنظم بيولوجي . البيوكيميائي لا يستطيع اضافة شيء الى الخواص الدماغية . ولكن في وسعه استبعاد الانسداد او الاحتجاز اللذين يعيقان عملها الحسن . انه لا يستطيع اقامة دارات اضافية في المخ ، ولكنه قادر على تحسين التوافق بين الدارات الموجودة وتقوية القشرة الجديدة ــ قمة الهرم ــ على صعيدي العواطف الدنيا والاهواء التي تولد هذه العواطف .

ان المهدئات الحالية والمنومات والمحرضات وما الى ذلك من مضادات للوهن العصبي لا تمثل الا خطوة أولى نحو وسائل أكمل من شانها ان تساعد على ترقية الذكاءات المتوازنة الملقحة ضد قرع طبول الحرب

---

(٢٠) ايكولوجيا من « أويكوس » اليونانية (منزل) و « لوغوس » (علم) وهي فرع من البيولوجيا موضوعها دراسة العلائق بين الكائنات الحية بوسطها الطبيعي .

والخطب الديماغوجية ومواعظ الانبياء الكذبة . والغاية ليست الترفانا التي يستجلبها عقار . ل . س . د . أو سوما « أحسن العوالم » وانما توازن فاعل ، ديناميي ، يوحد العقل والايمان ويرمم النظام الهرمي .

الصيدلانية – النفسية تلعب دورا متعاظما في معالجة الاضطرابات العقلية مثل الهذيانات الفردية التي تصيب المحاكمة ولا يقبلها روح الجماعة. المهم الآن هو علاج الميل البارانويي (الزوري) لدى الاشخاص الذين نسميهم « طبيعيين » ، ميل يظهر عندما يكونون ضحايا عقلية الجماعة . وتوجد الآن عقاقير تجعل الدماغ أعصى على التأثر ، اذن لن يلبث العلم أن يصبح قادرا على فعل العكس، أي على تقوية الملكات النقدية ، ومنع انكار الذات المنحرف والحماسة للقتل أو الانتحار التي نراها في كتب التاريخ وفي صحف كل صباح .

المسكنات والمحرضات والمهدئات وموانع الحمل منتشرة في العالم انتشارا واسعا سواء أكان هذا لخير الناس أم لشرهم . ويرافق هذه المنتجات حد ادنى من الدعاية والتشجيع الرسمي . واما استخدام « مثبت » عقلي فلا يمكن أن يشيع بالاجبار وانما يتبنى من اجل نفع واضح تماما . انطلاقا من ذلك يجب انتظار نتائج استعمال هذا المثبت مثلما هي الحال في اي من المكتشفات العلمية الحديثة .

إني لاوثر أن اعلق املي على الاقناع الاخلاقي بالقول والقدوة الحسنة . ولكن ، لسوء الحظ ، نحن جنس من المرضى العقليين . وما دمنا كذلك فنحن صم دون الاقتناع . وصرخة الهلع التي أطلقها سويفست : وقد جرب الاقناع منذ عهود الانبياء ... « أن لا أموت هنا مسعورا مثل جرذ مسموم في جحره » هي صرخة عصرنا .

ان الطبيعة ندعنا لقوانا الخاصة ذاتها . والإله قد رفع سماعة هاتفه والوقت يمضي مسرعا . والأمل في أن يتم تركيب الخلاص في المخبر يبدو ماديا او ساذجا . ونحن نجد في هذا الامل حلم « اكسير الحياة » الذي كان يراود السيميائيين القدامى . ولكننا لا نطلب من الاكسير الحياة الخالدة . كل ما نسأله هو استبدال « الانسان المدرك » « بالانسان الممرور » .

ان الادب كان مسؤولا

ياسر الفهد

ان معايشة جلال فاروق الشريف للحركة الادبية المعاصرة وباعه الطويل في مضمار الصحافة تؤهلانه دون ريب للحديث عن شؤون الادب وشجونه . واذا أنعمنا النظر في الاعمال السابقة للاديب نجد أن معظمها تصب في مصب الادب (اشاقيد الغضب — مراسلات غوركي تشيخوف — مقابلات مع مكسيم جوركي — علم الادب السوفياتي) أو تدور في فلك السياسة (الثورة العربية كما يراها اليسار الغربي — الدعاية السياسية) أو تتناول شؤون الفكر (بعض قضايا الفكر العربي المعاصر) .

واذا تلينا من المقالات والموضوعات التي نشرها في الصحف والمجلات العربية نجد انها أيضا تنهج النهوج نفسها وهي تتفرغ الى فرعين رئيسيين :

١ — الكتابة في شؤون الادب والصحافة .

٢ — الكتابة في قضايا الفكر والسياسة .

وفي الكتاب الذي بين أيدينا (إن الادب كان مسؤولا *) نجد مضمون الكتاب لا يقل أهمية عن عنوانه ، فهو يدور حول حاضر الادب ومستقبله مع ملامسة خفيفة لماضيه . ويولي المؤلف موضوع الالتزام اهتماما خاصا ، فقد كان هذا يعد في الماضي بدعة وينظر اليه على أنه يتعارض مع حرية الاديب فاضحى اليوم يمثل مفهوما اساسيا . ويرى الاستاذ جلال ان الالتزام لا يحد من هذه الحرية . ونحن نتفق معه في ذلك اذا كان الالتزام قوميا وانسانيا ولكن هناك بعض حالات الالتزام السياسي أو الديني أو العنصري تقيد حرية الكاتب وتجعله يدرك الامور بمنظار واحد ، ويرى الحقائق بعين واحدة بعيدا عن الموضوعية والحرية .

وينطلق المؤلف في كتابه من وعيه باهمية دور الثقافة والمثقفين ويدعو الى تعميق التزامهم وتنظيم انتماءاتهم ، وهي الانتماءات التي تحددها رؤية الاديب للمجتمع الذي يعيش فيه وللكون باسره ، وهو يعد الواقعية رغم وجود نقاد وخصوم لها النهج الامثل نظرا لالتصاقها بالحياة وبالواقع . وللواقعية اتجاهات وفروع وأفضلها النوع الاقدر على استيعاب الحياة الانسانية في واقعها التاريخي وعلى إماطة اللثام عن العلامات المشرقة والمظلمة فيها . وتتيح الواقعية للاديب العربي امكانية الالتزام بصراع المصير الذي تخوضه الامة العربية اليوم ، فالواقع العربي بكل

★ — « ان الادب كان مسؤولا » — جلال فاروق الشريف — اتحاد الكتاب العرب دمشق — ١٩٧٩ .

ما يكتنفه من تهديدات وتحديات وأخطار هو الذي يؤلف مادة الواقعية .

أما الكتاب غير الواقعيين فانهم لا يستطيعون التعبير عن واقع الحياة العربية وهم ليسوا قادرين الا على تصوير جانب واحد من جوانب هذه الحياة . ويدعو الاستاذ جلال الى عقد مؤتمر للأدب الواقعي يتمخض عن اصدار واجبات الواقعيين ومسؤولياتهم ويلزمهم بهذه المسؤوليات . ويتضمن الكتاب اطلالة تاريخية سريعة على تطور الادب العربي الذي نشأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر واصبح فنا مستقلا في مطلع القرن العشرين . ويشغل موضوع التخصص حيزا من اهتمام المؤلف ففي المرحلة الاولى من بزوغ الأدب العربي كان الكتاب يميلون الى الموسوعية فيأخذون من كل علم بطرف ويكتبون في فنون ادبية شتى ومن هؤلاء : طه حسين والعقاد والمازني . وهذا في رأي المؤلف نهج سقيم طواه الزمان وغيبه المنطق الأدبي الحديث الذي يقتضي التخصص في لون كتابي ما .

ونحن وان كنا نرى ان الكاتب ينبغي فعلا أن يتخصص في نمط ادبي محدد الا ان هذا يجب الا يمنعه من طرق أنماط أخرى على نطاق أضيق . فالتخصص مطلوب ولكنه لا يحول بالضرورة دون التنوع المحدود . وتمثل فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية بداية تطور الأدب العربي المعاصر الذي اصطدم بعقبة اللغة العربية وضرورة مسايرتها للحياة الحديثة ومواكبتها التطورات العلمية والتكنولوجية والثقافية المستجدة .. أي قدرتها على استيعاب الحياة الجديدة . وبتأثير المعاصرة نشأت الكلاسيكية الأدبية العربية الجديدة التي تجمع بين التراث اللغوي والثقافي وبين المعاصرة وفي هذا المجال نستطيع القول أن النثر كان أكثر تأثرا بالمعاصرة في حين كان تأثر الشعر بالتراث أكبر .

ومع بزوغ فجر الستينات تبدأ مرحلة تفتح الادب العربي بمختلف أشكاله وتأخذ حمى الانتاج والنشر في الظهور . وتتسم هذه المرحلة بديموقراطية الثقافة أي التفاعل الواسع بين الكتاب والقراء كما تتميز بتحديث اللغة العربية وتقليص الاعتماد على الفصاحة ، وباهتمام بالمضمون أكثر من الشكل ، وكذلك بالانفتاح على الثقافات المعاصرة وقد تم هذا بفضل انتشار وسائل الاتصال الجماهيري . ومن ميزات هذه المرحلة أيضا نشوء تحولات كبيرة في الثقافة العربية على جميع المستويات . ويحدد المؤلف المهام التي يواجهها الادب العربي المعاصر :

١ ـ بالنضال من اجل الحداثة ، وهذا يتضمن :

٢ ـ استيعاب التقنيات الأدبية الجديدة في اللغة والرواية والمسرح .

ب ـ متابعة تطوير اللغة العربية .

ج ـ تنظيم الترجمة والتوسع فيها .

ونحن نبارك اهتمام المؤلف بالترجمة فهي نافذتنا على العلوم والثقافات والآداب المتقدمة، ومع ذلك فاننا نجد المؤسسات الثقافية العربية مقصرة بحقها فالكلمة المترجمة لا تنال استحقاقها المعنوي والمادي ، والمترجم لا يوضع على قدم المساواة مع الكاتب ، وليس من قبيل الغلو

القول بان المترجم يبذل في ترجمة بعض النصوص العلمية أو الادبية أو الطبية جهودا تزيد عما يبذل الكاتب في تاليف بعض الاشكال الكتابية . ولكن لعل أهم مشكلات الترجمة عدم وجود تخطيط لتلافي ازدواجية الترجمة فبعض المترجمين يترددون في ترجمة بعض امهات الكتب الاجنبية خوفا من أن يكون غيرهم قد سبقهم الى ترجمتها . ونعتقد أن من واجب المؤسسات العربية المعنية بشؤون التعريب أن تتبنى ترتيبات لاصدار قوائم سنوية بالكتب والمقالات المترجمة حتى لا يُعاد ترجمة بعضها على حساب ترجمة كتب ومقالات جديدة .

اما المهمة الثانية التي يواجهها الادب العربي المعاصر فهي التفاعل مع الواقع القومي والاجتماعي وتتجلى المهمة الثالثة بالتوسع في التوجه نحو القواعد العريضة من الجماهير وهذا الهدف الأخير لا يتحقق الا اذا ارتبط الانتاج الأدبي فعلا بقضايا الجماهير وعكس همومها ومشكلاتها الحقيقية . ومن الامور التي تناولها المؤلف موضوع مسؤوليات الكتاب والادباء والفنانين وهو يحث كل أديب الى تحديد موقفه الفكري وانتمائه الادبي ويعد عدم وعي الكتاب لانتماءاتهم وهوياتهم الادبية مؤشرا على التخلف ، كما يبشر بنشوء مدارس ومذاهب ادبية لان هذا في رايه يسهم في حل بعض المشكلات التي تنشا بين الادباء ومؤسسات النشر . ونحن نعتقد ان تشكل مثل هذه المدارس لا يكفي وحده لحل المشكلات المعقدة التي تفرزها في مجال العلاقات الصحفية بل لا بد ايضا من سن تشريعات أدبية تنظم العلاقات بين الكتاب من جهة والصحف والمجلات ودور النشر من جهة أخرى وتمنع تجاوز أي طرف على الآخر . وحتى الآن فان هذه العلاقات عشوائية تحكمها التأثيرات الشخصية ولاتضبطها ضوابط أدبية قانونية. ويتعرض الاستاذ جلال فاروق الشريف ايضا لمستقبل الادب العربي وهو يرى أنه لايمكن ترك الانتاج الادبي العربي يخضع لحركةتطور عفوي وعشوائي بل لا بد من التاثير في هذه الحركة تاثيرا ايجابيا .

ومن المعطيات السلبية التي تتحكم بتطور الادب العربي يذكر المؤلف : الانفصال السياسي ، الذي يؤدي بالتالي الى الانفصال الثقافي ، وهو عامل سلبي يعرقل انتقال الإنتاج الادبي (١) من بلد الى بلد ويسبب نشوء نزعات فكرية اقليمية ترفض الانتماء الى الحركة الفكرية العربية العامة، كما يذكر التطور الثقافي اللامتكافىء بين الاقطار العربية، الامر الذي من شانه تاخير تماثل البنى الثقافية وتوحد اتجاهاتها ومضامينها . ومن هذه المعطيات ايضا تباين المؤثرات الثقافية الاجنبية وجميعها تهدف الى تشويه البنية الثقافية التاريخية للمجتمع العربي ومنع نشوء بنية عربية ثقافية حديثة تاخذ باسباب العلم والتطور . وأهم من أي شيء آخر فان هذه المؤثرات ترمي بشكل رئيسي الى تدمير اللغة العربية .

وهناك اخيرا الطابع المحلي للادب والتربية فمحتوى التعليم يكتسب طابعا اقليميا ومضمون الادب يميل على الاغلب الى المحلية .

(١)ــ انظر مقالنا في مجلة الدوحة عدد نيسان ١٩٧٧ .

أما المعطيات الايجابية فيذكر المؤلف منها : محو الأمية وانتشار الفصحى ، وهذان العاملان يساعدان على التقدم نحو الوحدة الثقافية العربية ، وهو يعلق آمالا عريضة على اللغة العربية ويعدها القاسم المشترك واداة التوحيد الرئيسية وان كانت غير كافية بحد ذاتها لتحقيق التوحيد المطلوب . ويرى الاستاذ جلال أن البنية الثقافية تحمل بين طياتها بذور التوحيد والانفصال في آن واحد . وهو يربط الادب بالسياسة وبالنضال من أجل الوحدة وهذا ربط واقعي وسليم لان السياسة أكثر من أي عامل آخر تؤثر في الأدب وتحدد مساراته (١) . وفي حين نراه يؤكد على أن حل مشكلات الادب يسير جنبا الى جنبا مع حل مشكلات السياسة والمجتمع والاقتصاد والتخلف بشكل عام فانه يحمل الادب مسؤولية خاصة ويبشر بادب طليعي نضالي قادر على الاسهام في حل المشكلات الاخرى . ويدعو الاستاذ جلال الى بروز اتجاهات وانتماءات أدبية واضحة تتسع لتشمل الوطن العربي برمته على أن لا تؤدي هذه الانتماءات الى الغاء العمل النقابي بل تسير بمحاذاته.

ويختتم الكتاب بفصل خاص عن الكاتب الروسي الكبير ل.ن تولستوي بمناسبة الذكرى المائة وخمسين لميلاده متعرضا الى فلسفته الادبية وموقفه الفكري وتقنيات الكتابة عنده .

ويتلو ذلك فصل آخر عن رواية (الف ليلة وليلتان) لهاني الراهب الذي يكن المؤلف له تقديرا خاصا . ويبدو لنا أن الفصلين الأخيرين مقتحمان على الكتاب إقحاما ، فالقسم السابق لهذين الفصلين يبدو متماثلا وقد افقد إدخالهما الترابط في مضمون الكتاب . ولماذا اختار المؤلف تولستوي وهاني الراهب بالذات ليتناولهما بالدراسة وما وجه الشبه بين هذا وذاك ؟

يبدو لنا انه كان من الافضل لو حذف من الكتاب هذان الفصلان وتمت إضافتهما الى كتاب آخر يتضمن دراسات عن الأدباء الاجانب والعرب ، على أن يستعاض عنهما بما هو استمرار لمادة كتاب (ان الادب كان مسؤولا) الاصلية . وقد نكون في رأينا هذا مصيبين أو مخطئين .

---

(١) ــ انظر كتاب (سياسة في المسرح) لعلي عقلة عرسان .

مع الصحافة الثقافية

بريجنيف اديباً

(... فاتحاد الكتاب السوفيات بمنحه بريجنيف جائزة لينين في الأدب لهذا العام ، فانه يقوم بعمل استثنائي في التاريخ الادبي وهو تسليم سلطة الضمير بكاملها للسلطان . أي انه يتنازل طوعيا عن سلطته المعنوية لصاحب السلطة الأخرى ..) .

(.. وقد انتكس الادب في الاتحاد السوفياتي انتكاسة تاريخية بوصول ستالين الى عرش الحكم السياسي وجدانوف الى سلطة الحكم الادبي . لكن ستالين الذي وضع كراسة في علم اللغة ، لم يطمح يوماً في جائزة اتحاد الكتاب ، ولا فكر جدانوف في اعطائها له .

ولست أعتقد ان بطاقة الاوسمة التي يعلقها بريجنيف على صدره تحتاج الى وسام جديد . بل انني لست اعتقد ان بريجنيف كان لديه الوقت ، وهو رئيس احدى القوتين الاعظم في نظام شمولي ، ليكتب هذه « المذكرات » التي نال عليها الجائزة الرفيعة من اتحاد الكتاب السوفياتي ..) .

(.. وكم كنت أود من اتحاد الكتاب السوفياتي ان يمنح جائزة لينين للأدب ، لكاتب مغمور قال « لا » ودخل السجن او مستشفى الأمراض العقلية او تشرد في المنفى . حينذاك كان سيفاجأ زوار جثمان لينين المحنط بان شفتيه تنفرجان عن ابتسامة ... وان نقصت اوسمة بريجنيف واحداً ..) .

غالي شكري

مجلة « الوطن العربي » – باريس ١١ – ١٧ آيار ١٩٧٩

غرائب المترجمين

(صدر في حزيران من العام الماضي ، عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، في سلسلة اعلام الفكر العالمي ، كتاب عن الشاعر الانجليزي بيرون من « تاليف » أحمد الصاوي محمد ، في ٢٥٦صفحة من القطع الصغير (حوالي ٥٠ الف كلمة) .

والتاكيد على كون هذا الكتاب من «التاليف» أحمد الصاوي محمد ورد على غلاف الكتاب أولا ، ثم في الصفحة الثالثة منه ، وذكر في الصفحة الرابعة ان هذه هي الطبعة الاولى للكتاب .

وما نريد اثباته هنا ، كما سيرى القارىء ، هو ان الكتاب ليس من تاليف السيد الصاوي ، وانماهو من تاليف ـ بدون أقواس ـ الكاتب الفرنسي أندريه موروا ، وسبق ان قام بتلخيصه السيد بهيج شعبان ، وصدر عام ١٩٥٥ ملخصا ، في سلسلة اعلام الشعر التي كانت تصدر آنذاك من دار بيروت ، في ٢٠٨ صفحات من القطع المتوسط (حوالي ٤٤ الف كلمة) .
وكل مافعله السيد الصاوي هو انه ترجم الكتاب المذكور ، عن اللغة الفرنسية ، ونسبه الى نفسه ، وجعله من تاليفه ..) .

سعاده السوادح

جريدة « السفير » لبنان ١٦ أيار ١٩٧٩

الشعر في التحليل السياسي

(.. لست اقترح اصدار قانون يمنع المحللين السياسيين العرب من رواية الشعر او قرضه أو حتى الاستشهاد به ، ولكني أخشى ، ان ازداد كلفهم بالكلام المنظوم والاستشهاد به ، ان يأتي يوم يصاغ فيه التحليل السياسي سجعا أو شعرا تخضع فيه المعاني للقوافي ، ويضحى فيه بالمعنى لصالح المبنى ..) .

ماهر عثمان

جريدة « الشرق الاوسط » لندن ١١ ـ ١٢ أيار ١٩٧٩

يساري سابقاً

الكاتب عبد الرحمن الشرقاوي صاحب رواية (الارض) المقتبسة من الرواية الايطالية الشهيرة (فونتامارا) لاجناسيو سيلوني ، والذي بنى شهرته على هذا الاقتباس منتحلا لنفسه صفة اليساري ، فشل في لعبة شق الحركة الوطنية المصرية التي ادانت تصرفه

في تنفيذ هذه المؤامرة التي اعدتها المخابرات المصرية والامريكية ، كما تشمل في استقطاب عناصر المعارضة غير المنتمية للاحزاب التقدمية المعارضة .

المعروف عن الشرقاوي ، انه كان وراء تصفية مؤسسة روز اليوسف من العناصر اليسارية والوحدوية ، قام بهذا الدور من قبل في المؤسسة العامة للسينما .

مجلة « ألف باء »

العراق — ٩ أيار ١٩٧٩

الرجل المناسب في المكان المناسب

رجل اسمه سامي زقزوق عينوه في مصر مديراً عاماً للرقابة على المصنفات الفنية . وكان أهم اشتراطات تعيينه في هذا المنصب الذي يفترض فيه انه خطير ، هو ان يكون رجلاً جاهلاً بالأدب والفنون والمسرح والسينما .

مجلة « ٢٣ يوليو »

لندن — ١٤ أيار ١٩٧٩

المثقف بين الأصالة والتدجين

(.. كثيرون من المثقفين العرب من خارج الكوادر الادارية وخارج كوادر السلطة ، كانوا مبدعين وخلاقين ومتمردين ويحاولون دخول المستقبل على صورة مستمرة . والمؤلم ان هؤلاء الناس عندما يدخلون السلطة يتركون السلطة تهيمن عليهم . هذه واحدة من مآسي الحياة الثقافية العربية .

هذه الظاهرة استتبعها شيء خطير كبير : محاولة تدجين الثقافة العربية التي هي خارج السلطة . ان هذا التدجين ، اذا هو جاء قسراً فانه مغفور للمثقف لكي يكسب عيشه ، وانما المشكلة ان المثقفين يدخلون طوعاً في خدمة الأنظمة الجامدة ، فالمثقف خارج السلطة طوباوي يحلم بعوالم ، وهو يتخلى عن جميع هذه الاحلام عندما يصبح في السلطة ..) .

وليد اخلاصي

من مقابلة له — جريدة النهار — لبنان — ٥ أيار ١٩٧٩

يوسف ادريس يتكلم

(.. الاديب أو الكاتب أو الفنان ظاهرة اجتماعية يعني وظيفة اجتماعية . والذي يحدث الآن ان المجتمع المصري يمر بفترة من ادق وأخطر الفترات التي مر بها في تاريخ حياته منذ الفراعنة لانها فترة تحد « غير مرئي » . الآن العدو المجسد اختفى ، والشعب المصري يعاني حالياً من بقايا هؤلاء الاعداء الكثيرين جداً من أيام المماليك والباشوات والاقطاع ومراكز القوى والمحتلين الانكليز وغيرهم . هذا كله يتجمع فيما اسميه « العدو الخفي للشعب المصري » ، ويتخذ شكلاً اسمه « الاحباط » . الكلمة يستعملها المثقفون ولا يفهمها الشعب . وانا شخصيا استسخفها لأنها ليست كلمة دقيقة . فالاحباط هو فقدان الشهية أو تمزق الانسان بين ما يريده وبين ما يستطيع ان يحققه . ونحن نريد اشياء كثيرة ولكن لا نعمل شيئا .

هذا الاحباط هو من أخطر ما يمر بالشعوب . وانا ككاتب افكر في مشاكلي الشخصية من خلال المشاكل العامة . ومن مجمل تأملاتي وجدت ان الطريقة الوحيدة لمقاومة التحديات ان نبدأ بالاشياء الصغيرة ..) .

يوسف ادريس

من مقابلة له مع « القبس الاسبوعي » ــ الكويت ــ ٧ أيار ١٩٧٩

متى يقول الصدق

(.. أنا لا أصدق الصديق الكبير يوسف أدريس الا عندما يكتب قصصا ، فهي الشيء الوحيد الذي آخذه منه على محمل الجد ..) .

ابراهيم أصلان

جريدة « الانوار » ــ لبنان ١٤ أيار ١٩٧٩

بيان من ١٢ كاتباً وأديباً

تشكلت في بيروت « الندوة الثقافية » واصدرت بيانا تأسيسيا امس تعرف فيه عن نفسها وقعه ١٢ كاتبا وادبيا من لبنان والعراق وفلسطين . وجاء في البيان التأسيسي :

لسنا تحالفات مؤقتة ، أو رهانا على شروط لقاء يتجمع ، وقد يتفتت بعد وقت ، ولسنا تكريسا لمفاهيم تضمحل ، حالما تنتهي المواسم ولسنا ايضا نصطاد ولاءات توظيف في منافع او ظروف .

ان البيان التاسيسي هو دعوة لكل المثقفين والادباء والمفكرين التقدميين للقاء على قاعدة حد ادنى . ففي الوقت الذي نرفض فيه تدجين أو تسكيت قناعاتنا في الثقافة التقدمية ننفتح على الحوار مع كل من لا يلتقي معنا في التفاصيل ، ذلك ان التفاصيل وان كانت اشارة للاختلاف لاتنفي ان يكون الجوهر هو اطار الارتكاز الاول .

اما الجوهر فنراه بوضوح تقدمية الطرح ، تقدمية الموقف ، تقدمية الفكر . واذا كانت هذه الركائز الثلاث عمومية بالنسبة للبعض فهي بالنسبة لنا موقف وتغيير وتعبير ضد ركام البيانات التي تصدر ولا تعبر سوى عن نار آنية تنتهي مع رمادها المتاخر .

ان طموح « الندوة الثقافية »لا يتحدد في استقطاب اسماء لامعة أو الصلح مع « أوضاع » ثقافية بقدرما يسعى الى تجاوز الاوضاع الرخية مقابل ايذان بافق منفتح على كل الساحة الثقافية ، له مسؤولية الحركة والعمل والتعامل .

السياسة ؟ نعم انها الطاحونة التي تدور فيها رياحنا ، ولكن لن تاخذ منا غير رجاء انتظار القمح ولن تاخذ منا سوى نهايات الرجاء بحثا عن طوافة يحملها الذين على الشاطىء لشاركتنا في الصراع مع الموجة .

في حالة ثانية نحن السياسة حيثما تكون مقاومة للتخريب والتشويه وللقديم الذي يحاصر الانسان بقناعات مطلقة وللسائد في حدوده الهادئة والتلفيقية الخ انا لا نستطيع مصافحة الرضى في الخسارة ولا الارتخاء لصالح الفناء في جوقة سماوية . ان همنا ابعد وارحب من الاتكاء على قناعة منفردة لان الاختيار في مثل هذا الفتات والتشرذم ، يبقى امتيازا وامتيازنا أن نلتقي في « شارع » الديمقراطية وليس همنا تحية كل العابرين على الرصيف اما منهجنا فنعتقد ان البيان يعبر عن تفاصيله .

ووقع البيان كل من :

١ ـ سعدي يوسف، ٢ ـ رشاد أبو شاور، ٣ ـ جورج ناصيف، ٤ ـ يحيى يخلف، ٥ ـ جليل حيدر، ٦ ـ فيصل دراج، ٧ ـ علي حسين خلف، ٨ ـ نزار مروه، ٩ ـ حسن عبدالله، ١٠ ـ ربعي المدهون، ١١ ـ ليانة بدر، ١٢ ـ غسان زقطان .

جريدة « السفير »

لبنان ـ ١٥ أيار ١٩٧٩

اغتيال الثقافة

(.. ان التدهور الذي اصاب الحياة في مصر العربية على الصعيد السياسي والاقتصادي ، بلغ صورته المفجعة في الحياة الثقافية أيضا ... حيث الغيت وزارة الثقافة واختفت المجلات ودور النشر الثقافية الرصينة وطورد المثقفون وامتلأت بيعضهم المعتقلات وهرب قسم كبير الى الخارج وحوصر البعض الآخر حتى بتنا لا نقرأ في الآونة الاخيرة الا لبعض الكتاب المغمورين الذين لم يشكلوا اي تأثير في الحياة الثقافية العربية والمصرية .. كما جند بعض المرتزقة من اشباه المثقفين وأشباه الفنانين للقيام بدور البهلوانات المهرجة المؤيدة لخطوات السادات الاستسلامية وطفت بعض الوجوه العتيقة الهرمة المشبوهة على سطح الحياة الثقافية ، ودفع البعض منهم ليحتل موقع الصدارة ليس في البحث والانتاج الثقافي والفني الرصين ، بل في التهريج وفي تحويل الفكر والادب والفن لخدمة السلطات ..) .

مجلة ((الظفرة))

ابو ظبي – ٧ – ١٣ أيار ١٩٧٩

انتخابات اتحاد الكتاب اللبنانيين

(.. فان الرأي العام ، بدا متحفظا ازاء ((سياسة)) معركة انتخابات اتحاد الكتاب اللبنانيين ، وبالغ في تحفظه ، لدرجة شجب واستنكار ما رافق تلك الانتخابات من شعارات وشعارات مضادة ، وحملات وحملات مضادة ، وعنف وعنف مضاد ، وتشهير وتشهير مضاد ، ومناورات ومناورات مضادة ، وابتذال وابتذال مضاد .

كان الرأي العام ، ونحن من صميمه ، ومن طلائعه المتقدمة ، يتمنى لو حشد الكتاب طاقاتهم في جهد مشترك لاختيار النخبة المختارة من كتاب هذا البلد ، ودفعهم الى مرتبة القيادة ، أو على الاقل ، اعتماد صيغة الحوار الديموقراطي تمهيدا لمناخ انتخابات ديموقراطي أيضا .

ولان شيئا من ذلك لم يحصل ، فان الرأي العام الثقافي ، اكتفى بمراقبة ((الحلبة)) وشهود المصارعة ، لكنه لم يصفق للناجحين ، كما انه لم يهلل للمنسحبين ، ولم يتعصب للخاسرين ..) .

فضل الأمين

مجلة ((الراية)) – لبنان ١٢ أيار ١٩٧٩

السبب

(.. تعرض الادب العربي لهجمات تشكيكية من شانها الحط من قدرته وبالتالي اظهاره بمظهر الادب الذي لا يسمن ولا يغني من جوع ولا غرابة ان قلنا هكذا لان الهجمة المركزة على الادب العربي ناتجة عن عداء الهاجمين للعروبة . والهجمة هذه لم تكن جديدة بل هي قديمة وقديمة جدا ورثها هؤلاء عن العصر العباسي ، أولئك الذين فضلوا الاعاجم على العرب واخذوا يعملون في هذا الصدد بغية تحطيم العروبة ومحوها من قاموس البشرية . ويعتمد هذا الفريق في هجومه على مبدأ يقول بعدم وجود أمة عربية في الاصل معللا نكرانه للادب ووجوده وفائدته بعدم وجود الامة ..) .

حسن محمد نور الدين

مجلة « الموقف » ـ لبنان ٧ أيار ١٩٧٩

السينما المصرية

(.. في مصر هناك صناعة سينما ، ولكن هناك أيضا بعض الافلام القليلة ذات الاثر الفني .. ولكننا نعرف الدور السلبي الذي لعبته السينما المصرية وما زالت في تشويه ذوق الملايين من الشعب العربي وشعوب اخرى مجاورة وذلك عبر مئات الافلام والاشرطة ذات المضامين التافهة والتي لعبت دورا خطيرا ... الا ان اثر السينما المصرية كصناعة اغنى كثيرا من خلال اعداد بعض الكوادر التقنية .. الا ان اثر ذلك لم يظهر للاسف وذلك لان السينما المصرية لم تستطع ان تخلق اتجاها وطابعا ذا اثر فني للسينما المصرية ..) .

(.. السينما المصرية كانت وما تزال جزءا لا يتجزأ من بناء طبقي معروف وهذا البناء هو الذي يتحكم بها مضافا لذلك غياب الوعي الفكري الذي يكاد ان يفصل السينما عن مجمل الواقع الاجتماعي التعيس الذي يعيش فيه الشعب بمشكلاته ـ طبعا ـ باستثناء فئة قليلة من السينمائيين الجادين والذين يعانون شتى أنواع القهر والقمع والحرمان يصل احيانا حد الطرد من الوطن وذلك بسبب اتخاذ موقف فني ، ملتزم وجاد وشريف ..).

المخرج حسن احمد

مجلة« الهدف » ـ لبنان ٥ أيار ١٩٧٩

توفيق الحكيم

(.. فالحكيم مسالم أكثر من رئيسه . خاصة مع الاعداء . لكنه ليس مسالما مع شعبه ولا مع جمهور قرائه في الارياف والنجوع .. والتعادلية عنده تستقيم في آخر الامر ، في صورة الغاء الذات كشرط أساسي ، من اجل اعتراف الاخرين به . هكذا يتعادل ويتوسط ليس بين واقعه وطموحه ، بل بين واقعه وماضيه . بين مصر الحرة ومصر المحتلة . وفي نقطة وسط بين هاتين النقطتين بين مصر الحرة ومصر المحتلة ، يقع هوى قلبه ، مصر مستقلة بسيادة مشكلة ومصر خاضعة من الداخل وفاقدة للإرادة الوطنية المستقلة ، هذا هو طريقه الحضاري .

ترى .. هل يمكن لمفكر في الارض ، ان يستسهل الخيارات بهذه الصورة ، وان يتمسح تحت عتبات أعتى الاعداء واكثرهم عنصرية في التاريخ من اجل ان يحقق راحته وتطامنه الذاتي ..؟

هل يمكن لمفكر ان يفقد بصيرته على هذا النحو ؟..) .

محمود الريماوي

جريدة « الوطن » ـ الكويت ١٢ أيار ١٩٧٩

التجربة الشعرية بين الالزام والالتزام

(.. قد يقع أي شاعر في بدايات الامر اسير المعادلات الذهنية . خصوصا اذا كان لا يزال يحبو في مدارج رقيه الفني . ولكن الشاعر الاصيل سرعان ما يكتشف عبث مثل هذا الاسر ، فيحاول التمرد والانفلات . والمعادلات الذهنية والايديولوجية تظل نقاطا او مؤشرات لامعنى لها في الشعر اذا لم تصبح جزءا من رؤيا الشاعر وسلوكيته وتصرفاته . اي تصبح هي تجربته وحياته . اما الوقوع في اسرها والكتابة من خلال هذا الاسر قد يؤديان الى تدمير موهبة الشاعر والاجهاز عليه تماما . والجدانوفية هزمت في كافة العصور . كما هي لا تعني الالتزام على الاطلاق ، بل هي تعني ما يسمى بالالزام . لان الالزام أمر صادر من خارج عالم الشاعر . اما الالتزام فهو نداء الضمير وصوت الوجود الذي ينطلق من داخل عالم الشاعر الملتزم بحدود تجربته وعصره . اما بالنسبة الي ، فكنت اشعر بالحرية المطلقة ، خاصة في داخلي ، منذ بداية حياتي الشعرية . وانني لم اسمح باي نداء خارجي لا يتفق ومفهومي للحرية ان يؤثر علي . وليس معنى ذلك ان الشاعر هو ضد العالم ، كما انه ليس في صلح معه . اي ان موقف الشاعر تجاه العالم يسير وفق منطق جدلي . فقد يصطدم هنا ويلتقي هناك وهكذا . وقد يلتقي احيانا الصوت الداخلي مع الصوت الخارجي، وقد لا يلتقيان على الاطلاق. وانا خرجت من هذه الدائرة منذ البداية ، اذ انني لم اجعل

من نفسي اسيرا للمعادلات الذهنية والايديولوجية ، بل جعلتها اسيرة في يدي ، وفي خدمة شعري احيانا . لان التجربة الشعرية هي اوسع واشمل واعمق من هذه المعادلات الذهنية والايديولوجية ، وان كانت قد اقتربت في مطلع حياتي الشعرية منها ..) .

عبد الوهاب البياتي

من مقابلة معه ـ مجلة « الدستور » ـ لندن ١٤ ـ ٢٠ أيار ١٩٧٩

نقاد اليوم

ان الناقد العربي اليوم ، قارىء كسول يعتمد على المقولات الجاهزة ، ويتكىء على الاسماء الكبيرة يقحمها في كتاباته دونما وعي ودونما ضرورة . ولذلك فقد اساءت كتابات هذا الناقد كثيرا وشوهت معالم هذا الفن وحطت بعلياء الكلمة ... ولعل غياب الحاضر الادبي المؤثر راجع في أحد اسبابه الرئيسية الى غياب النقد .

الناقد العراقي عبد الستار جواد

من مقابلة له مع جريدة « تشرين » سورية ٦ حزيران ١٩٧٩

نقد اليوم

ان محمود السيد لم يبن هرما شعريا على الورق المصقول بل قادنا الى معرفة مخبرية قادرة على منح الشعر ضمانة تاريخية من خلال الاصرار على اعادة تركيب الذهن العربي وفق مخططات دماغ القصيدة . اضافة لهذه العملية الفنية ، فان المونادا قد احرقت سندات « طابو » الملكيات الخاصة للاسطورة والرمز والمثل الهزيلة لقوانين البداوة التي تجهز للشعر سريرا من الثلج .

أسعد الجبوري

جريدة « الثورة » ـ سورية ٦ حزيران ١٩٧٩

مسافر زاده الخيال

(.. طالما ان السينما السورية لا تنتج فانها لا تعني شيئا . وهي من هذا المنطلق في نقطة الصفر ..) .

(.. مجموع انتاجي في السنوات القليلة الماضية ـ في مجال السينما طبعا ـ يعادل مجموع ما انتجه السينمائيون السوريون ..) .

(..ويجب الا ننسى الافلام القصيرة التي اعتز بها كثيرا ولقد اخرجت حوالي مئة فيلم قصير ..) .

المخرج السوري نبيل المالح

من مقابلة له ـ جريدة « الراي » الاردنية ٨ حزيران ١٩٧٩

لا للوجودية والماركسية

قررت ادارة الرقابة بوزارة الاعلام والثقافة حظر تداول او استيراد كتاب « معنى الوجودية » وكتاب « دروس في الماركسية » وذلك لتعارض افكارهما مع مبادىء الشريعة الاسلامية والدعوة للوجودية والماركسية ..

جريدة « الوحدة »

ابو ظبي ـ ٧ ايار ١٩٧٩

شعراء كبار السن

(.. ان كثيرا من الشعراء يعاندون البدهيات ، فبعد ان يكونوا كبارا يعصرون حجمهم الادبي من غير ان يدروا . نزار قباني مثلا شاعر كبير في الميدان الغزلي ، وقد حاز مكانته هذه عندما كان شابا يمتلىء نشاطا ، ويأتي تعبير الحب عنده عفويا صادقا ، ثم تدنى مستواه كثيرا عندما طرق باب الشعر الوطني متسلقا موجة العمل الفدائي والناصرية ثم زاد انحدارا عندما رجع يكتب عن الحب والجنس وقد تجاوز السن التي تسمح له بذلك وتنفحه الشاعر الصادقة الحية ، واذا هو كالصائغ الذي يتقن صناعة الجواهر ، لكنه لم يعد يملك اليدين الماهرتين اللتين كانتا تبرعان في هذا العمل ، فيجمع من هنا وهناك مصوغاته القديمة ويحاول ان ينشىء من شتاتها صيغة جديدة ، لكنها تاتي متكلفة بلا حياة ، وان دلت على تاريخ الرجل العريق في هذه الصناعة .

ان بعض شعرائنا ومنهم ادونيس ، يريدون ان يظلوا في لوحة التاريخ رغما عنه ، وان يتسلقوا قمما جديدة ، مع ان صدورهم أصبحت ضيقة بانفاسهم ، ومع ان قلبهم عاد لا يستطيع ان يتحمل المجهود الضخم الذي يقتضيه صعود القمم . لكن ما اجدر هؤلاء المتصابين ، لو كانوا منطقيين مع انفسهم ، ان يخلوا المكان لغيرهم ممن لم يزالوا شبابا في حياة الشعر . ولهم اذا شاؤوا ان يفرغوا للنقد او للتنظير الشعري فهم احق بذلك واهله).

د. صافي المولى

جريدة « اللواء » لبنان ٤ حزيران ١٩٧٩

متى يكون الشعر جميلاً ؟!

(.. كم يكون الشعر جميلا ورائعا ، عندما يدخل الى حياة الناس ، ويتناول اهتماماتهم .. وقد انتهى عهد الشعر الذي يعيش في ابراج عاجية !

والشعر الذي يتناول قضايا الحياة .. قد لا تكون له الجودة الفنية . ولكنه يملك مقومات من الصدق والواقعية !

والقصيدتان .. اللتان ننشرهما اليوم .. واللتان كانتا اشبه بـ « معارضة » جميلة ولطيفة بين معالي الدكتور : غازي القصيبي وزير الصناعة والكهرباء ، ومعالي الشيخ : راشد بن خنين الرئيس العام لمدارس البنات ، وقد كانت القضية المطروحة هي .. ايصال التيار الكهربائي الى مدارس البنات) .

جريدة « الجزيرة »

السعودية ـ ٢٦ أيار ١٩٧٩

الثقافة الاميركية

(.. ففي « الثقافة العالمية » التي تولدت عن الثورة المعاصرة في وسائل الاعلام ، تحتل نوائج الاعلام الاميركي موقع الصدارة . وهكذا تصدر اميركا الى بلاد العالم وبخاصة ـ العالم الثالث ـ افلامها السينمائية ومسلسلاتها التلفزيونية واسطواناتها ورقصاتها وازياءها . وفي هذه النوائج الاعلامية والثقافية تندس ـ بطريقة قد لا تكون مقصودة احيانا ، ولكني ارجح انها مقصودة في اغلب الاحيان ـ صورة براقة للحياة الاميركية ، تمر في الفيلم أو الحلقة التلفزيونية مرورا عابرا ، ولكنها تؤثر تأثيرا بالغا جدا على المستوى الشعوري واللاشعوري ـ في المشاهدين ، ولا سيما اذا كان الطابع الغالب على حياتهم هو الحرمان . وبمضي الوقت تترسب في اذهانهم صورة اميركا الضخمة ، الفخمة ، المترفة ، القادرة على كل شيء ، والتي لا يقف في وجهها شيء ، ويكون لهذه الصورة حتما تأثيرها في وعيهم الاجتماعي واختياراتهم السياسية ..) .

د. فؤاد زكريا

جريدة « الوطن » ـ الكويت ٢٢ أيار ١٩٧٩

أعمى يقود أعمى

(.. فالذي نلاحظه في ايامنا هذه أن النقد اخذ يتحلل شيئا فشيئا من اصوله ومنابعه ، حتى اننا صبحنا لا نجد فيما ينشر من نقد آية اشارة الى المام الناقد بالنحو او اللغة او البلاغة وكل ما نجده محاولات لتفسير النص وحل ما فيه من الغاز ومعميات بالغاز ومعميات لا تقل عنها غموضا واستغلاقا ..) .

د. جميل علوش

جريدة « الدستور » الاردنية ـ ١ حزيران ١٩٧٩

مقتبس أم مترجم

(.. الموجود من أدب الاطفال سواء كان عبر المكتبات أو دور النشر اما مقتبس أو مترجم ، فيما يتعلق بالاصيل موجود ولكنه قليل ، فالغلبة يجب ان تكون بالنهاية للاقلام العربية التي تتجاوب مع حاجات الطفل العربي وتنشئه تنشئة صحيحة كانسان ومواطن عربي ..).

د. صبيحة فارس

من مقابلة لها – مجلة « الى الامام » لبنان ٨ – ١٥ حزيران ١٩٧٩

القديم رد على القمع الحديث

(.. في العالم العربي اليوم بحث عن الهوية وارادة التوصل الى تحقيق الذات والتخلص من مخلفات الاستعمار الغربي ونتائج استيراد التكنولوجيا والنظم الغربية . والقومية حتما كانت وسيلة بحث عن الذات لكن يبدو انها لم تنجح كليا ، ربما لانها مبدا ماخوذ عن الحضارة الغربية ، وكذلك الاشتراكية . ولكن ما العمل ؟ والسؤال هل يمكن اليوم بكل بساطة ، ان نرجع الى الماضي ؟ والغريب أن التيارات السلفية تظهر خاصة في البلدان التي ذاقت كبتا وقمعا لها مقابل تيار تحديث قسري ..) .

المستشرق السويسري ارنولد هوتنفر

من مقابلة له – جريدة « النهار » لبنان ٧ حزيران ١٩٧٩

التراث المهمل

(.. لا اريد أن احجر على هؤلاء الا يفيدوا من مصادر غير عربية وذلك ان الحاجة في عصرنا هذا تحفزنا مثلاً الى أن ناخذ اشتاتا كثيرة من الحضارة الغربية ، ولكني اريد ان اقول اليس من العبث بل الجهل الا ناخذ زادا انبتته هذه الارض العربية لنذهب الى شيء من معناه لا نعرفه في بيئتنا فنجتلبه اجتلابا فيبدو مسخا مشوها ؟ فما بال السياب مثلاً قد طلع علينا بشخوص بل انصاب عرفها في ادب فلان وفلان من الغربيين الذين اولعوا اشد الولوع بالذخائر الاغريقية ثم الرومانية ؟ ..) .

(.. اذا كان هذا النفر المتادب قد وجد أن الاسطورة القديمة أداة رمز ووسيلة اعراب غير مباشر فهلا عدلوا الى التراث العراقي القديم من أدب السومريين والبابليين وغيرهم فاقتبسوا منه هذه الفوائد الاسطورية ؟ من الظلم ان نبقى نجهل الكثير من ذخائر هذا التراث القديم حتى نراها ماثلة في أدب الغربيين فنخف اليها بضاعة فرج كانها ليست من هذه الارض الطيبة ..) .

ابراهيم السامرائي

مجلة « الطليعة الادبية » العراق – حزيران ١٩٧٩